هوميروس

الاوذيسة

ترجمة: عنبرة سلام الخالدي



دار العلم للملايين - بيروت

الأوذيسة



نقلتها الى العربية

عنبرة سلام الخالدي

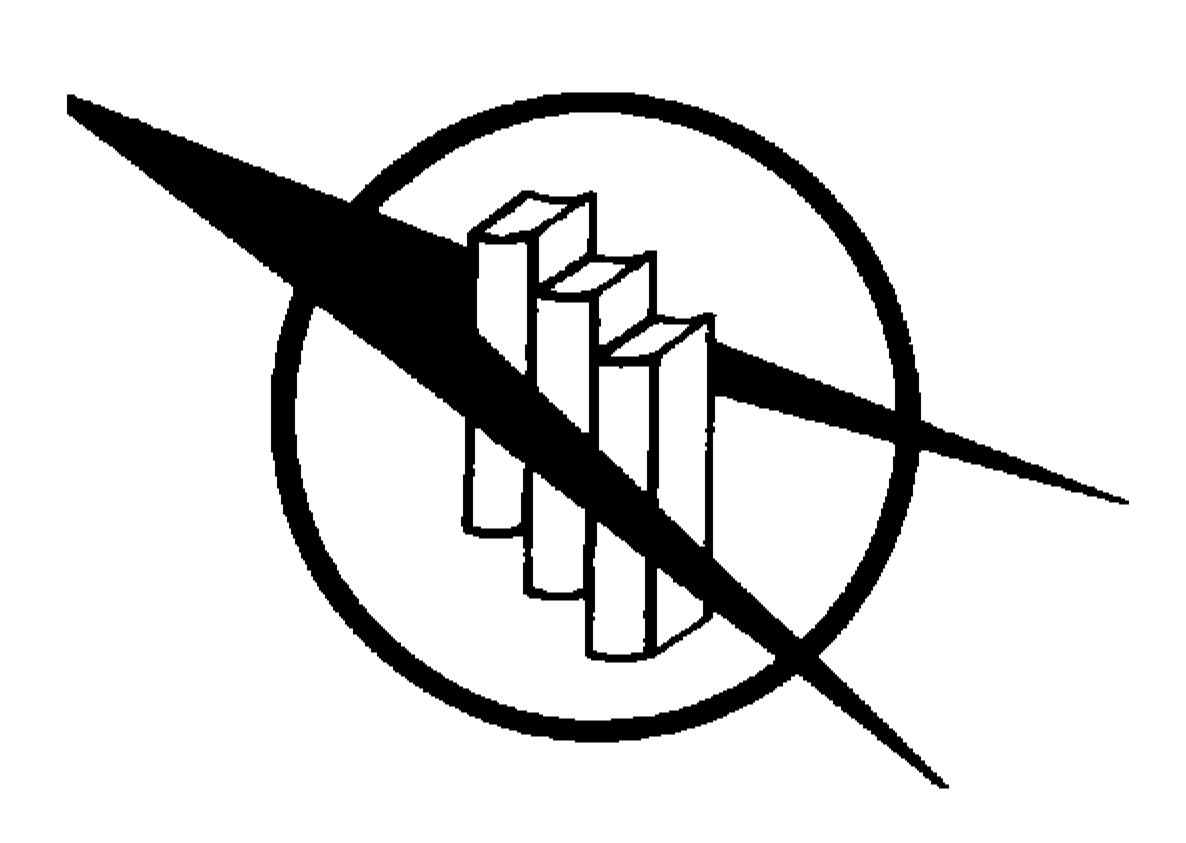
دار العلم للملايين

ص ب ۱۰۸٥ - بيروت

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو
ص.ب ١٠٨٥ - تلفون ٣٠٤٤٤٥ - ٨١٦٦٣٩
برقياً ملايين - تلكس ٢٣١٦٦ ملايين

بيروت - لبنان



آذار (مارس) ١٩٨٣

تمهيد

الأوذيسة هي إحدى الملحمتين الخالدتين المنسوبتين إلى هوميروس الشاعر اليوناني العظيم . وهي وصف لرحلات أوذيس (أو عوليس ، كما يسميه البعض) ملك إيثاكة، تلك الرحلات التي دامت عشر سنوات ، واكتنفتها الأخطار والمشاق، في طريق رجوعه إلى بلاده ، بعد سقوط طروادة .

وكلمة أوذيسة ، في اللغات الأوروبية الآن ، تُرادف معنى سلسلة طويلة من الرحلات ، أو رحلة يمتدُّ بها الأمَد ، وتتخللها المخاطرات والأهوال ، كما ترادف قصة السندباد ، عند أبناء العربية ، معنى سفرات شاقة مُفعَمة بالغرائب والمفاجآت .

وأوذيس ، في الأساطير الإغريقية ، هو ابن ليرت ،

وأمه أنتكليا . وهو ملك إيثاكة ، وبطل مشهور يصحّ أن يُعدّ ممثّلاً لخصائص الشعب الإغريقيّ . وقد خلّده هوميروس على أنه خير أبطال الإغريق وأشجعهم ، والحبيب المفضل عند الإلهة أثينا . ولا بدّ من القول إنّ ذكر هذا البطل قد جاء في الأساطير الإغريقية المتأخرة موصوفاً بالجبن والخداع .

وتزوّج أوذيسُ بِنلوبَ ، ولم يمضِ على زواجه غير قليل حتى دُعي إلى حرب طروادة . ولم يكن راغباً في الحرب فتظاهر بالجنون ، وأخذ يحرث أرضاً ويبذرها ملحاً بدل الحبوب ، وقرن ثوراً إلى أتان . فكشف فلاميدس أحد مواطنيه عن خدعته ، بأن وضع له طفله تليماخَ أمامَ المحراث ، فانتقم أوذيس لنفسه فيما بعد ودبّر لفلاميدس شر قتلة .

ولما نشبت الحربُ بَذّ أوذيس أقرانه ، فكان حكيم الإغريق ومشيرهم ، وصاحب الرأي الفصل عند الملمات ، حتى أن سقوط طروادة لم يكن بشجاعة أخيل ، ولا بصبر الإغريق على القتال ، ولكن بتدبير أوذيس حيلةَ الحصان الخشبي . وعدّه مواطنوه أعظم من ساهم في إحراز النصر في محاربتهم لطروادة ، فقضوا بتسليمه سلاح أخيل بعد وفاته .

ولما استولى الإغريق على طروادة ، أبحر أوذيس يقصد إيثاكة ، فعاندته الريــاح ، حتّى قذفت بـه إلى شواطىء افريقيــا . وبعد أن لاقى من الأهوال مـا لاقى في مجاهل البحار بين آكلي النيلوفَرِ (اللوتيس) تارةً ،والسيكلوبيين (وهم عمالقة،للرّجل منهم عين واحدة في منتصف جبينه) حيناً ، وفي الجزر التابعة لايلوس وسيرسة تارة أخرى ، وبعــد أن عانى أهــوال سيلا وخاربيديس ، وأهــوال اللسترِيجونيين وعــالم الموتى ، وبعد أن فقــد كلَّ سفنه ورجاله ، تمكن من النجاة بحياته ، والوصول إلى جزيرة الحوريـة الجميلة كاليبسو ، التي أمسكت بــه لديها طيلة سنواتٍ ثمانٍ . ولكنه كان لها الحبيب الساخط ، والمعشوق المتبرّم على الدوام ، حتى تدخل الإلـه زفس فأمر برجوعه إلى وطنه . ولكنّ سفينته تحطمت مرةً أخرى عند جزيرة فيسيا ، فنُقل مــن هناك إلى إيثاكـة في أحــد مراكب الفيسيين العجيبة .

ولمــا وصل إلى بلده وجد حشداً من الخُطّاب قــد غنموا فرصة غيابـه ، وصغر سنّ ولده تليماخ ، فأخذوا يُبذّرون أمواله ، ويبدّدون رزقه ، ويحاولون أن يُكرهوا امرأته على الزواج بأحدهم .

وقصة الأوذيسة التي نقدّمها لقراء العربيّة الآن تصف

لنا كل ما حلّ بأوذيس في سفره من عذاب . وصفاً مطولاً دقيقاً . وهي تصف أيضاً الخطط والخُدع التي وضعها ونفّذها بمساعدة نفر من أصدقائه الأمناء ، حتى تمكّن من الفتك بخطّاب امرأته بنلوب ، والقضاء عليهم .

أما ما انتهى اليه أمر أوذيس ، فإن الإشارة الوحيدة إلى موته إنما وردت في نبوءة تريسيا ، الذي وعده بأن تكون شيخوخته سعيدة وميتته هنيئة ، تأتيه من البحر . وتقول أسطورة متأخرة إن تليغونوس بن أوذيس من سيرسة ، أرسلته أمه للبحث عن أبيه ، فقامت في طريقه عواصف قذفت به على ساحل إيثاكة . وهناك أخذ ينهب الجزيرة سعياً وراء القوت ، وهاجمه أوذيس فكان نصيبه الذبح بيد ولده من غير أن يعرف أحدهما الآخر . وهكذا تمّت النبوءة بأن أتاه الموت من البحر . ولما أدرك تليغونوس هوية أبيه حمل جسده عائداً به إلى وطنه ترافقه بنلوب وتليماخ .

واختلفت آراء العلماء في منشأ أوذيس ، ومكانه الخرافي في الأساطير الإغريقية . فمنهم من يقول إن أوذيس إلـه من آلهة الطبيعة عند الأرقاديين القدماء ، وهو مرادف لفوسيذون ، إذ إنه يموت عند اقتراب الشتاء مختفياً في البحر الغربي ، أو يُحمل إلى العالم السفلي ، ثم يعود

فيترعرع في فصل الربيع . ويقول غيرهم إنه على هذا الاعتبار يكون أقرب الى الإلـه هِرْمِسَ (رسول الآلهة، وإلـه العلوم والتجارة والفصاحة ، وكثير من فنون الحياة، وأكثر ما يُرمز اليه بشاب فتيٍّ جميل .)

على أن علماء آخرين يعدّون أوذيس إلهـاً شمسياً،أو إلـه الصيف ، فهو يتوارى في العالم السفليّ أيام فصل الشتاء ، ثم يعود في الربيع ليحرِّر امرأته من الخطّاب (رمز قوى الشتاء) . وفي رأي آخر ، أنّه إلـه الزراعة ، وقريب من إلـه الشمس . وامرأته إلهَة القمر بنلوب ، التي ينفصل عنها ، ثم يجتمعان في اليوم الذي يتكوّن فيه القمر الجديد. على انَّ عبادته هذه قد اختفت من أقدم الأزمان في أرقاديا، وحلّت محلها عبادة فوسيذون .

ومهما يكن من الأمر ، فإن شخصية أوذيس قد يكون منشؤها خرافة دينية ساذجة . وأهم ما فيها أنها تمثل تمثيلا صحيحاً ذلك الشعب البحار القديم ، الذي كان لمغامراته البحرية الجريئة أبلغ الأثر في تكوّن الجنس الهيليني وتهذيبه.

أما العصر الذي اتخذت فيه هذه الشخصية ، أي شخصية أوذيس ، شكلاً معيناً بين الأناشيد الإيونية فذلك عندما كانت السفن الإيونية تنفذ إلى أبعد الشواطيء في البحر

الأسود والناحية الغربية من ايطاليا ، يوم لم تكن مصر قد فتحت بعدُ أبوابهـا للتبادل التجاري الأجنبي ، فكانت مغامرت أوذيس موضوعاً شيّقاً في الأدب القديم ، وكان يُعرف على الأكثر ببحّار ذي قلنسوةٍ مخروطية الشكل .

والأوذيسة تصف لنا وصفاً رائعاً جذاباً عادات الإغريق في تلك الأيام ، وتتناول طرق عيشهم ، وآداب سلوكهم ، وتعاملهم في أيام سلمهم ، كما وصفت لنـا الإلياذة حالة الإغريق هؤلاء في أيام حربهم وقتالهم .

١

مشورة أثينا

لما سقطت مدينة طروادة العظيمة ، أبحر جميع الزعماء الذين شنوا الحرب عليهـــا إلى أوطانهم . ولم تكن سبُلُ رجوعهم ممهدة سليمة ، فقد ثار عليهم الغضب في السماوات العُلى ، فتحطّمت بأحدهم سفينته ، وذُبح غيره في قصره ذبحاً شائناً بيد امرأته الماكرة ، ووجد آخرون أن الفوضى قد عمّت منازلهم ، فلم يبقَ فيها شيء على حاله ، فاضطروا إلى البحث عن مساكن جديدة في أماكن أخرى وطوّحت ببعضهم عوادي الدهر ، فهاموا في طول الأرض وعرضها قبل أن يروا مواطنهم . وكان الحكيم أوذيس أبعدهم في الأرض اجتياباً وأشدهم عذاباً ، فقد تقضّت أعوام عشرة بكاملها ، وكان لا يزال بعدها يضرب بعيداً عن مملكته إيثاكة .

وعقد الآلهة مجلساً للشورى في بَهْو الأولمب ، ولم يتغيب منهم إلا فوسيذون ، فقد ذهب يقيم شعائر العيد مع الإيثوبيين . وكان فوسيذون أشد الآلهة كُرهاً لأوذيس ، والحائل دون وصوله إلى بلاده .

وتكلم زفس في الآلهة الخالدين فقال : « إنه لمنتهى البُطل أن يلقي البشر بتبعات أخطائهم على الآلهة ! ها كم أغيستوس ، فقد جوزي على سوء أعماله جزاء وفاقاً . فإنه اغتصب زوجة الملك أغاممنون ، وذبح الملك نفسه حينما عاد إلى بيته . وقد فعل هذا بعد أن أنذرناه مغبَّة فِعلته الشنعاء بأن أرسلنا إليه رسولنا هِرْمِس . وهو الآن إنما يدفع ثمن فحته ! » .

فأجابت أثينا : « حقاً إنه قد لاقى المصير الذي يستحقه. ألا فليهلك نظيره كل من تسوّل له نفسه مثل هذه الاعمال ! وقلبي إنما يتقطّر أسىً على أوذيس لشدة ما عانى من المِحن في الجزيرة البحرية حيث تستبقيه بنت أطلس ، محاولةً أن تُنسيه أرض آبائه . وهو إنما يتوق إلى رؤية أقلّ شيء من أرض مولده ، ولو كان الدخان المتصاعد منها ، ثم يلقى حتفه راضياً . وأنت لست تأبهُ لكلٍّ هذا . ألم يتقدم إليك بالكثير من القرابين في أرض طروادة ؟ فلمَ تحمل له كل هذا الحقد ؟ ».

فأجابها زفس : « ما هذا الذي تقولين يا ابنتي ؟ إن فوسيذون هو الذي يحمل لأوذيس الحقد العظيم ، لأنه سمل عين ابنه فوليفيم السيكلوب ولكن هلموا ولنتشاور معاً لكي نرجعه إلى بلده ، إذ ليس في وسع فوسيذون أن يُخاصمنا جميعاً » .

فقالت أثينا : « إذا كانت هذه مشيئتك ، فلنوجّه الرسول هِرمس إلى جزيرة كاليبسو ، وليُعلِن الإلهَة رغبتنا في رجوع أوذيس إلى وطنه . وسأذهبُ أنا إلى إيثاكة وأثير حماسة ولده تليماخ ، فيصارحُ أولاً خُطاب أمه الذين بدّدوا رزقه بما في نفسه ، ثم يذهب إلى اسبارطة ومنها إلى فيلوس يتنسم أخبار أبيه ، فيصيب هذا الفتى ذكراً حسناً بين الرجال » .

وعلى هذا ذهبت أثينا إلى إيثاكة ، واتخذت لنفسها شكل مِنتيس زعيم التفيانيّين .

وكان كثيرون من أمراء الجُزر ، خُطّاب الملكة بِنيلوبَ قد احتشدوا هناك في بيت أوذيس زاعمين أن أوذيس قد مات وأن عليها أن تختار زوجاً سواه . وقد اجتمع هؤلاء معاً ، وجلسوا يلهون ويلعبون . وجلس بينهم تليماخ يحمل الغيظ في قلبه ، لأن هؤلاء قد بدّدوا أمواله ، ثم إنه لم يعد سيداً في بيته . ولكنه لما رأى الضيف عند

الباب نهض من مكانه ورحب بـه وأجلسه ، وأمر بـأن يُقدَّم له الطعام والشراب . ولمـا انتهى من طعامه سأله تلماخ عن حاجته .

عندئذ أجاب منتيس الزائف : « إنني منتيس ملك التفيانيين ، وأنا مُبحِر إلى قبرص أقايض من نحاسها بما معي من حديد . وقد كنت صديقـاً لهذا البيت منذ أمد بعيد ، كنت صديقاً لأبيك وأبـي أبيك ، وقدمتُ اليكم واثقاً أن ألقى أباك ، فقد قيل لي إنه هنا . ولكني أرى الآن أن إلهاً من الآلهة قد أعاقه عن الرجوع . وإني لعلى يقين أنه ما زال على قيد الحياة . ولكن أنبئني خبر هؤلاء الذين أراهم هنا ؟ أهو اجتماع قبيلة جاؤوا يعقدونه ، أم هي وليمة عرس دُعوا اليها ؟ لا جرمَ أن العاقل ليحتدم غيظاً لدى هذه الأعمال » .

فأجاب تلماخ : « إن بيتنا يا سيدي كان غنياً مكرَّماً في حياة والدي ، وأما الآن وقد رحل ، فالأمور لا تسير معي على ما يُرام . ولم أكن لأحزن هذا الحزن لو صُرع أبي في القتال أمام طروادة ، إذ لو وقع هذا لأقام لـه الإغريق نُصباً عظيماً ، ولأبقى هو لولده الذكر الحسن . أما الآن وقد طوّحت بـه أعاصير البحار ، فإنـه لم ينل شرفاً وخلفني أقاسي الغمّ والأسى . فإن هؤلاء الذين تراهم

أمامك هم أمراء الجُزر ، أتوا الينـــا يخطبون ودّ أمي .
وأما هي فلا تردهم خائبين ولا تقبل ما يعرضونه عليها .
وها هم يقيمون هنا يُبددون أموالي » .

عندئذ قال منْتيس الزائف : « مدّتك الآلهة بعونها!
لأنك حقاً في أشد الحاجة الى أوذيس . ليته يأتي ويقف
في مدخل الباب بخوذته ومِجنّه حاملاً في كلٍّ من يديه
رمحاً كما رأيته حينما جاء الى بيت أبي قادماً من إفيرةَ !
وكان قد ذهب إلى هناك ليطلب من إيلوسَ ، ملك البلاد
حينذاك ، سماً قاتلاً يمسحُ به سهامه . وقد رفض إيلوس
أن يعطيه ما طلب خوفاً من الآلهة ، ولكن أبي اعطـاهُ
ذلك لفرط حبّه له . بيد أن أمر رجوعــه وعلمـه بيد
الآلهـــة . وعليك الآن ان تصغي الى نصيحتي : أدعُ
الشعب اولاً الى الاجتماع ومُرْ خطّاب أمـــك ان يعود
كلٌّ إلى بلده . وأما أمك ، فإذا أبدت رغبتها في الزواج
فلترجع الى بيت أبيها ، وهناك يقيم لها أهلها وليمة العرس،
ويُعدون لها من الهدايا مـا يليق بالبنت الحبيبة . ثم جهّز
لنفسك مركباً ذا عشرين مِجذافاً ، واذهب باحثاً عـــن
أبيك مستقصياً ، فلعلّ البعض ينبئُك بخبره ، أو لعلّك
تسمع مـن زِفْسَ صوتاً يُرشدك الى مكانه . إذهب إلى
فليوسَ أولاً ، ومن ثم إلى اسْبارطةَ حيث يقيم مانيلا ،

وهو آخر من آب من الإغريق إلى وطنه . وإذا ما بلغك خبر موته ، فارجع إلى هنـــا وأقم له نُصُباً ، وأجرِ عنده شعائر الدفن اللائقة به ، وامنح أُمك زوجاً . وإذا ما انتهيت من هذه الأعمال كلها ، فدبر في نفسك أمـر الفتك بهؤلاء الخطـاب سواء أكان ذلك عنوة أم خدعة ، فقد حان لك أن تفكر تفكيرِ الرجال . ألا تعلم أي مقام مجيد ناله أُوريسْتُ بين الرجال لفتكه بأغيستوس قاتل أبيه ؟»

فقال تلماخ : « لقد خاطبتني بكلام صادر عن قلب صدوق ، كما يخاطب الأبُ فتـــاه ، ولن أنسى ذلك ما حييت . أما الآن فرجائي إليك أن تُقيم هنا حيناً مـن الزمن لكي أتحفك بهديـــة نفيسة ، كتلك التي يتبادلها الاصدقاء ، فتكون في بيتك متاعاً متوارثاً . »

ولكن مِنتس الزائف قال : « لا تمسك بـي طويلاً ، فإني أرغب في الرحيل . وأما هديتك فأعطنيها لدى عودتي.»

وانصرفت الإلهة ، وكانت وهي تبرح المكان أشبه بنسر البحر ، فأدرك تلماخ عند ذاك أنها إحدى الربّات .

وكـــان المنشد فيميوس في غضون ذلك يغني الخُطّاب نشيداً ، يصف فيه ما حاق بالإغريق مـن الكوارث لدى عودتهم من طروادة ، لعملهم بمشورة أثينا .

وسمعت بنلوبُ النشيد فانحدرت من عُلّيّتها تصحبها اثنتان من وصيفاتها . ولما وصلت الى حيث الخطاب جالسون، وقفت عند باب البَهْو مُسدلةً نقابها الزاهي على وجهها . ثم خاطبت المنشد وهي تنتحب فقالت : « إنك يا فيميوس لتعرف الكثير من الأناشيد التي تصف أعمال الآلهة والرجال، فأنشد أحدها وليشرب ضيوفنا الخمر في سكون . ولكن كفّ عن هذا اللحن الحزين ، فإن قلبي يتصدّع لسماعه. ولا ريب في أني أشقى النساء حظاً ؛ لأن الزوج الذي أندبه كان رجلاً عظيماً » .

غير أن تليماخ أجاب : « لماذا تحقدين على المنشد يا أماه إذا ما أطربنا بما توحيه اليه نفسه . ولا لوم عليه ولا تثريب ، إذا ما أشاد بإخفاق الإغريق في رجوعهم ، لأن من عادة الناس أن يؤثروا من الأناشيد التي تطرق أسماعهم أحدثها . فأصغي إذاً متجلدة ، واعلمي أن أوذيس لم يضلّ الطريق وحده ، بل هناك من الزعماء كثيرون غيره . إذهبي إلى مخدعك ، وانصرفي إلى شؤون بيتك ، ومُري وصيفاتك أن يقمن بواجباتهن . فإن الكلام من شأن الرجال،وهو من شأني خاصةً لأني سيد هذا البيت . »

عند ذلك ارتدّت إلى مخدعها ، وقد أدهشها ما ظهر

في كلام ولدها من سلطان. وظلّت تندُب سيّدها إلى أن أرسلت أثينا النوم على عينيها.

وبعد انصرافها خاطب تلماخ الخُطّاب قائلاً: « دعونا الآن نلْهُ ونمرح، ولا تحدثوا فيما بيننا شغباً. فالاستماع إلى منشد، صوته كصوت الآلهة لَمِنَ المُتع المستحبة. ولكن لنذهب في الصباح إلى المجلس، حيث أصارحكم برغبتي في أن تغادروا هذا المكان، وتأكلوا من أموالكم. وإذا فضلتم أن تبدّدوا أموال غيركم، دون أن تقدّموا عنها عوضاً، فاصنعوا ما بدا لكم، بيد أني على يقين أنكم ستلقَون العقاب من زِفس. »

قال هذا فدُهش الجميع لهذه الجرأة وأجابه أنطينوس: « لا ريب في أنك لا تخاطبنا بهذه الجرأة إلا بأمرٍ من الآلهة، ولذا فإني أدعو زفس ألا يتيح لك يوماً أن تكون ملكاً على إيثاكة، وأن كانت هذه المملكة هي حقك الشرعي الموروث. »

فقال تلماخ: « ليس من الشرّ في شيءٍ أن يكون الإنسان ملكاً، فلبيته الثروة النامية، ولشخصه الشرف العظيم، غير أن في إيثاكة كثيرين غيري من الشبان والكهول، قد يصير اليهم الملك الآن، وقد مات أوذيس. واعلم،

على كل ، أني سأكون سيد بيتي ، وسيد الأرقاء الذين غنمهم أوذيس بحدّ رمحه » .

عندها تكلم أوريماخ قائلاً : « إن أمر المُلك في إيثاكة من شأن الآلهة ، وأما احتفاظك بممتلكاتك الخاصة ، وسيادتك المطلقة في بيتك، فليس هنالك من ينكرهما عليك، وليس من أحد تسوّل له نفسه أن يأتيك وينتزع منك مالك قسراً . ولكن ، هلا أعلمتني مَن هذا الغريب الذي جاء منزلك منذ قليل ، هل حمل اليك البشائر عن أبيك ، أو هل جاءك في حاجة له خاصة ، لقد غادر المكان في حالة مريبة ، ولم يتلبث حتّى نتعرفه . ويلوح لي مع هذا أنه ليس من أسافل الناس » .

فأجاب تلماخ : « لا ريب عندي يا أوريماخُ أن اليوم الذي يعود فيه والدي قد ولى إلى الأبد ، ولستُ أبالي بالبشائر ، أياً كان مصدرها . ولا أكترث للتكهنات أياً كانت ، وأياً كان الكاهن الذي يُلقيها على والدتي وهي ترحب به في قصرها . وأما هذا الغريب فقد زعم أنه مِنتيس ملك التفيانيين » .

قال تلماخُ هذا ، وهو يعلم في أعماق نفسه أن الغريب كان أثينا نفسها . ثم مال الخطّاب إلى الرقص والغناء ،

وظلوا في مرح إلى حلول الظلام ، ثم تفرقوا ، كلٌّ إلى منزله ، ليناموا .

ولكن تليماخ ذهب إلى غرفته ، وهو يُدبر في نفسه أموراً كثيرة . وصحبته أوريكْليا التي حضنته صغيراً وهي تحمل مشعلين بيدها . ففتح باب الغرفة ، وخلع صداره ، وألقى بـه إلى المرأة الحكيمة فطوته وسوّته ثم علقتـه ، وخرجت من الغرفـة ، وجذبت الباب وراءها ، وأوثقت أغلاقه . وأقام تليماخ طيلة الليل يفكر في أمر الرحلـة التي أرادته عليها أثينا .

٢

المجلس

ولما أصبح الصباح ، أمر تليماخ دعاته أن يدعوا القوم للاجتماع . فدعوهم فلبّوا مسرعين ولما اجتمعوا ، قصد هو إلى مكان الاجتماع يحمل رمحاً في يده ، ويتبعه كلبان . وخلعت عليه أثينا وقاراً رائعاً ، أدهش به القوم ، وهو يأخذ مجلس أبيه منهم .

وتكلم أغيفتوس أولاً ، وكان رجلاً أحنت ظهره السنون ، وحنكته الأيام ، فأكسبته الحكمة البالغة . وكان له من الأولاد أربعة ، ذهب أحدهم إلى طروادة مع أوذيس ، وكان آخر منهم أحد خطاب الملكة ، وأقام الاثنان الباقيان في الحقل مع أبيهما . تكلم أغيفتوس فقال : « أصغوا إليّ يا رجال إيثاكة ! إنه لم يعقد اجتماع في

إيثاكة منذ رحيل أوذيس ، فمن ذا الذي دعانـا الآن ؟ إذا كان الداعي تليماخ ، فليقل مـاذا يريد ؟ هل بلغتـه بشائرُ برجوع الجيش ؟ إني لأظنّه رجل صدق ، فليكن زفس معه ، وليمنحهُ رغبات فؤاده ! »

قال الرجل العجوز هذا ، فسُرَّ تليماخ بما في خطابه من الفأل ، فنهض وقال :

— « يا رجال إيثاكة إني أحمل في فؤادي هماً مبرحاً، فإن أبـي لم يكن ذلك الرجل الذي تمحضونه الحب جميعاً. ثم إن أمراء الجزر يأتون إلينـا يراودون أمي ، ولكنها ما زالت تنتظر رجوع زوجها ، وها هـم يلتهمون رزقنا وليس أوذيس هنا ليدفعهم عنه ، ولست أنا وايمُ الحقِّ كفؤاً لذلك . وهذا لعمري ظلم فاحش لا يطاق » .

ثم ضرب بصولجانه الأرض ، وجلس ينتحب . فنهض أنطينوس ، أحد الخطّاب ، وقال :

— « ألا لا تُنحِ علينا باللائمة يا تليماخ ، ولا تلم إلا أمك ، فهي أدهى النساء طراً . فها نحن قد أتيناها للسنة الرابعة خاطبين ودّها ، وهي مـا زالت تعللنا بالآمال . وهاك الآن ما صنعت : إنها هيأت سداةً عظيمه للنسج ، وقالت لنا : أصغوا إلى يا خطّابـي ، ولا تتعجلوا زواجي،

حتى أنهي هـذا النسيج ليكون للبرت كفناً . فمن أقبح العار ، ولا ريب ، ألا ينال مثل هذا الشرف رجل امتد سلطانه على هذا الملك العظيم . قالت أمك هذا ، وظلت تخدعنا ثلاث سنوات ، إذ كانت تنقض في الليل ما تحوكه في النهار . ولمّا حلّت السنة الرابعة وقفتنا إحدى وصيفاتها على جلية الأمر ، فأتيناها في إحدى الليالي عـلى غرة ، فرأيناها تنقض من النسيج ما كانت قد حاكته في النهار . عندئذ اضطرت إلى إكماله على كره منها . فأبعد أمك إذاً عن هذا المكان ، ودعها تتزوج بمن تشاء . وقبل أن يتم هذا لن نبرح هذا المكان » .

فأجاب تلماخ : « كيف يسعني إبعادها رغم إرادتها ، وهي التي حملتني وربتني وعليّ أن أدفع غرامة كبيرة لأبيها إيقار . ثم إن لعنة أمي تحل بي ، ولذا فإني لا أستطيع أن آتي أمراً كهذا » .

قال هـذا ، وأقبل نسران يطيران جنباً إلى جنب إلى أن بلغا فوق مكان الاجتماع . وهنالك حوّما في الفضاء ، وأسقط كـل منهما بعض ريشه ، ثم افترقا بعد أن مزّق أحدهما الآخر . عندئذ صاح أليثر العرّاف قـائلاً : « ألا كونوا على حذر فإن شراً عظيماً سيصيبكم ويصيب

سواكم . وأمـــا أوذيس فقـد تنبأت لدى ذهابــه إلى طروادة ، بأنه يعود بعد عشرين عامـاً ، وإن هذا واقع لا ريب فيه » .

ولمّا لم يأبه الخطّاب لهذا الكلام ، قال تليماخ : « أعطوني سفينة وعشرين جذافاً ، فأذهب إلى فيلوس واسبارطة ، عليّ أن أسمع نبأ عن أبـي . وإذا سمعت خبر موتــه ، رجعت إلى هنـــا وأقمت له نصباً ، وأجريت شعائر الدفن اللائقة به ، وتركت لأمي أن تتخذ لها زوجاً . »

قال هذا وجلس ، فنهض مِنطورُ الذي أقامه أُوذيس عند سفره قيّماً على بيته ، وقام في الوسط وتكلم قائلاً : « لا كان بعد اليوم ملكٌ صالح طيّبُ القلب راغبٌ في إقامة العدل ، بل ليكن الملوك قساةً ظالمين ، فليس مَن يذكر أُوذيس من بين القوم الذين كـان لهم سيداً ، مع أنــه كان يرفُق بهم رِفقَ الأب العطوف . وإذا كـان الخطاب يقصدون لسوء الأعمـــال ، فإنني لا أصدّهم عن ذاك ، وهم انما يصنعون الشر مخاطرين برؤوسهم، ولكني حانق على هؤلاء القوم إذ أراهم جالسين لا ينبسون بكلمة ولا يُنددون بهؤلاء الخطّــاب ، في حين أنهـــم كثيرون والخطاب قليلون . »

فأجاب ليوقريتُ ، أحد الخطاب ، قائلاً : حقاً لقد

ضلَّت فطنتك يـا منطور بدعوتك القـوم إلى تحقيرنـا . قسماً لـو رجع أوذيس نفسه ، وحاول طرد الخطـاب من القصر ، لعاد عليـه ذلك بالويل ، ولو دعـاهم إلى القتال ، وهم أكثر عدداً ، لأوردوه مورد الهلاك . أما هؤلاء القوم فليتفرقوا إلى منـازلهم ، وليُسرع منطور ، وهو صديق الأسرة ، في اعداد الفتى لرحلته ، مع أني في شكٍّ من إتمامه لها » .

قال هذا فانفضَّ الاجتماع .

وأما تلماخ فانتحى مكاناً عند الشاطىء ، وغسل يديه بماء البحر ، ودعـا أثينا قائلاً : « إليك يا من أتيتِ منزلي أمسِ ، وأمرتني أن أتخذ سفينة ، وأطوف في البحر متنسماً أخبار والدي ! إليك أتجه بدعائي وأبثُّكِ نجواي ، فإن القوم قاموا عائقاً في سبيل مقاصدي ، يحفزهم إلى ذلك خُطاب أمي ، وقد ملأ الحقد قلوبهم » .

ووقفت أثينا إلى جانبه وهو يصلي ، متخذة هيئة منطور شكلاً ومنطقاً ، وقالت : « أحسب أنه لا يعوزك الذكاء ولا الفطنـة ، وأنت تودّ أن تكون لأوذيس وبنلوب نِعم الولد حقاً وصدقاً . ولذا فإن لي الأمل العظيم بـأن هذه الرحلة ، التي تتكلم عنها ، لن تكون عبثاً . أمـا هؤلاء

الخطاب فلا تفكر فيهم أبداً ، فهم لا يعقلون القول ، ولا يدركون أن الهلاك منهم قريب . فاذهب إذاً ، وكلم خُطاب أُمك كما فعلت قبلاً ، وهيء لنفسك زاداً للسفر من النبيذ والدقيق ، وسأجمع رجالاً يقدمون أنفسهم طوعاً لهذه الرحلة ، كما سأجد لك سفينة تكون أفضل سفن إيثاكة » .

فرجع تليماخ بعد ذلك إلى بيته ، فوجد الخطّاب يسلخون المعز ، ويشيطون لحوم الخنازير في البهو، فأمسكه أنطينوس من يده ، وقال له : « كُل واشرب يا تليماخ، وسنجد لك سفينة وجدّافين يحملونك إلى حيث تشاء للبحث عن أبيك » .

ولكن تليماخ أجاب : « هل تظنن أني آكل وأشرب معكم أنتم يا من بددتم رزقي بلا خجل ولا حياء ، ثق أني سأنتقم منكم ، وإن أبيتم علي سفينة ، فسأذهب بسفينة رجلٍ آخر . » قال هذا وجذب يده من يد أنطينوس .

وقال رجل آخر من الخطاب : « إن تليماخ سيذهب الآن يطلب العون علينا من فيلوس أو من اسبارطة ، ولعله يدس لنا السمّ في الكؤوس ، فيقضي علينا جميعاً . »

وقال آخر : « عسى أن يهلك كما هلك أبوه من قبل، فينفسح أمامنا مجـال العمل ، فنقتسم أرزاقه فيما بيننا ، وأما المنزل فنتركه لأمه ولزوجها » .

وجعلوا يتنادرون على هذا الوجه هازئين منه . أما هو فذهب إلى غرفة أبيه ، حيث صفت براميل النبيذ المعتق ، وحيث ادخر الذهب والبرونز والثيـاب وزيت الزيتون . وقد عُنيت بحفظ ذلك جميعه أوريكليا الحكيمة ، قيّمة الدار ، واليها وجه خطابه قائلاً : « هيئي لي يا أمـاه اثنتي عشرة جرة من النبيذ ، لا تكون أحسنها صنفاً ، بل قريباً منه ، وعشرين كيلاً من طحين الشعير . وسأحمـل كل هـذا معي حينما تنام أمي ، لأني ذاهب الى فيلوس واسبارطة ، علّ الحظّ مسعفي فأسمعَ شيئاً مـن أخبار أبي » .

ولكن العجوز قالت وهي تنتحب : « ماذا تبغي مـن الاغتراب ، وأنت الابن الوحيد ؟ هـل تهلك كما هلك أبوك ؟ فإن هذه الجماعة الدنيئة من الخطاب الأشرار سيرسمون الخطط لهلاكك ، واقتسام أموالك . وخير لك أن تقيم في بيتك بسلام » .

فقال تليماخ : « إني ذاهب بدعوةٍ من الآلهة . ولكن

أقسمي لي ألا تذكري شيئاً قبل مرور أحد عشر أو أثني عشر يوماً على ذهابي ، إلا إذا اتفق وسألت عني » .

فأقسمت المرأة على ذلك . ورجع تليماخ إلى الخطاب . وكانت أثينا في هذه الأثناء قد اتخذت شكله ، وجمعت نفراً من البحارة ، واستعارت سفينة للرحلة . وخشيت أن يعرقل الخطاب الأمر ، فأرسلت على عيونهم نوماً عميقاً ، فاستسلموا اليه وهم جالسون في أماكنهم . ثم أتت القصر متخذة شكل منطور ، ودعت تليماخ وقالت : « ان الجذافين حاضرون متهيؤون فهلم بنا . »

وقادته الى حيث وجد البحارة عند الشاطىء ، فخاطبهم تليماخ قائلاً : « تعالوا يا أصدقائي نحمل الزاد الى السفينة ، فهو جميعه في الغرفة ، ولا يعلم بالأمر من أمي والوصيفات أحد ، إلا امرأة عجوز » .

فذهبوا معه إلى المنزل ، وحملوا المؤن ووضعوها في السفينة . ثم رقيَ تليماخ السفينة ، وجلس في مؤخرها ، وجلست أثينا إلى جانبه .

ولما نادى البحارة تهيأوا للإبحار . ورفعوا سارية السفينة ، وكانت من خشب الصنوبر ، وجعلوها في الثقب المعدّ لها ، وثبّتوها بالدعائم . ثم نشروا الشُّرُعَ البيض ،

وشدوها بحبال من جلود الثيران ، فملأت الريح الشُّرع ،
وأرغى الماء عند مقدم السفينة وهي تشق المــاء مسرعة .
ولما استقر كل شيءٍ في مكانه من السفينة ، مزجوا النبيذ
في الأكواب ، وصبوه تقدمةً للآلهة ، ولزفس خاصةً .
وجرت السفينة الليل بطوله حتى مطلع الفجر .

٣

حكاية نسطور

وعند شروق الشمس بلغت السفينة فيلوس ، حيث يقيم نسطور . واتفق أن كان القوم يقدّمون تقدمــة عظيمة لفوسيذون عنـــد الشاطىء ، وكانوا قد انقسموا إلى تسع فرق ، في كل منها خمسمائة رجـــل ، ولكل فرقة تسعة ثيران . ولما أرسى أصحاب تليماخ السفينة ، وانحدروا منها إلى الشاطىء ، كان المحتفلون يتذوقون من الحيوانات أحشاءها ، ويحرقون شرحات اللحم على عظام الأفخاذ تقدمة للآلهة .

وخاطبت أثينا تليماخ قائلة : « ليس من داعٍ لخجلك الآن ، وقــد جُبت البحار بسفينتك متنسماً أخبار أبيك . فاذهب إذاً الى نسطور ، وخـــذ بالنصيحة التي يحملها في أعماق فؤاده » .

ولكن تلماخ أجاب : « كيف أجرؤ عـلى خطابه ، وأنا لا أزال حدثاً لا خبرة له » ؟

فقالت الإلهَة : « بل إنك ستفكر في بعض الشيء من نفسك ، وستجعل الآلهة البعض الآخر في فمك » .

قالت هذا ، وتقدمت إلى حيث جلس نسطور مـع أولاده ، وحوله جمع كبير يتهيأون للاحتفال . ولما شاهد نسطور وصحبه الغرباء صافحوهم ، وأجلسوهم على جزات ناعمة من الصوف . ثم حمل فيزيسترات بن نسطور مزيجـاً مـن جيد الطعام ، ونبيذاً في كأس من ذهب . وأعطى النبيذ أثينا أولاً مقدراً أنهـا أكبر الاثنين سناً ، وقال : « أدع فوسيذون الآن ، وقـدم له من شرابك ، وحينما تفعل هذا ، أعط رفيقك ليفعل ما فعلت » .

فأخذت أثينـا الكأس ، وودعت فوسيذون قائلـة : « امنح نسطور وولده شهرةً حميدة،وكافىء رجال فيلوس بما هم أهله جزاءً لهذا القربان العظيم . وهيء لنـا نجاح المهمة التي من أجلها قدِمنا هذه البلاد » .

ثم دعا ابن أوذيس بما يشبه هذا .

ولما أخذوا كفايتهم من الطعام والشراب،قال نسطور : « مَن تكونون أيها الغرباء ، هل تمخرون البحار لتجارة تبغونها ؟ أم هل أنتم من القرصان تطوفون مجازفين بحياتكم؟»

فأجابه تليماخ ، وقد وضعت أثينا الشجاعة في قلبه :
« لقد أتينا من إيثاكة ، ولم يكن تجوالنا إلا لأمرٍ خاص بنا . فإنني أستقصي أخبار أبي الذي حارب إلى جانبك في ما سلف من الأيام ، ودكّ مدينة طروادة . وعلى كثرة الذين حاربوا رجال طروادة ، فقد سمعنا أخبارهم جميعاً ، سواء في ذلك مَن رجع منهم سالماً ومن قضى نحبه . أما هذا الرجل فقد انقطعت أخباره ، حتى خبر موته ، ولهذا أتيتك علك تتلطف بإخباري عنه ، فإذا كنت قد رأيت موته بعينك ، أو سمعت عن ذلك من سواك ، فلا تُلِن لي القول رحمةً بي ، بل هات ما تعلم جلياً صريحاً » .

فأجاب نسطور : « إنك لترُجع إلى ذاكرتي ما لقيناه محاربين حول مدينة فريام الجبارة . فهنالك قُتل خير رجالنا . هنالك يرقد أياس البطل المغوار ، وهنالك أخيل، وهنالك فَطرُقلُ ، وهنالك ولدي الحبيب أنطيلوخ . من يقدر أن يخبر بكل ما لاقيناه هنالك من الأهوال ؟ ليس من يقدر على ذلك حقاً ، حتى ولو أقمت هنا خمس سنوات أو ستاً تصغي إلى ما يُقص عليك . فقد كدحنا تسعة أعوام كاملة ندبر الهلاك للأعداء ، ولكن زفس لم يأذن حتى ذلك الوقت بهلاكهم . وقد كان أوذيس يفوق الجميع

مهارةً ، أجل أوذيس أبوك ، إذا كنت حقـاً ابنه .
ولا ريب عندي في ذلك ، فهذا حديثك أشبه بحديثـه .
ولا يخطر بالبال أن يشبه شابٌ من هو أكبر منه سناً مثل هذا
الشبه العظيم ، ولكن أصغ إلى كلامي الآن : حينما دككنا
مدينة فريـام ونهبناها ، دبر زفس للاغريق شراً لـدى
عودتهم . لأنهم لم يتصفوا جميعاً بالحكمة والعدل ، وقد
أثاروا حفيظة أثينا . فقد ثار الجدل أولاً بين ابنَي أتريذ،
فدعوا الإغريق الى اجتماع عند غياب الشمس ، وهو أمر
لا يُقره العُرف ، فجاء القوم مثقلين يترنحون من الشراب.
عندهـا أمرهم مانيلا بأن يرجعوا إلى بلادهم ، ويقطعوا
البحر من غير تسويف . ولكن أغاممنون كان يريد إبقـاء
الجيش . وقدم قرباناً لأثينـا علّه يخفف من غضبها . ولم
يكن الأحمق يعلم أن إقناعها مُحـال ؛ إذ ليس من السهل
ارجاع الآلهـة عن مقاصدهم . وهكذا تخاصما ، وحـل
بالإغريق ارتباك عظيم . وقد أقمنا تلك الليلة يُضمر أحدنا
الحقد للآخر . وفي اليوم التالي قام فريق منا بإنزال السفن،
وحمّلها ما يخصّه من الأسلاب التي غنمهـا من طروادة ،
وأبحر نصف الجيش ، وأقام النصف الآخر مع أغاممنون ،
ولما بلغنا تنذوس ، نشب بيننا نزاع جديد . فقد رجع
أوذيس إلى طروادة ، وأما أنـا فتابعت مسيري ، لأنني

كنت أعلم أن الآلهة يريدون بنا ضُراً . وأسرع ذيوميذ في سيره ، وتبعنا مانيلا حتّى لحق بنا في ليسبوس . وهناك لم ندرِ هل كان الأفضل أن نبحر نحو خيوس أو قريباً منها . ولما دعونا الإلـه أن يرسل الينا إشارة ، أتى أمره بأن نعبر تواً إلى إيبيا . ثم هبت ريح صرصر دفعت السفن أمامها سراعاً . وفي اليوم الرابع ألقى ذيوميذ مراسيه في أرغوس . أما أنا فتابعت إبحاري إلى فيلوس . ولم تخني الريح حتّى بلغتها . وهكذا فلست أدري مَن الذي نجا من الإغريق ومن الذي فُقد . أما ما سمعته وأنا جالس هنا في قصري ، فسأعلمك به ، ولا أُخفي عنك منه شيئاً . لقد نجا المرامدة ، قوم أخيل ، كما نجا فيلوكتيت وايذومين ، ومعهما كل من لم تلتهمه الحرب . أما ابن أتريذ فإنك تعلم من خبره ما أعلم ، وكيف أن أوغيستوس فتك به في عقر داره ، ولقي على ذلك جزاءه وفاقاً . وحقاً إن انتقام الابن لأبيه لأفضل الأعمال ، فكن جسوراً مقداماً ، كما انك طويل القامة بهي الطلعة » .

فقال تلياخ : « لقد انتقم أوريست لأبيه ، فنال مجداً عظيماً ، فهل تمنحني الآلهة قوة مثل قوته ، لكي انتقم من هؤلاء الخطاب الذين يسيئون إليّ كل هذه الاساءة » ؟

فقال نسطور : « قل لي يا تلياخ ، أتذعن أنت لهذا

الجور مستسلماً ، أم إن قومك يحملون لك بغضاً ؟ علَّ الأيام تبعث بأوذيس يوماً فيجازيهم على قحتهم هـذه ! ولو أن أثينا تحفل بك كما كانت تحفل به — لأنني لم أرَ إلهـاً يولي رجلاً من الحب ما أولته إياه — لأنى على بعض هؤلاء الخطاب ما يُنسيهم فكرة الزواج » .

ولكن تلماخ اجاب : « لا إن وقوع هذا بعيد الاحتمال ايها الشيخ ، حتى ولو ارادته الآلهة » .

وعلى ذلك اجابت اثينا قائلة : « ما هذا الذي تتلفظ به يا تلماخ ؟ إن الإلـه لقادر على ان يرجع الرجـل مهما كان بعيداً إذا أراد . أما الموت فإنه قسمة الجميع عـلى السواء ، ولهذا فإن الآلهة ذاتها لا تقدر على تجنبه » .

ثم تكلم تلماخ ثانية وقال : « لا تعد إلى الخوض في هذه الأمور يا منطور . فإني أودّ أن أسأل نسطور الآن أمراً آخر . أخبرني الآن يا ابن نلوس كيف مات الملك أغاممنون ؟ وأين كـان مانيلا ؟ ألم يكن في أرغوس حين أقدم أوغيستوس على قتل أخيه ؟ »

فأجاب نسطور : « سأخبرك جلية الأمر ، لما كنا نحاصر طروادة كـان أوغيستوس يقيم في أرغوس آمناً ، فأغرى كليطمنسترا الجميلة زوجة أغاممنون بالإثم . وقد قابلته بادىء

الأمر بالاحتقار ، لأنها كانت حكيمة عاقلة . وكان هنالك منشد ، عهد إليه الملك بامرأته في غيابه ، فحمله أوغيستوس إلى جزيرة نائية ، وتركه هناك فريسة للطيور . ثم أقنع زوجة الملك بعد ذلك . وقد قدّم للآلهة كثيراً من الضحايا ، وكثيراً من العطاء علّه بذلك يخفف من حــدّة غضبهم . أما مانيلا فقد أبحرت وإياه من طروادة ، ولكن أفلّون أرسل نباله مــن غير آلام على بحار مانيلا ، فقتله حينما بلغنا سانيوم ، وهي اللسان الداخلي في البحر من بلدة أثينا ، فاضطر الملك إلى البقاء هناك ، مع كل رغبته في السفر ، لكي يتمكن من إيفاء صديقه الميت حقه من إكرام الدفن . ولم يكد يبرح المكان حتى ثارت أمواج عظيمة في وجــه سفنه ، وشتتت شملها ، فاتجه بعضها قرب كريت ، حيث تحطم على صخور عظيمة ناتئــة في اتجاه ريح الجنوب ، وجَهد الرجــال للنجاة . ولكن الرياح سيّرت مانيلا مع خمس من سفنه إلى مصر . وهناك تاه طويلاً بين رجال غرباء اللسان ، وجمع كثيراً من الذهب . وفيما هو مقيم هناك مدة السنوات السبع ، قام أوغيستوس بأعباء الملك في ميسينا ، مخضعاً القوم لحكمه . ولكن اوريست الصالح أتى في السنة الثامنة من بلدة أثينا ، فذبحه انتقاماً لأبيه . وفي ذلك اليوم عينــه ، قدم مانيلا مــن مصر يحمل في

سفنه الكثير من النفائس . أما أنت يـا ولدي فلا تجُب الآفـاق بعيداً عن بلدك في حين يلتهم الغربـاء رزقك . وأولى لك أن تذهب إلى مانيلا فقد رجع أخيراً من بلاد بعيدة ، إذهب اليـه وسله أن يُفضي اليك بمـا عنده . وإذا شئت أن تذهب بسفنك فافعل ، أما إذا كنت تفضل الذهاب براً فسأعطيك مركبة وجياداً ، وأُرسل معك أبنائي يهدونك السبيل » .

قال هذا وتوارت الشمس في المغيب .

عندها قالت أثينا : « لِنقطع الآن ألسنة الحيوانات ، ثم لنمزج الخمر ، ولنُرِق منها لفوسيذون وبقية الآلهة ، ولنفكر في النوم ، فقد حـان ميعاده . وليس من اللائق أن تطول ولائم الآلهة بعد غياب الشمس » .

قالت هذا فأذعنوا لكلماتها . ولما انتهوا ، أرادت أثينا وتليماخ الرجـوع إلى سفينتهما . ولكن نسطور استبقاهمـا قائلاً : « إن زفس وبقيـة الآلهة ليأبون أن تذهبـا إلى سفينتكما من بيتي هذا ، كأنه منزل رجلٍ مُعوزٍ ، ليس لديه من الفراش والدثار ما يقدمه لضيفه . بلى إن لدي من ذلك ما يفي بالحاجة . ولن أترك ابن صديقي أوذيس

يذهب للنوم على ظهر سفينته ما بقيتُ حياً ، ومـــا بقي أولادي من بعدي يرحبون بالغرباء في قصري » .

فأجابه منطور الزائف على ذلك بقوله : « هذا حسن أيهـــا الوالد العزيز . ليُقم معك ، وأمـــا أنا فأرجع إلى السفينة ، وأسرّي عـن الصحب فيهـــا ، وأخبرهم بكل ما وقع . هناك أبيت الليلة ، وغداً أتوجه إلى الكوكونيين، فهم مدينون لي بدين ليس بالقليل ، ولا يرجع عهده إلى الأمس القريب . وأمـا أنت فأرسل هذا الرجل بمركبتك إلى حيث يشاء » .

عندئذ بارحت الإلهَة المكان مشبهة نسر البحر،فأدهشت كل من رآها .

وعندها أخذ الشيخ تلماخ من يده ، وقال : « إنك لست بالجبان ولا بالخائر العزم الذي يحتاج إلى عون الآلهة، وإن كنت لا تزال في سنّ الشباب . فـلم تكن هذه غير أثينا ابنة زفس ، وهي نفسها التي كانت تقف إلى جانب أبيك في أرض طروادة » .

وبعد هذا قاد الشيخ صحبه إلى منزلـه . وهنالك مزج لهم كوبـاً من نبيذٍ يرجع عهده إلى احدى عشرة سنة ،

فأراقوا منـــه لأثينا ودعوهـــا مصلّين . وبعد أن شربوا وانتعشت قلوبهم استسلموا إلى النوم . وقد رقد تليماخ على سرير تحت الرواق ، ورقد إلى جانبه فيزيستّراتُ العَزَب الوحيد من أبناء نسطور .

ولم يطلع نهـــار اليوم الثاني ، حتى أفـاق نسطور من نومه مع أبنائـــه . وقال الشيخ : « ليذهب أحـدكم إلى الحقل ويأتنا بعجلة للذبح ، وليذهب آخر إلى سفينة تليماخ ويدعُ صحبه جميعاً إلينـــا ، ولا يتخلف منهم إلا اثنان فقط .. وليذهب ثالث إلى صائغ ، ليطلي لنا قرنَي العجلة ، ولتهيىء لنا الوصيفات كل لوازم الوليمة » .

ففعلوا ما أمر بـــه الشيخ . وبعد تقديم الضحايا قامت فوليكاستا الجميلة ، أصغر بنات نسطور ، بغسل تليماخ ، ومسحته بزيت الزيتون ، وخلعت عليه قباءً فاخراً ومعطفاً . ثم جلس إلى جانب نسطور .

وبعد أن أكلوا وشربوا ، قال نسطور الشيخ : « شدّوا الآن الخيل إلى المركبة كي يسير تليماخ في سبيله » .

فشدّوا الخيل ، ووضعت قيّمة المنزل في المركبة من النبيذ والزاد مـــا يليق أن يكون طعامـاً للأمراء . وقبض فيزيستّرات على الأعنة ، وركب تليماخ معه . وتابعا سفرهما

كل ذلك النهار . ولما أظلمت الأرض ، أقبلا على مدينة فيريا ، التي يحكمها الملك ذيوكليس بن أورسيلوخ ، فباتا هناك ، وواصلا السير في اليوم التالي، حتى بلغا لَقدِمونيا، وتوجها إلى قصر الملك مانيلا .

٤

في اسبارطة

واتفق حين وصولهما أن كان مانيلا يحتفل ذلك اليـــوم احتفالاً رائعاً بزفاف ابنته هيرميونة ، بنت هيلانة الحسناء، الى نفطوليم بن أخيل ، وكان قد وعد بها في طروادة . وكان يحتفل أيضاً بزفاف عروس الى ميغافنت ابنه . ووقف عابرا السبيل مركبتهما عند الباب، فبصُر بهما قيّم الدار وقال لمانيلا :

— « دونك هذين الغريبين ، فــإنّ لهما سيماء أبناء الملوك . فهل نبقيهما عندنا أو نرسلهما الى سواك » ؟

فأغضب هذا الكلام مانيلا وقال : « كيف نرسل هذين الغريبين الى سوانا ، ونحن كثيراً ما أكلنا من خبز كرام

المضيفين ، لا ، إن هذا لن يكون ، بل حُلّوا عن هذه الجياد نيرَها ، وادعوا الضيفين ليشتركا معنا في الطعام ».

وهكذا حلّ الوصفاء عن الجياد نيرها ، وأوثقوها في الاصطبل ، وعلفوهـا بمزيج من الشعير الأبيض وجُراشة الجُلبان ، وذهبوا بالرجلين الى القصر . فأدهشهما ما رأيا من الضياء البهيج ينبعث من قصر مانيلا كأنه ضياء الشمس أو القمر . ولما ملأا أعينهما من هذه الروائع ، أخذوهما للاغتسال في حمّامات مصقولة لامعـة . ثم أجلسوهما إلى جانب مانيلا . وعندئذ أقبلت إحدى الوصيفات تحمل ماء في إبريق من الذهب، وصبت منه في طست مـن الفضة لكي يغسلا أيديهما . ثم قرّبت منهما منضدةً مصقولـة الحواشي ، وجاءت على أثرها سيدة جليلة المنظر تحمل الطعام، فتخيرت لهما كثيراً من أطايبه الشهية الأنيقة ، ووضع أمامهما مقطّع اللحم عـدداً من الصحاف ، فيها مختلف أنواع اللحوم ، وأتاهما بأكوابٍ من الذهب .

ثم قال مانيلا : « كُلا مريئاً ، وبعد ذلك أسألكما من تكونان ، فإنه ليخيل إليّ أنكما من أبناء الملوك ، إذ ليس في وسع جلفٍ من عامة الناس أن يُنجب مـن الأولاد مثلكما » .

قال هذا ووضع أمامهما لحم الصُلب ، وهو ما خُص

به من الوليمة . ولما انتهى الطعام أجال تلماخ النظر حوله في البهو ، وقال لرفيقه :

— « أنظر الى الذهب والعنبر والفضة والعاج . لكأن هذا هو قصر زفس في أعالي الأولمب » .

قال هـذا ، ووجهه قريب من أُذن صاحبه ، ولكن مانيلا سمعه ، فقال :

— « إن أبهاء الآلهة لا يمكن أن يُقابلها شيء فانٍ ، وأما عند البشر فقد يوجد ما يشبه هـذه . وقد طوّفت بعيداً ، وملكت الكثير في مختلف البلاد ، ولكنِ الويلُ لي ! لقد ذُبح أخي شرّ ذبح في منزله ، فيما كنت أجمع هذه النفائس . وددت لو لم أملك إلا ثلث هذا الثراء ، على أن يرجع أولئك الذين هلكوا في طروادة أحياء . وإن حزني لأشد على أوذيس العظيم ، إذ ليس من يعلم أحيٌّ هو أم ميت » .

فبكى تلماخ لسماعـه ذكر والده ، وقد رفع مِعطفه الأرجواني أمام عينيه . ورأى مانيلا ذلك فعرفه ، وتردّد فيما يجب عليه أن يفعل ، أينتظر حتّى يبدأ هو حديثه عن أبيه ، أم يبادره بالسؤال عن مهمته . وفيما هو متردد ، دخلت هيلانة الحسناء ، ومعها ثلاث وصيفات ، فوضعت

إحداهن لها مقعداً لتجلس عليه ، ونشرت الأخرى بساطاً لرجليها ، وحملت الثالثه سَفَطاً من الصوف الأرجواني . وأما هي فكانت تحمل في يدها مغزلاً من الذهب . ولما رأت الغريبين قالت :

— « من يكون هذان يا مانيلا ؟ لم أرَ قبل الآن في رجلٍ أو امرأةٍ من الشبه ما في هـذا الرجل لأوذيس . ولا شك في أنه ولده تليماخ الذي تركه في بيته طفلاً ، حينما ذهبتم الى طروادة بسببي » .

فقال مانيلا : « لا ريب في أن الأمر كذلك أيتها السيدة . فهاتان اليدان يدا أوذيس ، وهاتان الرجلان رجلاه ، وهذه النظرات نظرات عينيه ، وهـذا الشعر شعره . ومنذ هنيهة ذكرت أوذيس فبكى رافعاً معطفه أمام وجهه » .

فقال فزيستْرات : « بالصواب نطقت أيها الملك مانيلا ، فإن هذا هو ابن اوذيس ولا ريب ، وقد أتاك علك تقدر أن تُعينه بقول أو عمل » .

فأجاب مانيلا : « إنـه إذاً ابن الرجل الذي آثرت وأحببت . وكنت مزمعاً أن أعطيه بلدة في هذه الأرض ، وأستقدمه مع كل ما يملك من إيثاكة ، لكي نجتمع معاً

فلا يفرق بيننا إلا الموت ذاته . ولكن إرادة الآلهة كانت غير ذلك . »

وبكى الجميع لهذا الكلام — بكت هيلانة الحسناء وتليماخ ومانيلا ، حتى فيزسترات ذاته لم يملك نفسه عن البكاء ، فقد ذكر أخاه أنطيلوخ الذي قتله مِمنونُ بن الصباحُ في طروادة .

ذكر هـذا فخاطب مانيلا قائلاً : « طالمـا ذكرك نسطور يـا ابن أتريذ بأنك تفوق الرجال حكمة ، ومع ذلك فإنني أرجوك أن تصغي إليَّ . انني لست أجد لذة في البكاء ونحن جالسون لتناول طعـام العشاء ، ولست ألوم هؤلاء الذين يبكون مَن مات . فالبكاء وقصُّ الشعور هما في الواقع كل ما في وسعنا أن نصنعه من أجل الأموات . وقد فقدت أنا أخـاً لم يكن ضئيل الشأن بين الإغريق . وأحسب أنك تعرفـه ؛ أما أنا فلم تنظره قط عينـاي . ولكن الرجال يقولون إن أنطيلوخ كان جيّد العدوِ وجيد القتال » .

فأجابه مانيلا : « لقد قلت كل مـا في وسع الرجل العاقل قوله ، وإن كان أكبر منك سناً . ولا بِدعَ أن تنطق بالحكمة ، وأنت من تلك النبعة الكريمـة وسنكفُّ الآن عـن البكاء ؛ وغداً سيمتد حبل الحديث بيني وبين

٥

قصة مانيلا

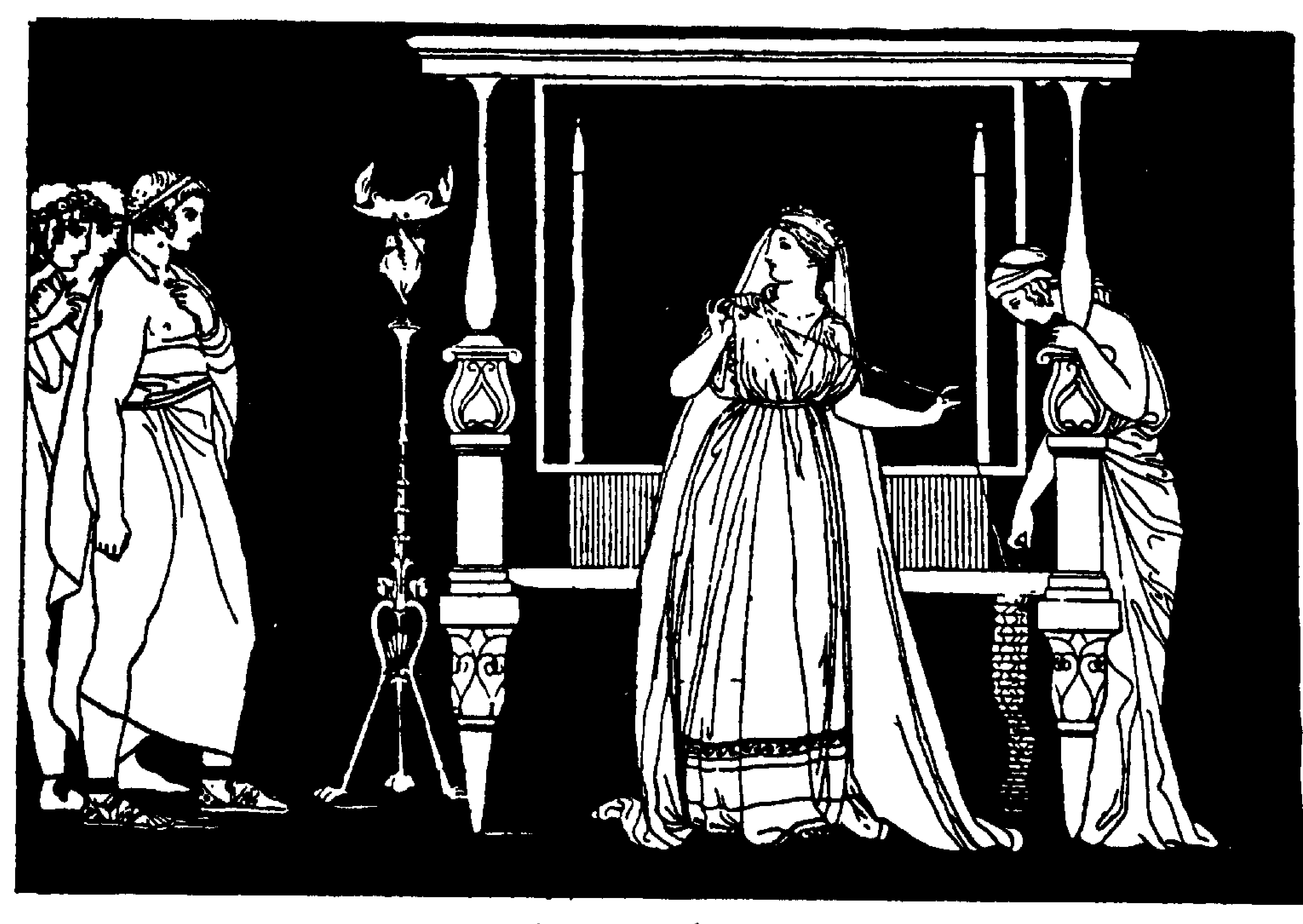
وفي اليوم التالي قال مانيلا لتلماخ : « ما هي غايتك من المجيء إلى لقدمونيا الجميلة ؟ هل أتيت لأمر يتعلق بالصالح العام أم لأمر خاص بك » .

فقال تلماخ : « أتيت أسألك أنباء والدي ، علك تعلم منها شيئاً . فإن خطّاب أمي يلتهمون ما أملك التهاماً ، ولا أجد من أحد عوناً ، فاصدقني الخبر إذاً ، ولا تجنبني الآلام ، بل قُل ما علمته بنفسك ، أو ما استقيته من غيرك » ؟

فأجاب مانيلا : « إنه ليسوءني أن أسمع خبر هؤلاء الجبناء ، الذين يقصدون إلى اتخاذ أحد الأبطال . إن مَثلهم كمثل ظبية اتخذت من عرين الأسد مأوى لصغارها ،



تقدمة نسطور



بنيلوب يُباغتها الخُطّاب

ولكنه يُقبل فيأتي عليها وعليهم جميعاً . وهذا سيكون شأن هؤلاء يوم يرجع أوذيس » .

وأما ما سألتنيه ؛ فسأُجيبك عليه جواباً جلياً ليس فيه التواء :

— « لقد مكثت ردَحاً من الزمن عند نهر (مصر)، مع كل رغبتي في الرجوع الى وطني . وقد أمسكت بي الآلهة هناك طويلاً ؛ لأنني لم أُقدم لهم واجب التضحية . وهنالك مقابل أرض مصر جزيرة تتلاطم عليها الأمواج ، ويدعوها الناس باسم فاروس . وهي تبعد عن مصر مسيرة نهار في السفينة إذا آتتها الريح . هنا أمسك بي الآلهة عشرين يوماً لم تهبّ في أثنائها ريح بحرية . وقد نفدت غلالي، وهلك رجالي ، حتى أخذتْ ابنةُ فروتوس الشفقة علي ، وتأثر قلبها لرؤيتي أهيم على وجهي وحيداً ، منفرداً عن صحبي الذين كانوا يطوفون في أنحاء الجزيرة ، يطلبون بشصوصهم صيداً ، وقد عضَّهم الجوع . فجلست إليّ وقالت : « هل مستك أيها الغريب جِنّة ؟ أم هل أنت قليل الفِطنة ؟ وهل تقيم هنا للذة لك خاصة ، لأنه يحلو لك أن تتألم ؟ لقد أقمت طويلاً في هذا المكان لا تجد منه خلاصاً ، أما قومك فقد وهنت منهم القلوب في الصدور» . فأجبتها : « سأقول لك الحق أياً كنت ، فليست إرادتي

هي التي تمسك بي هنا ، بل لا بد أن أكون قد أذنبت إلى الآلهة . فأخبرني الآن أي الآلهة أغظت ؟ وأي السبل أسلك للرجوع إلى وطني » ؟

قلت هذا فأجابتني الإلهَــة فوراً : « سأعلمك بالأمر كلــه . إلى هذا المكان يأوي فروتوس الذي عنــده العلم بأعماق البحار جميعاً ، وهو أبـي ، فـإذا قدرت أن تقيم له كميناً وتقبض عليه ، فإنه يدلك على سبيلك ، وطريق أوبتك فوق الأعماق . كما أنه يُريك ما حدث في أبهائك مــن الخير والشر ، وأنت تجوب الأرض بعيداً . قـالت هذا فأجبتها : دبري أنتَ أمر هـذا الكمين ، فقد يتفق أن يراني أولاً فيتجنب لقائي . وإنه لمن العسير على الإنسان أن يتغلب على إلــه . فقالت الإلهَة : حينما تبلغ الشمس في سيرها كبد السماء ، عندها يأتي الشيخ من البحر . إنه يأتي قبل هبوب الريح الغربية ، تغطيه مويجات رقـاق . وحينما يخرج من البحر ، يستلقي في المغاور لينام ، وترقد حوله عجول البحر ، وهي نتاج الأوقيانوس ، ولأنفاسها رائحة مرّة ، هي رائحة ملح البحر . إلى هناك سآخذك عند بزوغ النهــار مع ثلاثة من صحبك . فاختَرهم مــن سفنك وليكونوا أشجع رجالك . وسأخبرك الآن ما يصنعه

الرجل العجوز . إنه يبدأ بعدّ عجول البحر ، وبعد أن ينتهي من مهمته هذه ، يرقد في وسطها كما يرقد الراعي وسط قطيعــهِ . وعليك الآن عندمــا تشاهده مستلقياً أن تستنجد بكل قواك وتقبض عليه ، مهما كافح للخلاص . إذ إنــه سيتخذ كل أشكال المخلوقات التي تدبّ عــلى الأرض ، والتي تسبح في الماء على السواء ، بل انه سيتخذ شكل النار المشتعلة . وعليك أن تظل متشبثاً به ، واضغطه ضغطاً شديداً . وحينما يُلقي عليك الأسئلة ، بعد أن يتخذ شكله الأصلي ؛ أطلق سبيله ، وسلهُ أي الآلهة يحمل لك الحقد ، وسله عن سبيل أوبتك فوق الأعماق . قالت هذا وغاصت في البحر . وقصدت أنا السفن ، وقد ملأ قلبي القلق . وفي اليوم التالي أخذت ثلاثة من صحبي ممن أضع فيهم ثقتي ، فرأيناها قد أتت من البحر بأربعة من جلود عجول البحر ، كانت قد سلختها حديثاً ، لأنها نوت أن تنصب لأبيها شركاً . وقد حفرت لنا في الرمل مخابىء ، جعلتنا نرقد فيها ، وطرحت فوق كلٍ منا جلداً من جلود العجول . وكاد تربُّصنا في المكمن يكون فاجعــاً ؛ لأن هذه الجلود قد انبعثت منهــا رائحة كريهة آذتنا كثيراً . ومن ذا الذي يرضى أن يرقـد إلى جانب أحــد وحوش البحر ؟ ولكنها وجدت لنا من هذا الضيق مخرجاً . فأخذت

شيئاً من العنبر الإلهيّ الزكي ، وجعلته عند خياشيمنا ليطرد نَتْنَ الوحوش .

« وهكـذا انتظرنا الصباح بطوله بعزم ثابت مكين . وأقبلت العجول نحونا قادمة من الماء الأجاج ، واصطفت في نظام على الشاطىء . وعند الظهر أقبل الرجـل العجوز من البحر ، ومشى محاذياً صفّ الحيوانات وهو يعدّها . وقد عدّنا معها من غير أن يفطن لحيلتنا . ثم استلقى على الأرض لينام . عندها أسرعنا اليه صائحين ، وأمسكنا به بشدة . ولكنه لم يسهُ عن مكره . فانقلب أسداً ملتحياً ، ثم صار ثعباناً ، فنمراً ، فدباً برياً ضخم الجثة . واتخـذ أيضاً هيئة الماء الجاري ، والشجرة المزهرة . وظللنا نحـن في هذه الحالات كلها ممسكين به مشدّدين عليه . ولما وهنت قواه أخيراً ، قال : — أي إلـه أوعز إليك يا ابن أتريذ أن تكمن لي ؟ ولكنني أجبته : « لمَ تخدعني أيها العجوز بالكلام الموارب ؟ فلقد أُمسكتُ في هذه الجزيرة ، ولا أجد للنجاة منها سبيلاً . فأخبرني الآن أي الآلهة يُعيقني عـن السير ، وأي طريق أسلك لأوبتي فوق البحار ؟ » فأجاب الرجل العجوز : « كان يجب عليك أن تتقرب بالتضحية لزفس وبقية الأرباب قبـل إبحارك . ولو فعلت ذلك لبلغت أرض آبائك سريعاً . أما الآن فعليك أن تعود

إلى نهر مصر ، وتقدّم القرابين للآلهة ، ليمنحوك ما ترغب». فتحطّمت مني الروح عند سماعي أنه يجب عليَّ أن أعود إلى قطع هذه الطريق المنهكة مرة أخرى . ولكنني قلت : « أنني سأقوم بكل ما طلبت أيها الشيخ . أما الآن فأتوسل إليك أن تخبرني هل رجع الإغريق الذين تركتهم ونسطور وراءنا في طروادة ؟ وهل رجعوا سالمين إلى بلادهم ، أم هل هلك منهم أحد بموت مريع ، وهو راكب في البحر أو بين صَحْبه » ؟ فأجاب الشيخ على ذلك بقوله : لقد أسأت بالسؤال عن أمور كهذه ؛ لأنك ستبكي لسماعها . لم يهلك من الزعماء عند رجوعهم إلا اثنان فقط ، وأما الباقون فعندك أخبارهم . لقد تحطّمت سفينة أياس الأصغر، ولعله نجا من كره أثينا له ، فإنَّ معونة فوسيذون جعلته يبلغ الصخور . ولكن النجاة أزاغت بصيرته فجعل يتبجح بأنه نجا من البحر فلم يبتلعه رغم الآلهة جميعاً ، فما كان من فوسيذون إلا أن ضرب بصولجانه الصخرة التي جلس عليها ، فهوى قسم منها الى البحر يحمل معه أياس الذي هلك وهو يبتلع الماء الأجاج . ولقد نجا أخوك من الهلاك في البحر ، لأن هيرا أنقذته ، ولكن الرياح العاصفة حملته إلى الأرض التي يسكنها أوغيستوس بن ثيستس . ولما وطيء أغاممنون الأرض التي ُولد فيها بقدميه ، قبلها وهو ينتحب

ذارفاً دموعاً حارة لشدة غبطته برؤيتها ، ولكن الخفير بصُر به من أعلى البرج . وهذا الخفير كان قـد استأجره أوغيستوس الماكر بوزنتين من الذهب . وبقي يترصد هناك سنتين لكي لا يمر أغاممنون في خفية عنه . فلما رآه الخفير بادر الى منزل أوغستوس يحمل اليه الخبر . فدبر هـذا مكيدة مُحكَمة الحبك للفتك بـه ، فأقام في البهو كميناً أعدّ له عشرين من أشجع الرجال ، وجعلهم يهيؤون في الطرف الآخر من البهو مأدبة . ثم ذهب هو بمركباتـه وخيوله إلى أغاممنون يدعوه إلى الوليمة . فجاء بـه إلى منزله ، وهو لا يعلم مما قدّر له شيئاً . وذبحه بعد الوليمة كما يذبح الرجل ثوراً في إصطبل ، ولم يبقَ من صَحْب أغاممنون ولا من صحب أوغيستوس أحد » . وبكيت عند ذلك بكـاء مراً غير آبه للحياة . ولكن الشيخ قال لي : « لا تأس على ما فات يا ابن أتريذ ولست واجـداً في الدموع عوناً . والأجدر بك أن تعجل في الرجوع ، فقد تجد أوغستوس لا يزال على قيد الحياة، وقد يكون أورست قد فتك به ، فلا تفوتنك وليمة دفنه » نطق الشيخ بهذا، فشعرت بالعزاء يشيع في قلبي ، وقلت : « لقـد علمت الآن مصائر هؤلاء ، ولا يزال هنالك رجل أتوق إلى سماع أخباره ، أميت هو أم لا يزال حياً يطوف فوق البحار؟

قـــل ولو كان في سماع قولك ما يُشجيني » . فأجابني الشيخ فوراً : « ان ابن لِبرت هو المقصود من كلامك، ولا ريب . لقد رأيته في إحدى الجزر في موطن كاليبسو يذرف الدمع السخين ، لأن الحورية تستبقيه هناك قسراً ، وتمنعه من الرجوع الى وطنه . وليس لديه سفينة ولا صحاب. أما أنت يا مانيلا فلن تموت كباقي الرجال ، فإن الآلهـــة ستنقلك إلى سهل إليسيا في أقصى الأرض حيث لا ثلـــجَ ولا زوابعَ ولا أمطـار ، بل إن الأقيانوس لا يفتأ يرسل نحوه ريحاً غريبة تنعش أنفاس البشر . هذا ما سيكون من أمرك ، لأنك زوج هيلانة ، فكأنك لهذا ابن زفس » .
قال بروتوس هذا ، وغاص في البحر . وفي اليوم التالي قصدنا إلى نهر مصر ، إلى النهر الذي تمده السماء بمائها . وقدمنا القرابين للآلهـــة . ولما سكّنت من غضبهم ، أقمت لأخي أغاممنون نُصباً عظيماً ، لكي لا يُنسى اسمـه بين البشر . ولما أتممت ما علي من واجب ، أبحرت راجعاً الى وطني إذ سخّرت لي الآلهة ريحاً رُخاء . أما أنت فأقم الآن في أبهاء قصري ، وحينما تفكر في الرجوع أعطيك مركبة ومعها ثلاثة جياد وكأساً فاخرة تصب منها للآلهة ، ولكن اذكرني كل أيام حياتك » .

فأجابه تلماخ : « لا تمسك بي طويلاً يا ابن أتريذ،

لأن صحبي ينتظرونني في فيلوس . وإني لأودّ لو أقيم هنا سنة كاملة ، أقضيها معك من غير ان يُبرح بي الشوق إلى وطني . وكل هدية تمنحنيها سأدخرها كنزاً ، ولكنني لن آخذ جياداً إلى إيثاكة . فخير لها أن تبقى هنا ينعم بها بلدك ، لأنك سيد سهل فسيح ، فيه الحنطة والجودار والشعير . وليس في إيثاكة مروج ، ولا تصلح مراعيها إلا للمعز . وإنها مع هذا وايمُ الحق أبهج في عيني منها لو كانت تصلح مرعى للخيول » .

فقال مانيلا : « إنك تنطق بما يليق بابن أبيك . فهلم الآن أبدل الهدايا ، وسأعطيك من كنوز بيتي أنفسها ، وأخصّ منها بالذكر كأساً أهدانيها ملك الصيدانيين . وهي من الفضة ، وحواشيها محلاة بالذهب » .

وكان الخطاب في إيثاكة في أثناء هذا قد علموا أن تلياخ قد رحل ليبحث عن أبيه ؛ فغاظهم ذلك جداً ، وعقدوا مجلساً وتشاوروا في الأمر ، فأجمعوا على أن خير ما يفعلون هو أن يقيموا له كميناً ويقتلوه عند رجوعه . وعلى هذا استصحب انطينوس عشرين رجلاً وأبحر بهم ، يبغي الترصد له في المضيق ما بين إيثاكة وساموس .

ولم يخفَ أمر هذا القرار عن بنلوب ، فقد سمع به ميذون أحدُ الدعاة ، فأخبرها بذهاب تلياخ ليتسقط أخبار

أبيـــه ، وان الخطاب قد تآمروا على قتله عند رجوعه .
فدعت نساءها العجائز منهن والفتيات ، ووبختهن قائلة :
« لقد علمتن يـــا وصيفات السوء أنـه أزمع الرحيل فهلا
أيقظتُنَّني من نومي . لقد كان في وسعي أن أحول دون
رحلته مع شدة رغبته في السفر . ولم أكن لأدعـه يذهب
إلا إذا خلفني ميتة » .

فقـــالت أوريكليا : « أقتليني إذا شئت ، ولكـــني
لا أخفي عنك شيئاً . لقد كنت على علم بغايته ، وزودته
بكل مـــا يحتاج اليه في رحلته . ولكنـــه جعلني أقسم ألا
أخبرك بشيء قبل أن ينقضي أحد عشر أو اثنا عشر يوماً
على سفره . فاذهبي الآن مع وصيفاتك ، وصلي لأثينا لكي
تنجيه من الموت . وإني لعلى يقين أن هذا البيت لا تمقته
الآلهة جملةً » .

فتهيأت بنلوب ، وصعدت مع وصيفاتها إلى العليَّـــة
ودعت أثينا عالياً لكي تنقذ ابنها . وسمعها الخطاب تصلي
فقالوا : « لا شك في ان الملكـة تصلي ، وهي تفكر في
زواجها ، غير عالمة أن الموت لابنها بالمرصاد » .

ثم اضطجعت لتنام ولم تَطْعَمْ ولم تشرب . وأرسلت
اليها أثينا في أثناء نومها حلماً في هيئة أختها إفتيما زوجـــة
إميلوس بن ألسِستيس . ووقف الطيف عند رأسها وقال:

« أتنامين يا بنلوب ؟ إن الآلهة لن تفجعك ، فإن ابنك سيرجع دون ريب » .

فقالت بنلوب : « كيف أتيت إلى هنا يا أختاه ؟ فإن مسكنك لبعيد . وكيف أكف عن البكاء وزوجي فقيد ؟ وهذا ابني قد رحل الآن واني شديدة الجزع عليه خشية أن يقتله أعداؤه » .

ولكن الطيف أجاب « لا تخشي شيئاً . فإن معه مساعداً من الأبرار ، وهو أثينا التي أرسلتني لأنقل إليك هذه الأخبار » .

فقالت بنلوب : « إذا كنت إلهة فخبريني ألا يزال زوجي في قيد الحياة » ؟ ولكن الطيف أجاب : هذا ما لا أقدر على الإفصاح عنه ، وإبلاغك أحيٌ هو أم ميت » . قال الطيف هذا ، وتلاشى في الفضاء ، فاستيقظت بنلوب من نومها ، وقد اطمأنّ قلبها .

٦

أوذيس في طوفه

عاد الآلهة الى عقد مجلسهم في أعالي الأولمب،وتكلمت فيهم أثينا قائلة : « ليعدل الملوك الآن عن العناية بالخير وإقامة العدل بين الناس ! ها كم أوذيس ، فقد كان خير أب لرعيته ، ولا يذكره منهم اليوم أحـــد . وهو قد حُبس عن الرحيل في جزيرة كليبسو النائية . وليس من سفينة تحمله إلى بلاده . ثم إن الخطّاب يتآمرون على قتل ولده الذي ذهب إلى فيلوس وإلى لقدمونيا ، آملاً أن يتنسّم أخبار أبيه » .

فأجابها زفس : ما هـــذا الذي تقولين ؟ ألم تُدبّري أمر هذه المكيدة بنفسك لكي يحلّ بالخطاب انتقام أوذيس؟ أما تلياخ ، فلك أن ترشديه بحكمتك كما تشائين لكي يرجع

الى بلده سليماً ، ويرتد كيد الخطاب إلى نحورهم » .

ثم قال لهرمس : « إذهب يا هرمس الى الحورية كليبسو وبلّغها رغبتي الأكيدة في أن يرجع أوذيس الآن إلى وطنه » .

فانتعل هرمس خُفّيه الذهبيين ، وحمل صولجانه بيده ، وأتى جزيرة أوجيجيا ، وقصد إلى الكهف حيث تقيم كليبسو . وكان المكان حسناً تشتعل فيه نار حطب زكي الرائحة . وقد جلست كليبسو إلى نولها تغني بصوت عذب . وأحاطت بالكهف حديقة ، جثمت فيها طيور كثيرة من الصقور والبوم والزّيغان ، على أغصان الحور والعرعر والسرو . وامتدت على مدخل الكهف كرمة تدلّت منها عناقيد العنب الأرجوانية . وتدفّقت عنده أربعة ينابيع ، اتجهت إلى أربع جهات تخترق مروجاً من المقدونس والبنفسج . وكان المكان من الجمال بحيث يُدهش كل من رآه حتى الآلهة . ولقد دُهش هرمس لرؤيته ، ثم دخل الكهف فعرفته كليبسو حينما رأته وجهاً لوجه ، لأن الآلهة يعرف أحدهم الآخر ، وإن تباعدت مساكنهم ، وشطّ بينهم المزار . ولكن أوذيس لم يكن هناك بل أقام ، على حسب رغبته ، عند الشاطىء يبكي ويتأوّه ، خشية ألا يعود فيرى زوجته وبيته ووطنه .

عندهـا قالت كاليبسو لهرمس : « لمَ أتيتَ إلينا يا هرمس يا ذا الصولجان الذهبي ؟ إنني أرحّب بك ، ولكنك لم تعتدْ زيارتي في سالف الأيام . فأطلعني على رغباتك علّني أقدر على تحقيقها . ولكن اتبعني أولاً لكي أقدم لك شيئاً من الطعام » .

ثم مدّت مائدة عليها الطعام الإلهَي ، ووضعتها أمامه، ومزجت له الرحيق الوردي ، فأكل رسول الإلـه وشرب. ولما تناول كفايته من الطعام وتشددت نفسه ، تكلم قائلاً :

— « لقد سألت عن سبب قدومي ، وسأصدقك الخبر. إنني آت إليك عن رغبة خاصة ، ومن الذي يقدم من تلقاء نفسه ، فيجوز البحر الواسع ، حيث لا مدينة يقدّم فيها الناس القرابين للآلهة ؟ إن زفس هو الذي أمرني بالمجيء ، ولن يعصي أحد لزفس أمراً . وهو يقول إن لديك رجلاً ، هو أتعس حظاً من جميع رفاقه الكثيرين، الذين حاربوا طروادة تسع سنين ، وأبحروا في السنة العاشرة عائدين الى بلادهم . وقـد فُقد جميع صحبه ، ولم يبق منهم سواه ، فحملته الأمواج إلى هـذا المكان فأرجعيه الآن الى وطنه بأسرع ما تستطيعين ، إذ لم يُقدّر له أن يموت بعيداً عن أهله ، بل لا بد أن يرجع لرؤية سقفه العالي وأرض مولده » .

وقد اشتد بكليبسو الغيظ لسماعها هذا الكلام ، لأنها كانت ترغب في أن تستبقي أوذيس عندها أبداً ، وقالت:

— « إنكم أيها الآلهة ليأخذكم الحسد عندما ترون إحدى الإلهَات قد أحبت إنساناً فانياً . أما أوذيس ، أفلم أنقذه حينما ضرب زفس سفينته بصاعقة ، فهلك جميع صحبه ؟ فليذهب الآن ، إذا كان ذهابه يرضي زفس . ولكنني لا أقدر على إرساله ، إذ ليس لديّ سفينة ولا مجذفون ، وإني مع هذا على استعداد لأرشده الى طريق عودته سالماً» .

فقال هرمس : « أسرعي في عملك هذا لكي لا يلحق بك غضب زفس » .

قال هذا وانصرف ، وذهبت كاليبسو تطلب أوذيس ، فوجدته عند الشاطيء يُسرِّح الطرف فوق مياه البحر كما هو دأبه ، وينتحب ، فقد أضنته حياته هذه لشدة رغبته في أن يعود ، ويرى إيثاكة مرة أخرى . فوقفت بجانبه وقالت :

— « لا تجزعنَّ على وطنك ، ولا تُهلكنَّك الدموع . وإذا شئت الرجوع فإنني أعجل في تسريحك لتذهب في سبيلك . خذ فأسك واقطع بها جذوعاً ، وشدّ بعضها إلى بعض واصنع لك عامَةً . وسأعطيك خبزاً وماءً ونبيذاً ،

وأكسوك بالثياب حتّى تصل سالماً الى موطنك ، فإن الآلهة تريد ذلك » .

فقال أوذيس : « ما هذا الذي تقولين ؟ هـل أقطع على طـَوْف هذا البحر المروِّع الذي لا تقطعه السفن الكبيرة نفسها دون أن يمسها أذى ؟ إنني لن أعصي لكِ أمراً ، ولكن عليك أن تُقسمي لي قسم الآلهة العظيم أنك لا تدبرين لي شراً » .

فأقسمت كليبسو عند ذلك ، وقالت : « إن كلامك هذا لغريب . أُقسم لك بنهر اسْتيكس العظيم أني لا أهيىء لك ضراً ، ولا أريد لك إلا الخير الذي أريده لنفسي إذا مستني الحاجة اليه ، فإن قلبي لم يُقدّ من الحديد بل هو مُفعم بالحنان . ثم ذهبا كلاهما الى الكهف ، وجلسا الى الطعام . وقد وضعت أمامه مما يأكل البشر ، أما هي فتناولت من طعام الآلهة ، واحتست مـن الرحيق الخاص بهم ، وخاطبته بعد ذلك قائلة :

— « لمَ اشتدّ بك الشوق الى منزلك ؟ قسماً لو كنت تعلم ما ينتظرك هناك من عناء ، لعدلت عن الذهاب وفضّلت البقاء بقربي . وانك لتقضي نهارك كله متشوقاً الى رؤية زوجك ، مع اني وايمُ الحق لست اقل منها جمالاً » .

فقال أوذيس : « لا يأخذنك الغضب ، فإن بنلوب

الحكيمة أبعد من أن تقاس بك ، فما هي الا امرأة فانية وأنت إلهة . غير أن منزلي مع هذا عزيز لديّ ، وإني لرؤيته لجدُّ مشتاق . وإذا شاء أحد الآلهة أن يُحطِّم بي مركبي وأنا فوق الغَمْر ، فإني أتحمل ذلك بصبر جميل. فلشدّ مـا قاسيت ، ولشدّ ما عانيت من بلاء الحرب ومهالك البحار . وإذا كان لا بدّ من بلاء لاحق،فليضَف حديثه إلى حديث البلاء السابق » .

وفي اليوم التالي أعطته كليبسو فأساً عصاها من خشب الزيتون ، وأعطته أيضاً قَدوماً ، وأخذته الى طرف الجزيرة، حيث الأشجار العظيمة من الحور والصفصاف والصنوبر قد ذوت وجفت منذ زمن طويـل . فقطع منها عشرين ، وشذّبها وجعلها صفاً . ثم جاءته الإلهَة بمِثقب فخرق به الجذوع ، وضمّ بعضها الى بعض بالدُّسُر ، وجعل فوقها سطوحاً وجوانب ، وفتاء ورفع عليها صارياً ، وزود هذا الطّوف بدفة يُدار بها . وحصّنه من الأمواج بسور مـن القصب . أما الشُّرُع فحاكتها كليبسو ، وركبها أوذيس بحمالات وأمراسٍ وأطنابٍ ، ودفع الطّوف أخـيراً إلى البحر مستعيناً بعتلات .

ولم يأت اليوم الرابع حتّى كان قد أعدّ كل شيء ، وأبحر في اليوم الخامس .

وقد خلعت عليه كليبسو الأثواب الفاخرة ، وأعطته زِقّ خمر وقربة ماء ، وزاداً طيّباً في جِراب من الجلد . ثم سخَّرت له ريحاً سَجْسَجاً تهبُّ وراءه . ونشر أوذيس شرعهُ وسار في سبيله جَذِلاً . ولم يغمض لـه جفن ، بل أقام يرقب النجوم والثريا والعوائذ والدُّب الأكبر الذي يسميه البشر أيضاً المركبة ، وهو لا يفتأ يدور في مكان واحد . متطلّعاً إلى الكوكب الصياد ، لأن كليبسو قالت له : « اجعل الدب الأكبر دائماً عن يسارك وأنت تمخر البحر » .

وظل يقطع البحر سبعة عشر يوماً ، حتى لاحت له في اليوم الثامن عشر ظـلال الهضبات في جزيرة الفيسيانيين ، أقرب الجزر اليه . وقد بدت له الجزيرة من خلال ضباب البحر كأنها الترس . واتفق عندئذٍ أنّ فوسيذون ، لدى رجوعه بعد أن قضى شعائر العيد مـع الايثوبيين ، لمحه مبحراً ، فملأ ذلك قلبه غيظاً . وهزَّ رأسه وقال في نفسه: « لا ريب أن الآلهة قد غيروا نيّتهم نحو أوذيس في غيابي عند الإيثوبيين . وها هو الآن يدنو من جزيرة الفيسيانيين، وقد قُدِّر له إن بلغها أن ينجو من بلاياه . بيد أني سأدفعه الآن بعيداً جداً في سبيل المصاعب والمهالك » .

وعلى هذا حشد الغيوم ، وهاج مياه الأعماق ، وهـو

يحمل صولجانه بيده ، وأثار عاصفة من كل ما يهبُّ من الرياح ، وغطى الأرض والبحر بالغيوم . واشتد بأوذيس الجزع وقال في نفسه : « بالصواب نطقَت كليبسو لمّا ذكرت ما لا بد أن ألقاه من الويلات ، وأنا عـائد إلى وطني . ألا ليتني متّ يوم سُدِّدت رماح رجال طروادة إلى أخيل الميت ! إذن لواراني رجال الإغريق في لحَد . ولكني الآن سأهلك بائساً ذليلاً » . وفيما هو يتكلم انقضت موجة عظيمة على طوفه فقذفت به بعيداً وأفلتت الدفة من يده . وانقضت مدة طويلة قبل أن يتمكن من الارتفاع ، لأنه قد غاص الى عمق كبير ، ولأن الثياب الفاخرة التي خلعتها عليـه كليبسو كانت كثيفة ثقيلة . إلا أنـه علا أخيراً فوق الأمواج ، ومج الماء المالح من فمه . وكان من شجاعته أن وثب إلى الطوف ، وأمسك به ، وجلس عليه فأخذت تتقاذفه الأمواج . ولكن إينو رأته فأشفقت عليه . وقد كانت قبلاً امرأة ، وهي الآن إلهَة البحر ، وصعدت إليه من الأعماق كأنها زُمَّج الماء الطائر ، وجلست عـلى الطّوف ، وتكلمت قائلة :

— « أيها الإنسان السيء الحظ ، لماذا يكرهك فوسيذون كل هذا الكره ؟ إنه لن يُهلكك ، وإن كـان شديد الرغبة في ذلك . فاخلع هذه الثياب ، واسبح إلى أرض

فيسيا ، واضعاً هـذا الحجاب تحت صدرك . وحينما تبلغ الأرض انزعه عنك وألقِه في البحر ، وحوّل نظرك بعيداً حين إلقائه » .

وأعطته الإلهة الحجاب ، وعادت فغاصت الى الأعماق كما يغوص زُمَّج المـاء . وانطبقت الأمواج من فوقها . وفكّر أوذيس في الأمر قائلاً في نفسه : « تبّاً لي ! ألا يكون أحد الآلهة قد دبّر لي مكيدة ، وهو يوعز إليّ أن أغادر طوفي يقيناً أني لن أعمل بهذه النصيحة ؛ لأن الأرض حين لمحتها بدت بعيدة جداً لعينيّ . وقد أزمعت أن أقيم على الطّوف ما دام متماسكاً ، وسأسبح حينما تشطره الأمواج ، إذ تكون السباحة خير ما في وسعي أن أعمل» .

فيما كان هذا يهجس في صدره ، أرسل فوسيذون على الطوف موجة أخرى عظيمة . وكما تأتي عاصفة هوجـاء على كومة من قشر الحبّ فتذروها ، هكذا بعثرت الأمواج أخشاب الطوف . ولكن أوذيس امتطى أحد الألواح كما يمتطي الرجل جواداً ، وخلع عنه الثياب الفاخرة التي أعطته إياها كليبسو ، ووضع الحجاب في صدره وقفز الى البحر باسطاً ذراعيه للسباحة . ولمـا رآه فوسيذون هزّ رأسه ، وخاطب نفسه قائلاً : « اذهب على هذا الوجه بعد كل مـا لقيت ، وتِه فوق الغَمْر حتى تبلغ الأرض . ولن

تزعم أنك لم تلقَ من الهول ما فيه الكفاية » .

بيد أن أثينا عقلت سائر الرياح ، وأثارت ريح الشمال السريعة لكي ينجو أوذيس من الموت .

وهكذا ظل يسبح نهارين وليلتين . وفي اليوم الثالث صفا الجو . ومن فوق موجة عظيمة ، إذ كان الموج ما زال عالياً . رأى الأرض على مقربة منه . وكفرحة الأبناء بوالدهم العزيز ، وهو ينهض من مرض خطير ، هكذا كانت فرحة أوذيس بالأرض التي بدت لعينيه . ولكنه لم يكد يدنو منها حتى سمع الأمواج تتكسر على الشاطيء ، إذ لم يكن ثمة ميناء بل تنانف وصخور ناتئة .

فتخاذلت عند ذلك ركبتاه جزعاً وذاب قلبه في صدره، وخاطب نفسه وهو مُثقَل غماً : « الويل لي ! فالآن ، وقد منحني زفس فوق ما أمَّلت فجعلني أُبصر الأرض ، لا أجد مكاناً أبلغ به الشاطىء من البحر . فإن رؤوس الصخور حادة ، والأمواج تُزمجر حولها ، والصخور الملساء تذهب صُعداً من البحر ، والماء بعيد الغور ، فلا أجد لقدميّ مستقراً . وإذا رغبت في الوصول إلى اليابسة، فقد تحملني موجة عظيمة وتضرب بي الصخور . وإذا ما سبحت محاذياً الشاطىء ، أملَ العثور على ميناء ، فإنني أخشى أن تعود الرياح ، فتختطفني وتحملني إلى الأعماق . أو قد يرسل

عليّ أحد الأرباب وحشاً مائياً . وإن منها لكثير في مراعي البحار . وأنا أعلم ، إلى ذلك ، أن فوسيذون يضمر لي الحقد العظيم » .

وفيما هذا يهجس في فؤاده ، حملته موجة عظيمة إلى الصخور . فسُلخ عنه جلده وتكسّرت منه العظام جميعاً. ولكن أثينا أوحت اليه رأياً ، فقد أسرع إلى الشاطىء ، وتشبّث بالصخر بكلتا يديه ، وظل متمسكاً به ، حتى مرت الموجة . ولكنها عادت حين الجزر ، وأحدقت به وردّته إلى الأعماق . وكما تُجرّ أم حبر[1] من جحرها في الصخر ، هكذا جرته المياه فانسلخ جلد يديه على الصخور.

ولو لم تُلقِ أثينا بنصيحة في فؤاد أوذيس لهلك على رغم القضاء . فإنه سبح خارج نطاق الأمواج الكبيرة المتكسرة، محاذياً الشاطىء باحثاً عن مكان تتكسر فيه حدّة الموج ، أو مكان فيه ميناء . وبلغ أخيراً مصب أحد الأنهار في البحر . وقد خلا هذا المكان من الصخور ، وتجنبته الرياح، فأحسّ أوذيس ، وهو يركض بمجرى النهر ودعا إلَه النهر قائلاً :

— « أيها المليك ، أياً كنت أصغ إليّ . إني قد أتيتك

---

١ أم حبر ، دويبة مائية تفرز مادة كالحبر لتخفي نفسها .

مستجيراً هارباً من غضب فوسيذون ، فأنقذني أيها المليك! أنقذني » .

فكفّ النهر عند ذلك عن الجريان ، وغدا الماء سلِساً أمام أوذيس ، حتى فاز أخيراً بمجازٍ إلى الأرض . فتقوّست ركبتاه من تحته ، وتدلّت يداه على جانبيه ، وسال الماء المِلْح من فمه ومنخريه . وقد تقطعت أنفاسه ، وحُبس كلامه . ولكنه لما رجع إلى نفسه ، عمد الى الحجاب تحت صدره ففكه ، ورماه في مجرى النهر المِلْح فحمله الى البحر ، وهناك صعدت إليه إينو وتلقته بيديها .

ثم ارتمى على الحَلفاء على ضفة النهر ، وقبل الأرض وهو يقول في نفسه : « ماذا أفعل الآن ؟ إنني أخشى إذا نمت عند النهر أن أهلك بالندى والصقيع ؛ لأن الريح تهب باردة من النهر عند الصباح . وإذا ذهبت إلى الغاب في الدّغل ، أخشى أن يفترسني أحد الوحوش الضارية » .

وخُيّل إليه أن الأفضل له أن يقصد الغاب ففعل . وكان الغاب قريباً من النهر ، فوجد فيه خميلتين ، إحداهما من شجر الزيتون البرّي ، والأخرى من شجر الزيتون المثمر . وكانت أشجارهما كثيفة ملتفة حتى لا تجد الريح لهبوبها بينها مجالاً . ولا تجد الشمس لشعاعها منفذاً ، وحتى قطرات المطر لا تبلغ من أرضها منالاً . إلى هنالك

زحف أوذيس ، فألفى قدراً عظيماً مـــن ورق الشجر ، وكان المكان كافياً لكي يلوذ به شخصان أو ثلاثة حتى في فصل الشتاء ، وفي أيـــام المطر الغزير . فنعِم أوذيس بالاستلقاء في وسط ذلك المكان ، متدثراً بأوراق الشجر . وكما يحرص رجل يعيش بعيداً عن العالم ، فيترفق بنـاره ويطمرها بالرماد ، هكذا ترفق أوذيس بنفسه فطمرهـــا بالأوراق . وأرسلت أثينا على جفنيه نوماً عميقاً ليريحه من عنائه .

٧

نوسيكا

ذهبت أثينا في أثناء هذا إلى مدينة الفيسيانيين وقصدت قصر ملكهم ألسينوس .

وهناك اتجهت إلى المخدع ، حيث تنام نوسيكا ابنة الملك الفتاة ، ذات الجمال الإلهي . فوقفت الإلهة عند رأسها في هيئة ابنة ديماس (وديماس هذا كان رائداً شهيراً من رواد البحر) وكانت الفتاة من لدات ابنة الملك ، وقد نالت حظوةً لديها .

وتكلمت أثينا قائلةً : « لمَ تُهملك أمك هذا الإهمال يا نوسيكا ؟ فها ثيابك ملقاة هنا لم تُغسل ، وقد اقترب يوم زفافك . وهو يوم يجب أن تحوزي فيه أجمل الثياب لكِ ، ولأولئك الذين يرافقونك إلى بيت عرسك ، إذ

بهذا تكسب العروس طيب الأحدوثة . فانهضي إذاً عند بزوغ النهار لغسل ملابسك ، وسأذهب معك . فبكّري إلى أبيك في الغداة واسأليه بغالاً ، وعجلة تنقل الملابس والأردية . ثم إنه أليق بك أن تذهبي راكبة من أن تذهبي مشياً على قدميك ، لأن أمكنة الغسل بعيدة عن المدينة .

ولما جاء الصباح استيقظت نوسيكا من نومها مستغربة ذلك الحلم ، وذهبت في طلب والديها ، فوجدت أمها عند وصولها منهمكة مع وصيفاتها في غزل صوف مصبوغ بأرجوان البحر . والتقت أباها في طريقه الى مجلس يعقده مع زعماء بلده . فقالت : « أعطني يا أبي العجلة مع البغال ، لكي أذهب بالثياب الى النهر فأغسلها ، إذ يجب أن ترتدي دائماً نظيف الملابس ، حينما تذهب الى المجلس. ثم إن إخوتي الخمسة يحبون أن تكون ثيابهم حديثة العهد بالغسل عند ذهابهم إلى الرقص » .

أما عن زفافها فلم تفُه بكلمة ، ولكن أباها ، وهو يعلم أفكارها قال : « لا أضنّ عليك بالبغال ، ولا بأي شيء آخر يا بنيّتي العزيزة . فإن الرجال سيهيؤون لك العجلة بأقوى دواليبها ، وسيجهزونها فوق ذلك بالحواجز » .

ثم نادى الرجال ، فهيأوا العجلة ، وشدّوا اليها البغال ، وأخرجت الفتاة الملابس من غرفتها ، ووضعتها فيها ، ثم

ملأت والدتها سلّة بأنواع الأطعمة ، وملأت بالنبيذ زقّاً من جلد المَعز . وأعطتها شيئاً من زيت الزيتون تدّهن به مع وصيفاتها بعد الاستحمام . وأمسكت نوسيكا بالأعنّة ، ومسّت البغال بالسوط ، فسُمع وقع حوافرها وسارت بأحمالها لا يعتريها الكلال .

ولما بلغن من النهر الى حيث تفي مياهه بحاجة الغسل، على ما يلازمها من الكدر ، حلّت الوصيفات وثاق البغال عن العجلة ، وأرسلْنَها ترعى البرسيم بجانب ضفة النهر . ثم أخذن الملابس من العجلة ، وحملنها الى النهر ، وجعلن يطأنها في الحُفر ، وهن يتنافسن في عملهن . ولمّا ذهبت عنها أوساخها نشرنها على شاطيء البحر ، حيث أجادت الأمـواج غسل الحصباء . وبعد ذلك اغتسلن وتطيبن ، ثم جلسن الى طعامهن وشرابهن عند ضفة النهر . وعمدن بعد الطعام إلى كرةٍ يتقاذفنها ، وهن ينشدن الأغاني تقودهنّ في ذلك نوسيكا . وكأرطميس وهي تصطاد المَعز البري والأوعال ، وقد بذّت لداتها من الحوريات جميعاً ، على ما هن عليه من جمال ممّا أثلج قلب أمها لاطونة ، هكذا بذت نوسيكا صواحبَها جمالاً . ولما أنهين لعبهن ، وشرعن في شدّ البغـال إلى العجلة وطيّ الملابس ، دبّرت أثينا أمراً ، فجعلت الأميرة تقذف بالكرة الى احدى وصيفاتها

بعيداً جداً ، بحيث تقع الكرة في النهر فصاحت الوصيفات عندئذ معاً صيحة عالية أيقظت أوذيس من نومه . فقال في نفسه : « أي ارض هذه التي أتيت يا ترى ؟ وهل يجافي ساكنوها الغريب ، أم هل به يرفقون ؟ ويُخيّل إليّ أني سمعت الآن صوت حوريات ، أو لعلي قريب من مساكن البشر » ؟

ثم لف غصناً مورقاً على خاصرتيه ، ونهض قاصداً الى حيث الفتيات اللواتي فزعن لرؤيته (لأنه كان وحشي المنظر) ، وفررن أشتاتاً . ولكن نوسيكا مكثت مكانها ولم تهرب . وفكّر أوذيس في نفسه هل يجثو أمامها ويمسك بركبتيها أم ، خشية أن يُغضبها ذلك ، هل يقف أمامها ويخاطبها ؟ ففعل هذا وقال :

— « انني مستجير بك أيتها الملكة ، ولست أدري فقد تكونين إلهة . وإذا كنت بشراً فما أسعد أباك وأمك ، وما أسعد إخوتك بك ، بل ما أعظم ذلك الذي سيتخذك زوجاً . إني لم أرَ قط رجلاً ولا امرأةً في مثل هذا الجمال . وإنك لتشبهين رقْلةً[1] غضةً رأيتها من عهد قريب في دِلوس ، ناجمة على مقربة من هيكل الإلَه .

---

[1] الرقلة : النخلة الطويلة التي تفوت اليد .

وأما أنا فقد دُفعت الى هذا الشاطيء قادماً مـن جزيرة أوجيجيا . فأشفقي عليّ إذاً ، وخذيني الى المدينة وأعطيني شيئاً ، أو إن أمكن مئزراً من هذه الثياب اجعله حولي وأستتر به . ولتمنحك الآلهة كل البركات » .

فأجابت نوسيكا : « يُخيّل إليّ أيها الغريب أنك لست بالشرير ولا بالأحمق ، وما أنت فيه من الضيق فمن الآلهة التي تولي السعود والنحوس كما تشاء . ولن يُعوزك عندنا ما يعوز المستجير من الملبس والمأكل . وسآخذك الى المدينة. واعلم أن هذه الأرض هي فيسيا ، وانني ابنة ألسينوس ملكها » .

ثم نادت وصيفاتها وقالت : « ما معنى هربكن عندما ترين رجلاً ؟ فليس من عدوّ يأتينا بضرّ لأننا اعزاء على الآلهة ، ثم إننا نعيش في إحدى جُزر البحر ، حتى لا يقربنا البشر بالأذى . وإذا ما جاءها احد ، وقد برح به الهم ، فيجدر بنا ان نسعفه . فأطعمن هذا الرجل إذاً واسقينه واغسلنه في النهر في منجى من الريح » .

فأنزلنه إلى النهر ، ثم أعطينه ثوباً ومعطفاً ليكتسي بهما ، وأعطينه أيضاً شيئاً من زيت الزيتون في قارورة من الذهب . ثم طلب إليهن أن يبتعدن قليلاً ، فاغتسل وأزال الملح عن جلده وشعره ، وادّهن بالزيت ، وارتدى

الملابس . وجعلته أثينا أطول قامة وأجمل منظراً . وبدا كثيف الشعر في لون الخُزامى . ثم جلس على شاطىء البحر فبدا جميلاً للأنظار ، فقالت الفتاة :

— « لم يأت هذا الرجل أرضنا من غير إيعاز من الآلهة . ولقد حسبناه أول الأمر زرياً ، ولكنه الآن يبدو شبيهاً بالآلهة . واني لأرحب بمثله زوجاً ، ولعله يرضى أن يسكن هذه الأرض . وأنتن أيتها الوصيفات قدّمن لهذا الرجل طعاماً وشراباً » .

فقدمن له بحسب طلبها فالتهم الطعام التهاماً لطول صيامه . ثم أمرت نوسيكا أن تُشدّ البغال الى العجلة وقالت لأوذيس :

— « انهض أيها الغريب ، وتعال معي إلى بيت أبي ، ولكن عليك أن تعمل بما أقوله لك ، فأنت على ما يظهر لي من الفطانة بمكان . عجّل باتباع العجلة مع الوصيفات ما دمنا نجوز السهول . ولكن حينما ندنو من المدينة — وسترى هناك سوراً عالياً ومرفأ على جانبي المدخل الضيق المؤدي الى باب المدينة — عندها كُفّ عن اتباع العجلة . وهناك في ما يلي السور غابة من الصفصاف لأثينا ، يتوسطها ينبوع ويحدق بها مرج ، فأقم هناك ريثما أبلغ بيت أبي . فلست أحب أن يتقوّل الناس عني الأقاويل . ولست

أستبعد ، إن رافقتني ، أن يقول أحـد السفلة : « من يكون هذا الغريب الطويل القامة الجميل المنظر في رِفْقة نوسيكا ؟ أهو زوجها العتيد ؟ ولعله أحد الآلهـة هبط الأرض بدعوة منها ، أو رجل قادم من سحيق الأرجاء . أما نحن ، رجالَ فيسيا ، فإنها تنظر إلينا بازدراء » ؟ وإنه لمن العار أن يُقال مثل هذا القول . ومن الحقّ أنـه لا يليق بفتاة أن تصحب رجالاً من غير علم أبيها وأمها . ولكن حينما تُقَدّرُ أني بلغت القصر ، فاذهب بنفسك وسَلْ عـن بيت أبـي . وفي إمكان أيّ كان ، حتى الطفل الصغير أن يرشدك إليه لأن سائر الفيسيانيين لا يقيمون في مثل هذا البيت . وعندما تدخل من الأبواب ، جُزِ البهو مسرعاً إلى حيث تجلس أمي ، فإن مقعدهـا قرب الموقد ، ويلاصقه مقعد أبـي ، حيث يجلس وفي يده كأس النبيذ ، كأنه أحد الآلهة . فمُرّ بـه وأمسك بركبتي أمي وسلها عودة مأمونة إلى وطنك » .

ثم ساطت البغال ، فخلّفت النهر وراءها سريعاً . بيد أن الفتاة حرصت عـلى أن تسوقها بحيث كان في وسع أوذيس والوصيفات أن يتبعوها مشياً على الأقدام . وبلغوا عند غياب الشمس غابة أثينا المقدسة ، فأقام أوذيس هناك، ودعـا أثينا قائلاً : « أصغي إليّ الآن يا ابنة زفس ،

فإنك لم تصغي إليّ قبلاً يوم ضربني فوسيذون ، وهبّي أن يكون لي هؤلاء القوم من الرحماء » .

قال هذا فأصغت اليه أثينا ولكنها لم تظهر له وجهاً لوجه ، لأنها خشيت غضب عمها فوسيذون ، فقد كان حنقه على أوذيس عظيماً .

٨

ألسنيوس

بلغت نوسيكا قصر أبيها ، وهناك حلّ إخوتها البغال عن العجلة ، وحملوا الملابس الى المنزل ، وذهبت الفتاة إلى مخدعها ، حيث أوقدت لهـا حاضنتها ناراً ، وهيأت لها طعاماً .

وفي الوقت ذاته ، نهض أوذيس قاصداً المدينة . ونشرت أثينا ضباباً من حوله لأنها لم تشأ أن يراه أحد الفيسيانيين ويهزأ به . ولما كاد يدخل المدينة ، لاقته الإلهَة ، وقد اتخذت هيئة فتاة تحمل جرّة .

فسألها أوذيس : « هل يمكنك يا بُنيّتي أن ترشديني الى مسكن ألسينوس ؟ فإنني غريب الدار » .



الصباح

حُلْم بنيلوب



فأجابت : « سأرشدك إلى المكان ، لأنه يسكن قرب منزل والدي . ولكن الزم الصمت لأننا ، نحن الفيسيانيين، لا نحبُّ الغرباء كثيراً » .

ثم تقدمت أثينا وتبعها أوذيس . وقد أُعجب كثيراً ، وهو سائر ، بالمرافىء والسفن ، وأمكنة الاجتماع ، والأسوار ولما بلغا القصر قالت أثينا : « هذا هو المكان الذي سألت عنه ، فادخل وستجد هنا ملوكاً يحتفلون ، فلا تخش شراً ، لأن المِقدام هو الذي يُيسر له الأمور . وابحث أولاً عن الملكة ، واسمها أريتا ، وهي شديدة الشبة بالملك ، لأنها ابنة أخيه . فإن رِكْسينور كان أخا الملك ، فرماه أفلّون بنباله ، وكان لا يزال شاباً ، فاتخذ من ابنته زوجاً له . ولم تنل زوجة من احترام سيدها واكرام الناس ما نالته هذه . ولا يعوزها الإدراك ، وكل الذين تخصُّهم بعطفها تضع لمتاعبهم حداً . وإذا ما نِلت حظوةً لديها ، فلا شك في أنك ستعود الى رؤية وطنك .

قالت أثينا هذا ، وانصرفت قاصدة أرض الأثينيين ، ودخل أوذيس القصر . وكان فيه إشراق كأنه إشراق الشمس أو القمر . وكان القصر من العجائب : جدرانه من النحاس : وأبوابه من الذهب قائمة على دعائمَ من الفضة . وعلى جانبي الباب كلاب من الذهب والفضة ،

من صنع هيفِسْت . وقد صُفت المقاعد على محاذاة الجدار من العتبة إلى الغرفة الداخلية ، وجلس عليها زعماء الفيسيانيين محتفلون . وهنالك ولدان صيغت من الذهب ، تحمل في أيديها مشاعل تضيء في الظلام . وكان في المنزل خمسون امرأة يطحنّ الحنطة ، ويحكن الثياب ، فلم تكن نساء هذه الأرض في الحياكة أقلّ مهارةً من رجالهنّ في خوض البحر .

وكان حواليَ المنزل حدائق في غاية الجمال ، مع بساتين من التين ، والتفاح ، والكُمثرى والرمان ، والزيتون . وهي بساتين لا يؤذيها جفاف ولا صقيع ، بل تؤتي أكلها المرة تِلو المرة دون انقطاع . وكان هنالك كرم ، وكان به عناقيد العنب صائراً إلى الجفاف شيئاً فشيئاً تحت أشعة الشمس ، وبعضها قد نضج للقِطاف ، والبعض الآخر لا يزال في أول احمراره . وكان هنالك أحواض من كل أنواع الأزهار ، وفي الوسط عينا ماءٍ جارية لا ينضُب ماؤهما . وقد ألقى أوذيس على هذا كله نظرة عابرة ، ثم دخل البهو . وهناك كان زعماء الفيسيانيين يحتسون الكأس الأخيرة مكرّسة لهرمس . فأسرع في خطوه بينهم ووضع يديه على ركبتيْ أريتا وقال ، وقد تلاشي الضباب من حوله وهو يتكلم حتى رآه كل من في القاعة :

— « إنني مستجير بكِ وبزوجك وبضيوفك . لتباركك الآلهة ولتباركهم ، ولتمنحكم عيشاً رغداً تعيشونه ويعيشه أولادكم من بعدكم في سلام ! ولست أبغي سوى أن تتكرمي بإرسالي إلى بلدي ومسقط رأسي » .

ثم جلس على رماد الموقد ، وصمت الجميع هُنيهةً ، تكلم بعدها إخِنيوسُ كبير القوم فقال :

— « لا يليق بك أيها الملك ألسينوس أن تترك هذا الرجل يجلس على رماد الموقد ، فأنهضه ودَعهُ يجلس على مقعد ، ولنُرقِ الخمر لأبينا زفس صديق المستجيرين، وليقدّم له قيّمُ البيت لحماً وشراباً » .

ففعل ألسينوس ما طُلب منه وأمرَ ابنهُ البكر لاوُذاماسَ أن ينهض عن مقعده . ثم صبّ أحد الغلمان الماء على يديه ، وقدّم له قيّم المنزل لحماً وشراباً . ولمّا أهرقوا جميعاً شيئاً من الخمر لزفس الإله الآب ، تكلم الملك ألسينوس ، فقال : « إننا عند الصباح سندعو الشعب للاجتماع ، لنرى كيف نوصل هذا الغريب الى بلده دون أن يمسّه أذى ، ولكننا لا ندري ماذا يحلّ به هناك . وسيكون شأن ذلك كما غزلته له الأقدار حينما حملت به أمه . وإذا اتفق أن كان هذا إلهاً لا بشراً ، فوجوده بيننا قد يكون خَطْرَةً جديدة من خَطرات الآلهة . فقد

سبق أو ظهروا علانيةً بيننا ونحن نقدّم الضحايا ، وجلسوا الى جانبنا في الأعياد . أجـل إنهم لم يكونوا ليتنكّروا لمسافرٍ يصادفهم في طريقه ، فهم منّا وايمُ الحقّ عـلى أحسنَ القُربى » .

ثم تكلم أوذيس فقال : « لا يُخامر فؤادك شيء مـن هذا أيها الملك ! فإني لست بإلـه ، وإذا كنت تعرف أحداً هـو أتعس بني البشر ، فبه تقدر أن تُشبّهني . ويمكنني أن أسرُدَ عليكم خبر الكثير من البلايا والأرزاء . ولكن أمهلوني ريثما آكلُ فما في جوع الانسان مـن حياء ، فهو يحمله على المآكل والمشرب مهما كان مبلغ حزنه . ولكن عندمـا يأتي النهار ، تهيأوا للعمل واحملوني إلى موطني ، فإني لأرضى بالموت إذا تمكنت من رؤيته مرةً أخرى » !

فأجابوه بأن الأمر سيكون كما قال ، وتفرقوا كل إلى بيته . ولم يبق في القاعة إلا أوذيس ، وبقي معه ألسينوس وأريتا . ورأت أريتا معطفه وثوبه ، وكانت هي قـد صنعتهما مع وصيفاتها ، فقالت له :

— « من أين أنت أيها الغريب ، ومن أعطاك هـذه الملابس » ؟

فقصّ عليها أوذيس خبر قدومه من جزيرة كليبسو ،

وما لقيه من العناء ، وكيف وجدته نوسيكا على الشاطىء وقادته إلى المدينة .

فجعل ألسينوس يلوم الفتاة لأنها لم تُحضره هي نفسها الى المنزل وقال : « ذلك لأنك كنت بها مستجيراً » .

فقال أوذيس : « لا تلُمْها ، فقد كان بودّها أن تحضرني ، ولكني لم أقبل خشية غضبك » .

قال هذا لأنه لم يشأ أن يوجّه اللوم إلى الفتاة . فقال ألسينوس : « لستُ من الذين يغضبهم أمر كهذا ، واني لأودّ لو كان لي صهر مثلك أمنحه منزلاً وأعطيه ثروة ، ولكني لا أمسك بأحد رغم إرادته . أما إرسالك إلى بلدك فأمره يسير علينا ، فما عليك إلا أن تستسلم الى النوم ، في حين يضرب رجالي البحر بمجاذيفهم ، حتى يوصلوك إلى حيث تشاء ، ولو كان ذلك أبعد من أُوبيا ، التي يقولون إنها في أقصى الأرض . حتى هذه بلغها رجـالي ، وهم يحملون راذامَنْثوس . وقد بلغوها ورجعوا في يوم واحد ، دون أن يأخذهم كَلَل . ولا بدعَ ، فسفني خير السفن التي تمخر البحر ، وفتياني أمهر من كدّ على مِجذاف » .

قال هذا فابتهج أوذيس لسماع كلامه . ودعا في نفسه قائلاً : « أيها الإلَه زِفس ، امنحني أن يفيَ ألسينوسُ بكل ما وعد ، ويسّرْ لي بلوغ وطني » !

وأمرت أريتا خادماتها أن يُهيئن للغريب فراشاً، فغادرنَ القاعة وفي أيديهنَّ المشاعل إلى حيث أعددن الفراش . ولما أنهين عملهن دعون أوذيس بقولهن : « إنهض أيها الغريب، وارقدْ فإن الفراش قد هيئ . »

وقد كان جذله عظيماً لشدّة حاجته الى الرقاد ، بعد كلٍّ ما كابده من المشاقّ .

٩

الفيسيانيون

نهض الملك في اليوم التالي مع الفجر ، ونهض أوذيس كذلك ، وتقدّمه الملك الى مكان الاجتماع . وكانت أثينا في غُضون ذلك تجوب المدينة ، في هيئة داعي الملك وتقول لكل من تلقاه : « هلموا الى الاجتماع يا قوّاد الفيسيانيين ومستشاريهم لكي تقفوا على أمر هذا الغريب الذي نزل بساحة ألسينوس » .

وهكذا أثارت فيهم الرغبة ، فغصّ بهم مكان الاجتماع. وقد أُعجب الرجال برؤية أوذيس ، فقد أفاضت عليه أثينا ملاحةً رائعة ، فبدا للناظرين أجمل هيئةً ، وأطول قامة، وأشدّ قوةً .

ثم نهض الملك للكلام فقال : « أصغوا يا قوّاد الشعب

ومستشاريه الى ما أقول . لقد نزل هذا الغريب قصري ، ولست أعلم من هو ، ولا من أين أتى . ولا أعلم أمن مشرق الشمس قدومه ، أم من مغربها . وقد رجانا أن نرجعه سالماً الى وطنه . وكان من عادتنا منذ القدم أن نبذل هذا العون للغرباء . فلنختر إذاً مركباً لم يمخر البحر من قبل ، ولننتخب اثنين وخمسين شاباً ، هم خير من كدح على مجذاف ، وحينما تهيؤون السفينة ، تعالوا إلى قصري لنقيم عيداً ، وسأعدّ ما يلزم لذلك من العدّة . واطلبوا من ذومودوكَ المنشد أن يحضر ، فإن الآلهة خصته بعطيّة الغناء ليبهج قلوب البشر » .

وعمل القوم عندئذ بما أشار به الملك ، فهيأوا السفينة، وأرسَوها عند الشاطىء ، وذهبوا بعد ذلك الى قصره . وقد غصّ القصر بالقادمين من الشبان والشيوخ الذين احتشدوا فيه من الجانب الواحد الى الجانب الآخر . وذبح لهم ألسينوس اثني عشر خروفاً وثمانية خنازير وثورين . وأعدّ رجاله للشعب عيداً عظيماً .

ثم جاء خدم الملك يقودون المنشد من يده . وقد أحبته إلهة الفنّ الحبَّ الجمّ ، غير أنها أعطته الخير والشر على السواء . فقد منحته نعمة الغناء الجميل ، ولكنها سلبته نور عينيه . وقد أجلسه الخدم على كرسيّ من الفضة في وسط

الضيوف ، وعلقوا القيثار على وتد فوق رأسه ، وأرشدوا يده ، حتى يكون في وسعه أن يتناوله . ووضعوا بقربه منضدة وسلة وكأساً من النبيذ ليشرب منها حينما يشاء .

وهكذا أقام الفيسيانيون في البهو عيداً ، ولما أخذوا كفايتهم من الطعام والشراب ، أخذ المنشد في الغناء . فغنّى أنشودة بلغت شهرتها السماء ، تصف خصام أوذيس وأخيل ، وكيف تشاجرا في أحد أعياد الآلهة ، وتصف فرح أغاممنون لما رأى أشرف الإغريق في خصام . وذلك لأن أفلّون كان قد أنبأه بذلك في فيثو ، أي أن خلافاً لا بدّ أن يشجُر بين أحكمهم وأقواهم ، قبل أن يتمكن من الاستيلاء على مدينة طروادة العظيمة .

وفيما كان المنشد يُغني ، كان أوذيس ممسكاً معطفه الأرجواني أمام وجهه ، فقد خجل أن ينتحب على مرأى من الناس . وكلما كان المنشد يكفّ عن إنشاده كان أوذيس يمسح دموعه ، ويُريق الخمر للآلهة . وإذا ما عاد إلى الإنشاد لرغبة الزعماء في سماعه ، عاد أوذيس إلى ستر وجهه ، وعاد إلى نحيبه . ولم يلحظ ذلك من الحاضرين أحد سوى ألسينوس .

ثم قال الملك للزعماء : « الآن ، وقد قمنا باحتفالنا وابتهجنا بالإنشاد ، فلنخرج خارجاً لنُري هذا الغريب

حذقنا للملاكمة والمصارعة والعَدْوِ » .

فلبّوا دعوة الملك وخرجوا ، وقاد أحد الدعاة ذيمودوكَ بيده ، لأنّ المنشد كان ضريراً . ووقف عندئذ كثيرون من الشبان الفيسيانيين ، وكان أجملهم وأقواهم جميعاً لاوُذاماس ، ابن الملك البكر ، ويليه أُوريالوس . ثم تسابقوا فكان أسرعهم كليتونوس . وكان أوريالوس خير المصارعين ، وكان لاوذاماس أفضل الملاكمين . وتفوّق إلاتريوس في قَذْف القرص وتفوّق أمفيالوس في القفز فوق الحواجز .

وقال لاوذاماس لأوذيس ، وقد ألحّ عليه أوريالوس: « ألا تجرّب مهارتك أيها الأب في بعض هذه الألعاب وتطرح الهمّ من فؤادك » ؟

ولكن أوذيس أجاب : « لِمَ تسألني هذا ؟ إني أفكر في همومي دون هذه الألعاب الرياضية . واني لأجلس بينكم ولا شاغل لي إلا وطني والسبيل إلى رؤيته ثانيةً » .

فقال أوريالوس : « حقاً أيها الغريب أنه تلوح عليك مخايلُ المصارع أو الملاكم . بل قد يرى المرء فيك تاجراً من التجّار يجوب البحار في طلب الربح » .

فأجابه أوذيس : بئس القولَ قولك . ولا ريب في أن

الآلهة لا تجود على الناس كلهم بكل عطاياها ، فهي تمنح هذا الجمال ، وتجود على ذاك بحسن الخطاب ، وانك لبديع التكوين ، وليس لإلـــه أن يفضُلك في ذلك ، ولكنك سيء المنطق . لا ، لا تعوزني المهـارة في هذه الأمور ، فقد كنت فيما سلف من الأيام في الأولين مقاماً . بيد أني عانيت كثيراً في المعارك ، وتحطّمت بـي سفن كثيرة . على أني سأمتحن قوتي ، فقد أغضبني كلامك » .

ثم أخذ قرصاً، يـُربـي في ثقله كثيراً على كل الأقراص التي اعتاد الفيسيانيون قذفها ، فأرسله وهو ملتفٌ بمعطفه، فانطلق يدوّم في الفضاء ، حتى خرّ الفيسيانيون الأبطـال على الأرض رُعباً ، وسقط عـــلى مسافة بعيدة من سائر الأقراص .

عندئذ أقبلت أثينا ، وقد اتخذت هيئة أحد الفيسيانيين، وجعلت في مكان سقوط القرص علامة ، وتكلمت قائلة: « حقاً أيها الغريب إن الشاهد على قوّتك ليتضح حتى لمن به عمى . فإن الرمية لم تضـع بين سائر الرميات ، ولكنها قد تخطتها جميعاً إلى حدٍّ بعيد . فتشجع إذاً في هذه المباراة على الأقل ، فليس بين الفيسيانيين من يبذّك فيها » .

فسُرّ أوذيس إذ وجد بين القوم صديقاً ، وقـــال : « هلموا أيها الشبان وباروني في هذه الرمية إن استطعتم :

وسأرمي عما قليل رمية أخرى تبلغ مبلغ هذه أو قد تتخطاه. أجل ليتقدم منكم مـــن يشاء لمباراتي . وإني لأتحدى في الملاكمة والمصارعة ، وفي العدْو أيضاً ، كلَّ رجل في فيسيا ، واستثني لاوذاماس وحده ، لأنــه صديقي . وفي وسعي أن أرمي بالقوس ، ولا يفوقني في ذلك إلا فيلوكتيت وحده ، وأقدر أن أبعد الرمية برمحي إلى المدى الذي يرمي اليه سواي بسهمه . أما السباق فقد يبُذّني فيه البعض لأنني لاقيت كثيراً من أهوال البحر » .

فخيّم الصمت عليهم جميعاً ، حتى نهض الملك وقال. « نِعمَ ما قلتَ ، ولكننا نحن ، رجال فيسيا ، لا نتميّز بقدرتنا على المصارعة ، ولا على الملاكمة ، ولكننا سريعو الأرجل خبيرون في خوض البحار . ونحن مولعون بالأعياد والرقص ، ونحبّ القيثار ، والثياب الزاهية ، والاستجام. وليس في وسع أحد أن يُجارينا في هذا » .

ثم طلب الملك من ذيمودوك المنشد أن يعاود الغنـــاء . ولمـــا فعل هذا رقص ابنا الملك أليوس ولاوذاماس معاً ، ثم لعبا بالكرة فكانا يرسلانها في الفضاء الى أن تبلغ الغمام ويتلقيانها بمهارة فائقة .

وقال الملك بعد ذلك : « ليُعطِ كلٌّ منا هذا الغريب

معطفاً وثوباً ووزنة مـــن الذهب ، وليتقدّم اوريالوس فيسترضيه بالكلام وبالهدية . »

واتفقوا جميعاً (وكانوا اثني عشر أميراً ، وألسينوس الثالث عشر فيهم) على ذلك . وقدّم اوريالوس الى أوذيس سيفاً نصابه من الفضة وغمده من العاج .

ولما قدّمه قال : « سلام عليك أيها الأب ! إن كان في كلامي شيء من الإساءة فلتذهبْ به الرياح ! ولتمنحك الآلهة العودة الى رؤية زوجك وأصدقائك ومسقط رأسك » !

فأجابه أوذيس : « وعليك السلام يا صديقي! لتمنحك الآلهة السعادة ، ولتيسّرْ لي الاحتفاظ بهذا السيف الـذي أهديته إليّ » !

ثم أحضر جميع الأمراء عطايـــاهم . وقال ألسينوس للملكة : « أحضري لنـــا أيتها السيدة صندوقاً . وليكن أحسن ما لديك ، وضعي فيه ثوباً ومعطفاً . وسأعطي ضيفنا كأساً ذهبية جميلة من كؤوسي ، لكي يذكرني بها كـلّ أيام حياته حينما يُريق منها للآلهة » .

فأحضرت الملكة من غرفتها صندوقاً طريفاً ، ووضعت فيه عطايا الأمراء ، ووضعت فيه أيضاً بيدها ثوباً ومعطفاً ، وقالت :

— « إهتمّ الآن بالغطاء ، واعقد عليه عقدة لا يقدر

معها أحد على سرقتك في سفرك ، وأنت نائم في السفينة. فأحكم أوذيس تثبيت الغطاء في موضعه ، وعقد عليه عقدة ماكرة علمته إياها سيرسةُ الساحرة . ثم ذهب الى الحمام. وفيما هو راجع من الحمام ، لقي نوسيكا عند مدخل القاعة، فدهشت لرؤيته ، فقد كان جميلاً يروق الأنظار . وقالت له : « وداعاً أيها الغريب ، ولكن عندما تأتي بلدك أذكرني الحين بعد الحين فإنك مَدين لي بحياتك » .

فأجابها أوذيس : « إيه يا نوسيكا ! إذا قدر لي زفس وهيرا أن أرجع سالماً إلى وطني ، فإني سأكرّمك ما دمت حياً كما أكرّم إلهةً ، لأني مَدين لك حقاً بحياتي » .

ثم دخل القاعة ، وجلس الى جانب الملك ، وجاء الوصيف يقود المنشد الضرير من يده . وقطع أوذيس قطعة وافرة من ظهر خنزير وُضع أمامه ، وقال للوصيف : « خذ هذه وأعطها ذومودوك ، فإن المنشد لخليق بإكرام الناس؛ لأن إلهة الفن هي التي توحي إليه وتوليه الحب » . فحمل الوصيف الصّحفةَ، ووضعها على ركبتي المنشد فأثلج فؤاده .

ولما أخذ الجمع كفايته من الطعام والشراب ، خاطب أوذيس المنشد فقال : « لا أعلم يا ذومودوك ألإلهة الفنّ هي التي توحي إليك ما تنشده أم أفلّون ، ولكنك ، وايمُ

الحقَّ تُشيد بما عانـــاه الإغريق أمام طروادة العظيمة ، وما لاقَوْه من الأهوال ، كما لو شهدتَ ذلك بنفسك . فهلمَّ الآن وغنّنا بذكر الحصان الخشبي الذي صنعه إفيوس بايعاز من أثينا ودبّر أوذيس أمر إصعاده إلى قلعة طروادة، بعـــد أن ملأه بأشجع الزعماء . أجدْ غناء هذا ، فأشهدَ لك بأنك المنشدُ الذي لقّنته الأرباب » .

وغنى المنشدُ هذه الأغنية بإيحاء من الآلهة ، فذكر كيف أن قسماً من الإغريق أشعلوا النار في مخيّمهم ، وأبحروا في سفنهم بعيداً ، وكيف أن القسم الآخر ، أي أوذيس وصحبه اختبأوا في الحصان ، الذي جرّه رجال طروادة بأيديهم إلى مكان اجتماعهم . ثم جلس القوم من حوله ، وعرضوا ثلاثة آراء . أولها أن تُشقّق أخشابه ، وثانيها أن يُجرَّ الى شفا الجبل ويُقذف من هناك ، وثالثها أن يُترك كما هو تقدمةً للآلهة . وقد تغلّب الرأي الثالث ، إذ كان مقدوراً للمدينة أن تهلك بالحصان .

وغنى المنشد أيضاً ذاكراً كيف خرج الزعماء من الحصان، وجاسوا خلال المدينة مُعمِلين فيها الدمار ، وذكر كيف أن أوذيس ذهب مع الملك مانيلا الى منزل ذيفوب ، في في مغامرة جريئة خطرة ، وتغلّبا بمساعـــدة أثينا . غنّى المنشد بهذا ، فذاب قلب أوذيس في صدره وهو يصغي ،

وسالت العبرات على خدّيه . وكامرأة ترتمي عـلى جثة زوجٍ عزيز ، سقط مدافعاً عـن وطنه ، وهو يجهَد في التنفس مشرفاً على النهاية ، فتصرخ وتُعوِل ، ثم يأتيها الأعداء من خلفها ، فيضربون ظهرها وكتفيها برماحهم ، ويقودونها إلى السَّبي ، وقد برَّح الدمع بخديها . هكـذا كانت الدموع تهمي من عيني أوذيس .

ولم ينتبه أحد من الجماعة غير الملك ألسينوس الى ما كان مـن شدّة وقع الغناء عليه ، عندئذ تكلم الملك فقال : « اسمعوا يا أمراء الفيسيانيين ودعوا ذومودوكَ يكفُّ عن غنائه ؛ فمُذ وضع يده على القيثارة لم ينقطع هذا الغريب عن النحيب ليكفَّ المنشد إذاً ، ولنمرحْ ونبتهج كما يليق بنا أن نفعل . ألم نجتمع معاً لنقدّم الهدايا لهذا الغريب ، ونرسله إلى بلده ؟ وإن الغريب والمستجير كليهما لبمنزلة الأخ لكلٍّ من لم يُصَب بالجنون . وأنت أيها الغريب لا تُخفِ عنا شيئاً مما أسألك عنه . فأخبرنا بأي اسم تدعى في بلدك ؛ فليس من إنسان سواء أكان نبيلاً أم وضيعاً إلا وله اسم يُسمى بـه ، وهو الذي يُطلقه عليه أبواه ساعة مولِده . وأخبرنا عن أرضك وبلدك ، كي تتخذ سفننا الطريق اليها لإيصالك ؛ لأنها ليست كسفن سائر الناس التي لها دفّة ، ومن يقوم على إدارة هذه الدفة ، بل ان لرجالها إدراكاً

خاصاً بهم ، وهم يعرفون بلاد الناس كلهـا ، ويجوزون فوق الغَمْـر يغشاهم الغمام ، ولا يخشون على سفنهم الغرق. غير أن والدي كثيراً ما كان يقول إنّ فوسيذون يحمـل لنا حقداً ؛ لأننا نوصل الناس سالمين الى بلادهم . وانّه لا بدّ أن يضرب إحدى سفننا وهي عائدة من مثل هـذه المهمة ، فيحولها الى صخرة تُظلّل مدينتنا أبداً . فلْيكن أمر الإلَه ، أو فلْيُقلع عنه حسبما يشاء ! ولكن أخبرنـا أيها الغريب عن نفسك ، وقل الى أين أدى بك التطواف، وأي البلاد رأيت ، سواء أكانت بـلاداً آهلة بالأشرار ، أم كانت بلاداً آهلة بمن يكرمون الغريب ويتّقون الآلهة . وأخبرنا أيضاً لماذا كنت تنتحب لدى سماعك حكاية طروادة. هل كان لك بين الهالكين في طروادة قريب ، أو نسيب مصاهرة ، أو صديق ؟ فإنّ الصديق الحكيم كالأخ سواء بسواء » .

١٠

السيكلوب[١]

(قصة أوذيس)

فأجاب أوذيس الملك قائلاً : « بأي الأخبار ابتدىء وبأيها أنتهي ؟ فإن الآلهة حمّلتني كثيراً من الآلام . وسأبدأ بإعلامكم اسمي لكي تعرفوه ، ولكي تنشأ بيننا صداقة تدوم حتى بعد أن أكون عنكم بعيداً . أنا أوذيس بن ليَرْت. وأسكن إيثاكة ، وعلى مقربة منها جُزر كثيرة ، ولكن إيثاكة تبعد نحو الغرب ، في حين أن الجزر الباقية تواجه مطلع الشمس . وإيثاكه هذه جزيرة وعْرة جداً ، ولكنها أمّ رجال أبطال ، وليس والحق يقال ، أعزّ على الإنسان

---

١ هم في الأساطير الاغريقية قوم من العمالقة ، لهم عين واحـدة ويصنعون الصواعق لزفس .

من وطنه . وقد أرادتني كاليبسو الإلهَة الجميلة على أن اقيم معها ، وأن أكون لها زوجاً . ومثل هذا أرادتني عليه سيرسة ذات المكايد الكثيرة . ولكن لم يُقدَّر لها النجاح. إذ ليس من شيء أحبّ إلى الإنسان من وطنه وأهله . وسأسرد عليك الآن خبر المشاق التي رمتني بها الآلهة في عودتي من طروادة .

« إنّ الريح التي حملتني من طروادة أوصلتني إلى إيسماروس ، إحدى مدن السيكونيين . فدككْتُ هذه المدينة وفتكت بسكانها . وقد غنمنا الكثير من الأسلاب فقسمناها بيننا ، فنال كل رجل منا نصيبه . ولما أتممنا ذلك ، أمرت رجالي بالرحيل بمنتهى السرعة ، ولكنّ طيشهم زيّن لهم ألا يستمعوا إلى نصحي . فقد كان هنالك كثير من الخمر للشرب ، وكثير من الغنم والأبقار للذبح فجلسوا على الشاطىء يعيّدون . وكان أهل الجزيرة عند ذاك يستنفرون أقاربهم من ساكني الجبال . وكان هؤلاء أكثر منهم عدداً ، وأشدّ بأساً ، وقد مَهَروا كل أساليب القتال . فألّبوا جموعهم في الصباح الباكر وتكاثفوا تكاثف ورق النبت والزهر في الربيع ، واصطفوا للقتال . فقاتلناهم وتغلبنا عليهم ورددناهم ما سطع ضوء النهار ، مع أنهم الأكثرون عدداً . ولكن لما بدأت الشمس تنحدر في

السماوات ، تغلبَ السيكونيون علينا ، وطاردونا الى سفننا. وهلك منا من أهل كل سفينة ستة رجال ، ونجا الباقون من الموت .

« ثم أبحرنا وقد برَّح بنا الحزن لفقد رفاقنا الأعزاء ، وفرحنا مع ذلك لنجاتنا من الهلاك . على أننا قبل أن نُبحر ، نادينا كلَّ رجل من الذين سقطوا في المعركة باسمه ثلاثاً .

« ولما أبحرنا وقطعنا مسافة قصيرة ، أرسل علينا زفس ريحـاً شمالية ، عاصفةً جبارة ، غطّت بالسحب الأرض والبحر ، ودفعت السفن أمامها . فأنزلنا الشُرُع ، وجذفنا بالسفن نحو البرِّ بكل قوانـا . وبقينا يومين نلاقي الهول والأسى . ولم يُشرف صباح اليوم الثالث حتى نشرنا الشرُع وسكنّا إلى الراحة . ولو واتانا الحظ لوَصَلتُ الى وطني. ولكنّ البحر والريح الشمالية حادا بي عن سبيلي ، ودفعاني الى ما بعد سَيْثْرا ، وظلت الريح تدفعنا أمامها تسعة أيام.

« وفي اليوم العاشر أقبلنا على الأرض التي تُنبت (النَّبق) اللوتيس ، وهو ثمر عجيب يصرف آكله عن الاهتمام برؤية وطنه وزوجته وأولاده . وكان أكلة اللوتيس — وهو الاسم الذي يطلقونه على أنفسهم — كرام الخُلق ، وقد قدَّموا إلى بعض بحارتنا شيئاً من ثمرهم هذا ، وهم لا يريدون بهم شراً ، بل ظنوا أنهم إنما يقدّمون اليهم خير ما لديهم.

ولما أكل هؤلاء أعلنوا أنهم لا يرغبون في ركوب البحر ثانية . فلما سمعت هذا ، أمرت رفاقهم فأوثقوهم وحملوهم إلى السفن ، وهم يتظلّمون .

« وسكنت الريح عندئذ ، فعمدنا إلى مجاذيفنا وجذّفنا أياماً كثيرة ، أقبلنا بعدها على الأرض التي يسكنها السيكلوب . وكان على مسافة ميل من الشاطىء أو نحوه جزيرة رائعة المنظر ، وافرة الخصب ، وليس هنالك من أحد يسكنها أو يحرث أرضها . وكان في الجزيرة ميناء ، تأمن فيه السفن اختلاف الرياح . وعند رأس الميناء جدول يتدفق من الصخر ، ويهمس شجر الحور حوله ، فدخلته السفن آمنة ، ورست عند الشاطىء ، ونام النواتيّ بها ينتظرون الصباح .

« ولما بزغ الفجر جُسنا خلال الجزيرة ، وأثارت حورياتها المَعْز البريّ لكي يكون منه لصحبي طعاماً يأكلونه . فأخذنا أقواسنا ورماحنا من المراكب ، وسدّدناها الى المَعْز ، ومنحتنا الآلهة صيداً وافراً . وقد كان في صحبتي اثنتا عشرة سفينة ، فأصاب كل سفينة تسع عنزات ، وكان نصيبي الخاص منها عشراً .

ومكثنا طول النهار في عيد ، نحتسي نبيذاً حلواً ، أخذناه من مدينة السيكونيين ، ونأكل من لحم المَعَز

وكنا ونحن جالسون ننظر من هناك إلى أرض السيكلوب ، فنرى الدخان ، ونسمع أصوات الرجال وثُغاء الغنم والمعز، حتى أقبل الليل ، وخيّم على الأرض الظلام ، فاستلقينا عند الشاطىء واستسلمنا الى النوم .

« وعند الصباح جمعت رجالي وخاطبتهم قائلاً : أقيموا هنـا يا أصدقائي الأعزاء ، أما أنا فإني ذاهب بسفينتي الخاصّة ، مع خواص صحبي نستجلي لكم خـبر السكان في تلك الجزيرة ، فنعلم أمِنَ الأشرار هم أم من الأخيار.

« وصعدت الى سفينتي ، وأهبْتُ برفاقي أن يتبعوني، فأتينا أرض السيكلوب . وكـان بقرب الشاطىء كهف ، قامت على جانبي بابه أشجار الغار . وقد اتخذه السيكلوب مسكناً . وهـو مخلوق يعيش منفرداً ولا يخضع لقانون ، ولا يشبه البشر الفانين ، بـل يشبه قِمَّة هضبة ملتفّة الأشجار ، نتأت بمعزلٍ عن سائر الهضاب .

« فطلبت من صحبي أن يمكثوا عند السفينة لحراستها، وانتخبت من بينهم اثني عشر رجلاً ، هم أبسل البحارة، وتقدمت بهم . وكان معي قِربة من جلد المعز ملأى من نبيذ حلو أحمر قانٍ ، أعطانيه كاهن أفلّون في إسماروس ؛ لأننا صُنّاه مع زوجه وولده من السوء حينما دككنا المدينة. وقد أعطانيه لأننا فعلنا ما فعلنا معه إكراماً للإلّه . وقد

أعطاني من العطايا ثلاثاً : سبع وزنات من الذهب، وكأساً فضيةً للمزج ، واثنتي عشرة جرّةً من النبيذ . وقد كان هذا النبيذ من الفخارة بحيث لم يكن يعلم به من أهل داره سواه ، وسوى زوجه ، وامرأة كانت قيّمة المنزل . وكانوا عندما يشربون من هذا النبيذ يمزجون جزءاً منه بعشرين جزءاً من الماء . وكانت تفوح منه رائحة عطرية غريبة ، بحيث لا يستطيع أحدٌ أن يملك نفسه في سهولة عن شربه. من هذا النبيذ ملأتُ قربة كبيرة وحملتها معي ، وحملت كذلك كيساً من القمح حدثني فؤادي أنني سأحتاج اليه .

« ودخلنا الكهف ، فقدّرنا أنه مسكن راعٍ غنيّ حاذق . فقد كانت هناك حظائر لصغار الغنم والمعز ، مقسمة بحسب أعمارها . وكان هناك سلال ملأى بالجبن ، ودلاء طافحة باللبن صُفّت حذاء الحائط أما السيكلوب نفسه فكان قد خرج إلى المراعي . وقد رغب إليّ صحبي أن أبرح المكان وأحمل معي منه ، إذا شئت ، شيئاً من الجبن وأنواعاً من الحملان والجديان فأبيت لأنني أردت ، جرياً على عادتي ، أن أستطلع خبر هذا الراعي الغريب ، وأعرف أي مضيف يكون ، وهل في الإمكان أن تؤخذ من يده هدية كما يحق للغرباء . بيد أن مجيئه لم يكن مجلبة سرور لرفاقي .

« ولما حلّ المساء قدم السيكلوب ، وكان عملاقاً جباراً ، ضخم الجثة مديدها . ففزعنا جميعاً لرؤيته غاية الفزع ، ولجأنا إلى الجانب الخفي من الكهف .

وكان يحمل على كتفه حزمة ضخمة من جذوع الصنوبر ليوقد ناره ، فطرحها خارج الكهف فسمعت لها هدّة عظيمة ، ثم ساق القطعان أمامه الى الداخل ، وسدّ المدخل بصخرة هائلة تعجز عن حملها عشرون عجلة . ثم حلب النّعاج والعنزات .

وأعدّ من اللبن شطراً للتّخثير وعمل الجبن ، وشطراً لعشائه . ثم أشعل من جذوع الصنوبر ناراً أضاء لهيبها أرجاء الكهف ، وكشف له عني وعن رفاقي . فصاح فوليفيم ، وكان هذا اسم العملاق :

— « من أنتم ؟ أتجار أنتم أم قرصان أفّاقون ؟

« فارتعدت فريصتي للصوت المريع والهيئة المخيفة ، ولكنني تمالكت نفسي وتشجعت وأجبت : لسنا بقرصان أيها السيد الجبار ، ولكننا من الإغريق العائدين من طروادة ونحن من رعايا الملك العظيم أغاممنون ، الذي ذاعت شهرته من أقصى السماء إلى أقصاها . وقد أتيناك مستضيفين باسم زفس ، وهو الذي يجازي أو يعاقب الضيف والمضيف ،

وفقاً لوفاء أحدهما للآخر أو عدمه . فأجابني العملاق : ليس حديثك لي عن زفس وسائر الآلهة إلا من قبيل السخف والهــراء . ونحن السيكلوبيين لا نقيم للآلهة وزناً ، ونعدُّ أنفسنا أعــلى منهم مقاماً وأشدّ بأساً . ولكن تعالَ الآن وأخبرني أين تركتم سفينتكم ؟

« فأدركت مراده حينما سأل عن السفينة ، وعلمت أنه إنمـــا يبغي تحطيمها والقضاء على كل أمل فينا للنجاة ، ولهذا أجبته في مكرٍ :

— « إننا لا نملك سفينة ، فقد حطم الملك فوسيذون تلك التي حملتنا ، بأن دفعها إلى صخر ناتىء على هــذا الشاطىء . ونحن الذين ترى أمامك كل الناجين من الأمواج.

« فلم يجب فوليفيم بكلمة . ولكنه ، دون المزيد من الانزعاج ، قبض على اثنين من الرجال كما يقبض الانسان عــلى جَروين من الكلاب وضرب بهما الأرض ، فمزقهما عُضواً عُضواً ، والتهمهما التهاماً . وكان بين العضو والآخر يجرع جرعــات كبيرة من اللبن ، ولم يُبقِ منهما شيئاً ، حتّى أتى على العظام جميعاً .

ورأى الباقون منا هذا العمل ، الفظيع فلم يقدروا إلاّ على البكاء والتماس العون من زفس . ولما ملأ الجبار كرشه

من اللحم الآدمي ومن لبن القطعان ، تمدّد بين غنمه ونام.

فترددت عند ذلك الأسئلة في صدري ، وجعلت أُسائل نفسي هل أقوم فأقتل هذا المخلوق المخيف وهو نائم ، فقد كنت على ثقة من جودة سيفي وقدرته على النفاذ الى قلب هذا العملاق ، مهما كان مبلغ جبروته . ولكن فكرة ثانية صدتني عن ذلك ، فذكرت أنني لو قتلته لهلكت ورفاقي شرّ هلاك . فمن ذا يقدر أن يزحزح هذا الصخر العظيم القائم عند باب الكهف ؟ وهكذا انتظرنا الى الصباح بقلوب جَزِعة . واستيقظ الهُولةُ وحلب قطعانه ، ثم أمسك برجلين فالتهمهما طعام وجبةٍ . وذهب الى المراعي . ولكنه وضع الصخر العظيم عند فم الغار ، كما يضع الرجل لآنيته غطاءها .

« وقد قضيت ذلك النهار وأنا أفكر في خير السُّبُل لإنقاذي وإنقاذ رفاقي ، فأدى بي تفكيري الى هذا :

« كان في الكهف عمود عظيم ، جذعُ زيتونة أخضرُ ، كأنه لطوله سارية سفينة ، وأقد أراد فوليفيم أن يجعل منه عُكازاً بعد أن يجففه الدخان . فقطعت منه قدر باع ، فبراه رفاقي وجعلوه في النار ليصلب ويشتدّ ، ثم أخفيناه عن الأنظار . ورجع العملاق في المساء ، وساق قطيعهُ أمامه الى داخل الكهف ، ولم يترك الكباش خارجاً ، كما

اعتاد أن يفعل ، بل أدخلها جميعاً . وبعد أن قام بما يجب على الراعي من العمل ، أخذ اثنين من رفاقي ، كما فعل سابقاً ، والتهمها .

« وحينما فرغ من عشائه ، تقدّمت نحوه ، أحمل زِق الخمر في يدي ، وقلت :

— « اشرب أيها السيكلوب بعد طعامك ، اشرب وانظر أيّ نفائس كانت تحوي سفينتنا . ولكن لن يأتيك أحد بعد الآن بمثل هذا ، ما دمت تعامل الغرباء بهذه القسوة التي عاملتنا بها .

« فشرب السيكلوب ، وبلغت منه اللذة أن قال أعطني المزيد لأشرب ، وقل لي ما اسمك أيها الغريب ، وسأعطيك هدية تليق بالمضيف أن يُهديها . حقاً انه لشراب نادر . لدينا نحن أيضاً كرمة ، ولكنها لا تُعصَر نبيذاً كهذا النبيذ الذي ما أحسبه إلا شبيهاً بذاك الذي تشربه الآلهة في السماوات .

« ثم ناولته الكأس مرّة أخرى فشرب ، وكرّرت ذلك ثلاثاً فكرّر الشرب ثلاثاً ، وهو لا يعلم ماهيّته ، ولا يدري ما يكون من تأثيره في دماغه .

« وخاطبته قائلاً : قد سألتني عن اسمي يا سيكلوب

فاعلم أنني أُدعى (لا أحد) . والآن وقد علمت اسمي ، فقد حقّت لي عليك الهدية .

« فأجاب : أما هديتي لك فهي أنني لن آكلك إلا بعد أن آتي على رفاقك جميعاً . وفيما هو يتكلم استلقى على قفاه ونام نوم السكارى . فأهبت برفاقي أن يتشجعوا إذ قد حان وقت خلاصهم . فألقوا بعود الزيتون الى النار حتى كاد ، على اخضراره ، أن يشتعل ، ثم زجّوا به في عين الوحش ، إذ لم تكن له غير عين واحدة في وسط جبينه ، والحاجب من أسفلها . ووقفت أنا فوقه وملت على العود بكل قواي ، وجعلت أديره كما يدير الرجل مثقباً في خشبة سفينة ، وقد نشّ العود المشتعل في عينه ، كما ينش الحديد إذا أُحمي واحمرّ في الماء ، إذا ما أراد أحدهم أن يسقي الفولاذ ليصنع منه سيفاً . فوثب العملاق من مرقده وحطّم العود وصرخ صراخاً عالياً سمعه السيكلوبيون القاطنون في أكناف الجبل ، فدنوا من الكهف يستطلعون الخبر وسألوه :

— « ماذا أصابك يا فوليفيم ، حتى أطلقتَ هذه الزمجرة في هدأة الليل ، فأيقظت النيام ؟ هل سطا عليك أحد قاصداً أن يسرق ماشيتك ، أو أن يقتلك بالخديعة أو بالقوة؟

« فأجاب العملاق : (لا أحد) يقتلني بالخديعة .

« فقالوا : ولكننا لا نقدر على معونتك إذا كان لا أحد يؤذيك . ومن ذا يقدر على دفع مرض ، إذا ما ابتلاه به زفس العظيم ؟ فابتهل إذاً إلى أبينا فوسيذون واطلب منه العون .

« قالوا هذا فضحكت في سرّي لتمكّني من خداعهم بهذا الاسم الذي ادّعيته لنفسي .

« ولكن السيكلوب دحرج الحجر العظيم عن باب الكهف ، وجلس في الوسط باسطاً يديه ، ليقبض بهما على من قد تسوّل له نفسه من الرجال في داخل الكهف أن يخرج مندساً بين الغنم .

« وقد فكّرت طويلاً في أفضل ذريعة لنجاتي ونجاة رفاقي . فاهتديت أخيراً الى وسيلة رأيتها خير الوسائل . وحمدتُ زفس كثير الحمد لأن العملاق هذه المرة قد أدخل الكباش الى الكهف مع سائر الغنم . فقد كانت هذه الكباش من العِظَم والقوّة بحيث قدرتُ أن أشد أصحابي الى بطونها بعساليج من الخيزُران صنع منها العملاق سريره ، فكنت أعمد الى الكبش وأوثق الرجل تحته ، وأجعل كبشين آخرين على جانبيه . وهكذا فعلت باصحابي الستة ، إذ لم يبق من الاثني عشر رجلاً الذين خاطروا بالمجيء معي من السفينة سواهم . وكان بين الكباش كبش عظيم يفوقها

ضخامة إلى حدّ كبير ، فتعلّقت به وتشبّثت بصوفه بكلتا يديّ . وأقمنا جميعاً على هذه الحالة ننتظر الصباح . ولما أقبل الصباح اندفعت الكباش تطلب المرعى . ولكنّ العملاق قعد على باب الكهف وجعل يتحسس ظهورها وهي منطلقة ، ولم يخطر بباله أن يجرب ويجسّ ما قد يكمن تحتها . وجاء الكبش العظيم آخر القطيع فعرفـه السيكلوب عند مروره وخاطبه قائلاً :

– « كيف هذا وأنت قائد القطيع ؟ ليس من عادتك أن تتلكأ هكذا ، فقد اعتدت أن تبادر في الطليعة الى ورود الغدران وانتجـاع المراعي في الصباح ، وكنت الأول في العودة الى الحظيرة عند المساء ، وها أنا آراك آخر الجميع. فلعلك قلقتَ لما أصاب عين سيدك التي أتلفها شقيّ يدعى لا أحد ، بعد أن أسكرني بالخمرة . واعتقد انه لم يفلت مني فياليتك تقدر على الكلام لتنبئني بمكمنه . إذن لحطمتُ رأسه على الأرض وفجّرتُ دماغَه ، وانتقمت لنفسي من (لا أحد) هذا . قال هذا وأطلق الكبش فخرج مـن الكهف . ولما أصبحنا في منجاة من قبضة العملاق ، أفلتُ الكبش ثم حللت وثاق رفاقي وأسرعنا إلى سفينتا ، ولم ننسَ أن نسوق الغنم أمامنا ، وكنا نكثر من التلفت وراءنا إلى أن بلغنا الشاطىء . فلما رآنا أولئك الذين أقاموا عند السفينة

ينتظرون رجوعنا ، بلغ سرورهم غايته ، ولم يبكوا الذين ماتوا منا ، مع شدة رغبتنا جميعاً في ذلك . فقد حظّرت عليهم البكاء خيفة أن ينمّ العويل علينا ، فيستدلّ العملاق على مكان وجودنا . وصعدنا جميعاً إلى السفينة وجلسنا في نظام على المقاعد ، وجعلنا نضرب البحر بمجاذيفنا ، جادّين في تقويم السفينة لكي نبعد عن هذه الأرض المشؤومة في أسرع ما يمكننا . ولما جذّفنا الى مسافة مئة ياردة أو ما يقرب منها ، بحيث كان لا يزال في الإمكان أن يسمع صوتَ الواحد منا من هو واقف عند الشاطىء ، وقفت في السفينة وصحت عالياً :

— « أيها السيكلوب ، لم يكن جباناً ذاك الذي فتكت بصحبه في وِجارك خِسّةً وغدراً . وقد كان عقابك عادلاً ، أيها الوحش الذي تفترس ضيوفك في مسكنك . ولتُنزل بك الآلهة من المصائب ما هو شرٌ من هذا ! » .

« عندها عمد السيكلوب ، وقد اشتدّ به الغيظ ، الى قمة هضبة عظيمة ، وكانت صخرة هائلة ، فقصمها وقذف بها الى مصدر الصوت الذي سمعه ، فوقعت أمام مقدّم السفينة تماماً ، وأثارت وهي تغوص موجاً عالياً دفع بالسفينة القهقرى نحو الشاطىء . ولكنني أمسكتُ بكلتا يديّ عموداً

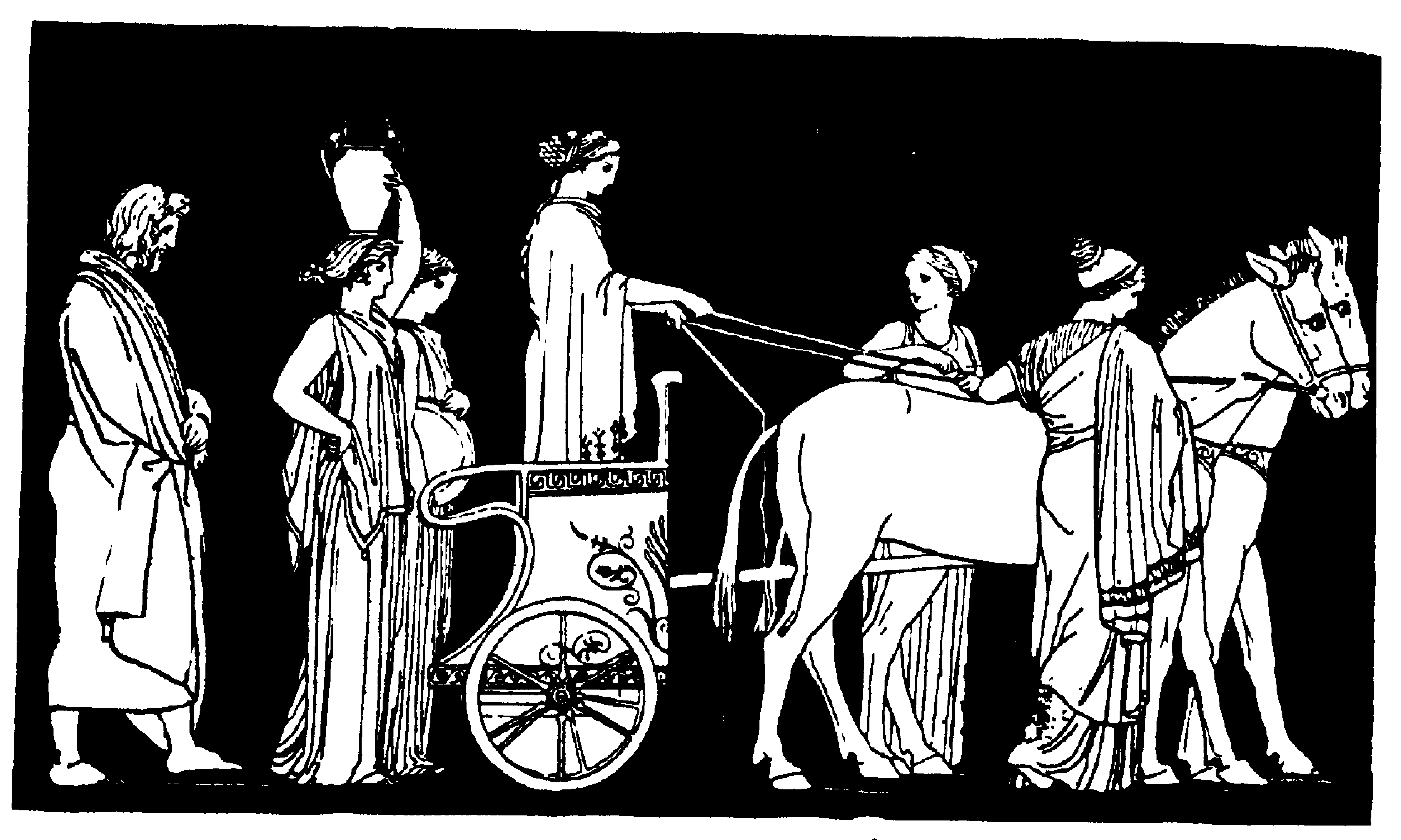
طويلاً وأبعدت السفينة عن الشاطىء ، وأشرت على رفاقي أن يُعْمِلوا مجاذيفهم ، وأنا أوميء برأسي ، ولم أشأ أن أتكلم خشية أن يعرف السيكلوب مكاننا . فجدّفوا بكل ما أوتوا من قوة وعزم .

« ولما بلغنا ضعفي المسافة التي قطعناها سابقاً ، هممت بالكلام ثانية ، ولكن رفاقي حالوا دون ذلك وقالوا :

— « لا تعد يا مولاي إلى إثارة غضب العملاق ، فقد ظننا حقاً أننا من الهالكين عندما قذفنا بالصخرة العظيمة وأرجع سفينتنا إلى الشاطىء . وإذا ما سمعك الآن فقد يسحق سفينتنا ويسحقنا ، لأن هذا الرجل يقذف بالصخور العظيمة بعيداً .

« ولكنني لم أقتنع بكلامهم ، بل وقفت وصحت : « إسمع أيها السيكلوب ! إذا ما سألك أحد : من سمل عينك ، فقل هو المحارب أوذيس بن ليرت المقيم في إيثاكة .

« فأجاب السيكلوب في أنة : حقاً لقد صدقت التكهنات القديمة ، فقد قدم هذه الأرضَ منذ زمن طويل نبيٌّ يدعى تلَمُوس ، وأقام بيننا حتى طعن في السن وقد تنبأ لي هذا الرجل بأن شخصاً يدعى أوذيس سيُفقدني بصري . وقد كنت أحسب أن هذا رجل قدير جبار ، يغلبني بالقوّة ،



أوليس يتبع عجلة نوسيكا



أوذيس ينتحب لسماعه غناء ذومودوك

وها أنّ هذا قد تم على يد رجل ضعيف ، بعد أن خدعني بالخمر . ولكن تعال إلى هنا يا أوذيس ، وسأكون لك نعم المضيف . أو على الأقل ، ليُتح لك فوسيذون سفراً الى وطنك كالذي أتمناه لك . واعلم أن فوسيذون أبي ، وقد يبرئني من جرحي الأليم .

« فقلت : أتمنى على الإلَه لو أستطيع أن أحدُرك الى مقرّ الأموات ، حيث لا يعود ينجع فيك دواء ، ولو كان آتياً من فوسيذون نفسه .

« عندها رفع السيكلوب يديه الى فوسيذون ، وابتهل اليه قائلاً : استمع إليّ يا فوسيذون إذا ما كنتُ ولدك حقاً وكنتَ أنت والدي . لا تُبلّغ أوذيس هذا بلده ! وإذا سبق حكم الأقدار بأن يبلغ موطنه ، فليأته وحيداً ، بعد أن يفقد صحبه جميعاً ، ليأت وير الفوضى الشديدة سائدة في منزله .

« وفيما هو ينهي كلامه قذفنا بصخرة عظيمة أخرى ، فسقطت عند طرف الدفّة ، ولم تخطئها إلا بمقدار شعرة وكان الموج الذي أثارته عظيماً جداً حتى أنه حملنا إلى الشاطىء الآخر .

« وهكذا بلغنا جزيرة المَعَز البرّي ، ولقينا رفاقنا

الذين كانوا ينتظروننا وهم في أشد الخوف علينا من الهلاك. فوزّعت بين رفاقي ما غنمناه من غنم السيكلوب . وقد أجمعوا على أن تكون حصّتي ذلك الكبش العظيم الذي حملني الى خارج الكهف ، فقدمته لزفس ضحية .

« وأقمنا ذلك النهار عيداً ، وقضيناه في المرح نأكل من لحوم الغنم ونشرب النبيذ ، ولما أقبل الليل اضطجعنا على الشاطىء واستسلمنا الى النوم ».

١١

ايلوس ، الليستريغون ، سيرسة

(قصة أوذيس)

« وأبحرنا في الصباح التالي ، فبلغنا بعد فترة من الزمن الجزيرة التي يقطنها إيلوس . وهي جزيرة عائمة يحيط بها سور منيع من البرونز ، ويذهب جرفها صُعُداً من البحر. وكان لإيلوس هذا اثنا عشر ولداً ، ستة أبناء وست بنات، يقيمون معه ويشاركونه في الأعياد والأفراح مع والديهم يوماً فيوماً . وقد احتفى بي الملك شهراً كاملاً احتفاء الصديق بالصديق . وحدّثته على التوالي بكل ما قمنا به في طروادة .

« ثم حدثته بأخبار سفرتي ، وطلبت معونته . فلم يأبها عليّ، بل أعطاني قربة من جلد ثور بلغ التاسعة من العمر،

حبس فيها كل الرياح المعاكسة لي ، فقد أقامه زفس حارساً على الرياح ، يثيرها أو يمسكها كما يشاء ، وقد ربط هذه القربة التي صُنعت من جلد ثور إلى ظهر السفينة ، ربطاً محكماً بسلك من الفضّة حتى لا تفلت منها ريح ، ولكنه أطلق ريحاً غربية لطيفة لتحملني مع رفاقي الى الوطن . وظلت هذه الريح تهبُّ تسعة أيام حتى قربنا من وطننا إيثاكة ، وصرنا نرى الرجال القائمين على خدمة المنائر ، إذ كنا حينذاك قد أشرفنا على فجر اليوم العاشر .

« عندئذ خانني الحظّ العاثر فجعلني أستسلم الى النوم ، بعد أن نهكني التعب ، إذ بقيت ممسكاً بالدفّة تسعة أيام ، لا أئتمن عليها من أصدقائي أحداً . وفيما أنا نائم ، قال رفاقي أحدهم للآخر ، وكانوا قد نظروا إلى القربة العظيمة نظر الحسد :

« انه لعجيب حقاً أن يلقى أوذيس هذا ، ما يلقاه من الحب والإكرام أينما حلّ . وها هو يرجع الآن من طروادة بالأسلاب الكثيرة ، في حين نرجع نحن بأيدٍ خاوية. ولنرَ الآن ماذا أعطاه إيلوس ، إذ لا شكّ في أنّ قربة الجلد هذه تحوي الكثير من الفضة والذهب .

« وهكذا حلّوا القربة الكبيرة ، وعندها يا لهَول ما وقع ! فإن الرياح جميعاً اندفعت من القربة وحملتنا بعيداً

عن وطننا . أما أنا فقد أيقظتني الجلَبة وهممت، أول وهلة، أن ألقي بنفسي إلى البحر وأهلك . ولكنني تجلّـــدت ، ورأيت العيشَ أجدر بي . ولم أعْدُ أن غطيت وجهي ، وأخلدت الى الهدوء ، في حين كانت الرياح تدفع سفننا أمامها ، حتى أرجعتنا الى جزيرة إيلوس . فأرسينا هناك وأحضرنا شيئاً من الماء ، وأكلنا طعامنا قرب السفن . ولما فرغنا من الطعام أخذت أحد السعاة وأحد رفاقي ، وقصدنا الى قصر الملك ، فألفيناه في عيد هو وامرأتـه وأولاده ، وجلست عـــلى العتبة . فأخذهم العجب لرؤيتي وقالوا :
« أي قوّة شريرة أعاقتك عن بلوغ وطنك وبيتك ؟ »

« فأجبت : لا توجـّهوا لومكم إليّ ، ولكنها مؤامرة السوء التي دبـّرها رفاقي ، وهذا النوم الذي غلبني لتعسي . فأرجوكم أن تعينوني مرة ثانية .

ولكن الملك أجاب : « اذهب فلا يمكننا مساعدة من تمقته الآلهة ، وإنك ولا ريب ، بغيض إليها » .

« وهكذا طردني إيلوس ، فعدنا إلى سفننا وسرنا في في البحر نجذّف في سأم ، وملء قلوبنا الأسى .

« وبقينا نجذف ستة أيام ، لا نسكن فيها الى الراحة ليلاً ، حتى بلغنا في اليوم السابع لاموس . وهي إحـــدى مدن الليستريغونيين ، الذين يتساوى في أرضهم الليل والنهار،

بحيث يستطيع الرجل منهم أن يربح أجراً مضاعفاً إذا كان لا يرغب في النوم. فيكون راعياً في النهار وحارساً للقطيع في الليل. وكان لهذه الجزيرة ميناء جميل، تحيط به الأجراف الشامخة، وله تُرعة ضيقة تقوم على جانبيها الصخور العظيمة. وليس في داخله موج، بل سكون دائم.

« فأسرعت بسفينتي الى الصخور التي كانت خارجاً، وأما السفن الباقية فقد دخلت الميناء. ثم أرسلت رجلين ومعهما أحد السعاة فسلكوا طريقاً معبّداً، تنقل عليه العجلات الحطب من الجبل الى المدينة. وهناك لاقوا فتاةً عصلبية، هي ابنة أنتيفات ملك البلاد، وسألوها من يكون سيد تلك الأرض. فدلتهم على قصر أبيها السامق. وعند دخولهم القصر، رأوا أم الفتاة، وكانت ضخمة كالجبل، قبيحة المنظر، فدعت زوجها أنتيفات في الحال. وعندها فرَّ الرسل هاربين الى السفن، ولكنه أرسل صوتاً مجلجلاً. فتألّب الليستريغونيون حوله، ولم يكونوا بشراً بل عمالقة جبارين. وأخذ هؤلاء يقتلعون من الأجراف حجارة كبيرة، كل منها بقدر ما في طاقة الانسان حمله، ويقذفون بها السفن حتى تحطّمت. وأما الرجال فقد طعنوهم بالرماح كأنهم أسماك والتهموهم. وقد حلَّ مثل هذا بجميع السفن التي في داخل الميناء. ولم ينجُ أحد سواي، فقد قطعت

حبل السفينة بسيفي وأهبت برجالي أن يكدحوا على مجاذيفهم ، فلبوا طلبي طائعين مختارين .

« وأقبلنا بعد حين على جزيرة إيّا ، حيث تقيم سيرسة ابنة الشمس . فقضينا يومين وليلتين على شاطىء الجزيرة ، وقد تملكنا الذعر والأسى . وفي اليوم الثالث أخذت رمحي وسيفي ، وتسلقت هضبة كـانت هناك ، لأني أردت أن أرى مـــا هذه الأرض التي أتينا . ولما بلغت القمة رأيت الدخان يتصاعد من قصر سيرسة القائم في وسط غاب هناك. وعندها فكّرت قليلاً ، وسألت نفسي : هل أتوجّه توّاً الى القصر أم أرجع الى رفـــاقي عند الشاطىء . فبدا لي أن الوجه الأصوب أن أذهب إلى السفينة ، وأوعز الى رفاقي أن يُهيّئوا طعام الغَداء ، ثم أرسلهم بعد ذلك ليستنفضوا المكـان . ولكن يظهر أن أحد الآلهة أخذته الرأفة بـي ، فأرسل وعلاً كبيراً ذا قرنين عظيمين ، فأعرَضَ لي في طريقي . وكان الوعل منحدراً الى النهر ليرد الماء ، لأن الشمس كانت وقتئذ شديدة الحر ، فرميته برمحي فنَفَذَهُ ، فربطت رجليه معاً بنبات اللّبلاب الأخضر ، وبحبلٍ بقدر الباع ، ثم ألقيت بالوحش حول عنقي وحملته الى السفينة متّكئاً على رمحي ، فقد كـــان ، وأيم الحق ، ثقيلاً ، ولم يكن في قدرتي أن أحمله عـــلى كتفي بيد واحدة .

ولما بلغت السفينة ألقيت بحملي الى الأرض . وكان رجالي حينئذ جالسين ، وقد ستروا وجوههم حزناً وكمداً . ولكن ، لما طلبت إليهم أن يبتهجوا ، رفعوا رؤوسهم وعجبوا لرؤية الوعل العظيم . وأقمنا ذلك النهار نَطعَم لحم الوعل ونشرب حلو النبيذ ، ولما جنّ الليل ، رقدنا عند الشاطىء . ثم لاح الصباح ، فجمعت رفاقي وقلت: لا أعلم أيها الرفاق أين نحن ، ولكني أيقنت ، بعد أن رأيت أمس من الهضبة دخاناً ، أن هذه الجزيرة مأهولة .

« فاضطرب رجالي لدى سماعهم هذا ، وتذكروا السيكلوب والليستّريغون ، فرفعوا أصواتهم بالعويل ولم يُرزقوا من أمرهم رشداً . عندئذ قسمتهم الى فرقتين ، وجعلت أوريلوخ قائداً لإحداهما ، وتولّيت أنا نفسي قيادة الأخرى . وجعلت سهمَين في خوذة ، وأجلتها لنعلم على من تقع القرعة ، حتى يذهب ويستنفض الجزيرة ، فخرج سهم أوريلوخ . فاصطحب اثنين وعشرين رجلاً ورحل . فألفَوا قصر سيرسة في منفرَج وسط الغاب ، تحوط به الذئاب والأسود . ولم تكن هذه تؤذي الناس بل كانت تُقعي ، وتُبصبص لهم كما تبصبص الكلاب لسيدها ، إذا ما كان قادماً من تناول طعامه ، حاملاً إليها ما تحبّه من البقايا . ولكن الرجال فزعوا لرؤيتها ، فوقفوا عند

سدّة البـاب ، وسمعوا سيرسة تغني بصوت رخيم ، وهي مقبلة على نولها . فقال فوليت الذي كان أعز الرفاق عندي، والذي كنت أوثره بثقتي : « لا شك في أن أحــداً في الداخل يكدح على نول عظيم ويغني عالياً . وقــد يكون المغني إحدى الإلهات أو إحدى النساء ، فلنعجـِّل في النداء . »

« وهكذا نادوها ، فخرجت ، وأومأت اليهــم أن يتبعوها ، فذهبوا اليها يحدوهم الطيش . وطلبت إليهم أن يجلسوا ، ومزجت لهم خليطاً من النبيذ الأحمر ، فيه مـن دقيق الشعير والجبن والعسل . وزادت عليه عقاقير قوية ، إذا شرب منها الإنسان نسي كلّ مـا يحب . ولما شربوا ضربتهم بعصاها السحرية فمُسخوا حــالاً ، ويا للهول ! خنازير لهــم رؤوسها وأصواتها وشعورها الشائكة . ولكن بقيت لهم قلوب البشر في صدورهم ، وجعلتهم سيرسة في زرائب ، وأطعمتهم من ثمر الدِّفل والبلوط والشوح .

« وأمّا اوريلوخ فقد هرب راجعاً إلى السفينة ، يحمل نبأ ما حلّ برفاقه . وبقي مدة لا يقدر على النطق لشدة ما امتلأ به قلبه من الغمّ ، ولكثرة ما امتلأت بـه عيناه من الدموع . وأخيراً بعد أن ألححنا عليه في الأسئلة الكثيرة سرد علينا قصته فقال :

« ذهبنا نجوس خلال الغاب مذعنين لما أمرتنا ، وهناك

في وسط مُنفرَجٍ ، رأينا منزلاً في غاية الجمال بُني بالحجارة الصقيلة . وفي داخله امرأة تنسج على منوال كبير ، وتغني بصوت رخيم . ولم ندرِ ألِهَة هي أم امرأة . فناداها رفاقي ، فخرجت إليهم وفتحت الأبواب وسألتهم أن يدخلوا. فدخلوا جميعاً ، وبقيت أنا وحدي في الخارج لأني خشيت أن يكون في الأمر خدعة . وقد طال انتظاري ولم يعد منهم أحد .

« فلما سمعت ذلك ألقيت سيفي المرصع بمسامير من الفضة على كتفي ، وأخذت قوسي وطلبت من رفيقي أن يقودني في الطريق التي سلكها . ولكنه أمسك بكلتا يديّ ، ورجاني قائلاً : لا تأخذنّي الى هناك مرغماً ، فإني موقن أنك لن تعود ولن تُرجع من رفاقك أحداً . والأحرى بنا ، نحن الباقِيَيْن ، أن نسرع في الهرب ، وننجو من الموت . فأجبته : ابقَ عند السفن تأكل وتشرب إذا شئت ، وأما أنا فلا بد لي من الذهاب .

« ولما بلغت المنزل قابلني هِرْمِس ذو الصولجان الذهبي ، وقد اتخذ شكل يافع جميل الصورة ، وقال :

— « هل أتيت لنجدة رفاقك الذين أصبحوا الآن خنازير في بيت سيرسة ؟ كلا لن ترجع أنت نفسك . ولكن مهلاً ، فأعطيك دواءً يمنحك قوة تقاوم بها كل

ما تحاوله سيرسة من سحر . وإذا ما مزجت لك الخليط وضربتك بعصاها ، فاهجم عليها بسيفك كأنك تريد ذبحها . وحينما تسألك الرحمة احملها على أن تقسم القسم العظيم الذي يرتبط به الآلهة أنها لن تمسَّك بأذى .

« ثم ان هرمس أراني عشبة سوداء الجذر بيضاء الزهر في لون الحليب ، تسميها الآلهة الثوم البرّي ، وهذه العشبة يعسر على البشر أن يهتدوا اليها ، وأما الآلهة فإن كل عسير لديهم يسير .

« وعندئذ فارقني هرمس إلى الأولمب ، وأما أنا فمشيت إلى قصر الإلهَة ، وقد ملأ الوجل قلبي . ولما أتيته وقفت عند سدَّة الباب وناديت ، فخرجت إلي سيرسة ، وفتحت الأبواب ودعتني إلى الدخول .

« ثم أجلستني على كرسي كبير أُحكم صُنعه ، وجعلت قدميَّ على موطىء ، وقدمت لي بعد ذلك كأساً ذهبية وضعت فيها شراباً سحرياً مميتاً . فشربتُ الكأس ولم يؤثر فيَّ السحر ، لأن العشبة العجيبة أنقذتني .

« ثم ضربتني بعصاها وقالت : (اذهب الآن إلى زريبة الخنازير وأقم هناك مع صحبك . فاستللتُ عند ذاك سيفي وهجمت عليها كأني أريد القتك بها . فأمسكت

بركبتيّ وصرخت عالياً : من أنت ؟ وإلى أيّ الأجناس تنتمي ؟ إنه ليدهشني أن تجرع من شرابي المسحور هذا دون أن يؤثّر فيك شيئاً . ولم أكن أعلم أن إنساناً فانياً يستطيع ذلك . ولا بد أن تكون لك نفس لا يفعل فيها سحر ، ولا ريب أنك أوذيس الذي قُدِّر له أن يأتي هذه الجزيرة لدى رجوعه من طروادة ، لأن هرمس أخبرني بهذا . فتعال إذن نُقِم عهد الصداقة ما بيننا) .

« فأجبتها قائلاً : (كلا أيتها الإلهَة ، كيف يمكن أن نوثّق ما بيننا عهداً،بعد أن أحلْتِ رفاقي إلى خنازير . وإني لأخشى أن تضمري في نفسك شراً ، فتأخذيني على غِرّة وتؤذيني أبلغ الأذى . فأقسمي لي القسم العظيم،القسم الذي يرتبط به الآلهة ، أنك لن تلحقي بي ضُراً) .

فأقسمت سيرسة القسم العظيم الذي ترتبط به الآلهة .

« وبعد هذا أقبلت وصيفاتها الجميلات ، وهن من نسل الربيع والجداول والغابات ، وهيّأنَ وليمة . فوضعت إحداهنّ أغطية ارجوانية على الكراسيّ ، وقرّبت الأخرى من الكراسيّ مناضد فضية ، وضعت عليها سلالاً من الذهب . ومزجت الثالثة نبيذاً حلواً في إناء من الفضة ، وجاءتنا بكؤوس من الذهب . وملأت الرابعة مِرجلاً عظيماً بالماء ، وأوقدت تحته ناراً . ولما بلغ الغليان مزجته بماءٍ

في حوض الاستحمام ، وعدّلت حرارته ، فأزال الاستحمام ما حل بأعضائي من إعياء. ولما انتهيت من الاغتسال أتتني إحدى الوصيفات بماء في إبريق من الذهب ، وصبّته في طَسْتٍ من الإبريز لأغسل يدي . وأحضرت لي القهرمانة خبز القمح ، ووضعت على المنضدة أمامي كثيراً من الطيِّبات ، ودعتني سيرسة إلى الطعام . ولكني جلست صامتاً كئيباً ، وقد شُغلت عن ذلك كله بما يساورني من الأفكار .

« ولما أبصرتني الإلهَة صامتاً ، لا أمدُّ إلى الطعام يداً ، قالت : لمَ تقيم يا أوذيس وكأن بك بكماً ؟ هل تخشى أن أمكر بك ؟ كلا إن هذا لن يكون ، أفلم أُقسم لك القسم العظيم الذي تتقيد به الآلهة ؟

« فأجبتها : من ذا الذي يُفكر في طعام وشراب ، ورفاقه يلاقون من الويل ما يلاقون ؟

« فنهضت سيرسة وسارت أمامنا تحمل عصاها السحرية في يدها ، وفتحت أبواب الزرائب ، وأخرجت الخنازير التي كانت قبلُ رجالاً . ثم فركت كل واحد منهم بنوع من العقاقير قوي الأثر ، فتساقطت في الحال شعورهم الخشنة عن أجسامهم ، وعادوا كما كانوا رجالاً ، بيد أنهم كانوا أجمل منظراً وأنضر شباباً . فلما رأوني تشبثوا

بي وبكوا فرحاً ، فأثار ذلك الشفقة في سيرسة ذاتها .

« ثم قالت لي : (اذهب إلى سفينتك يا أوذيس وأفرغ ما فيها من بضاعة ومعدات وضعها في الكهوف التي على الشاطىء ، ثم ارجع إلى هنا وأحضر معك رفاقك) .

« فذهبت ، وفرح رفاقي المقيمون برؤيتي فرحاً عظيماً أشبه بفرح الحملان الصغيرة المزروبة عندما ترجع اليها أمّاتها في المساء . ولما أبلغتهم ما جرى وسألتهم أن يصحبوني لبّوا طلبي جميعاً ، ما عدا أوريلوخ الذي قال :

« إلى أين نذهب أيها الحمقى ؟ أنذهب إلى منزل سيرسة لكي تحولنا جميعاً إلى خنازير وذئاب وأسود ، وتسجننا كما سجننا السيكلوب ؟ أليس هذا هو أوذيس المتهور نفسه الذي أضاع رفاقنا هناك ؟

« فعظم غيظي ، وكدت أفتك بأوريلوخ على ما بيننا من قرابة النسب . ولكن صحبي حالوا دون ذلك وقالوا : (دعه يُقيم هنا لحراسة السفينة إذا شاء . وأما نحن فسنصحبك إلى منزل سيرسة) .

« فأمسكت عن الفتك به ، ولم يتخلف أوريلوخ عنا ، بل صحبنا إلى مسكن سيرسة ، التي احتفت بنا احتفاءً ملكياً ، وبقينا ننعم في ضيافتها عاماً كاملاً .

« ولما انتهى العام قال لي صحبي : (لقد آن أوان التفكير في العودة الى بلادك ، إذا شاءت الأرباب أن تعود يوماً إليها) .

« عندئذ رجـوت سيرسة أن تطلق سبيلي لأسير إلى بلادي ، وفاءً بوعدها . فأجابت قائلة : لست أرغب في بقائك في منزلي على كره منك . ولكن لا بدّ لك على كلّ حال من القيام برحلة أخرى تفضي بك الى مساكن الموتى . وهناك تُكالم العرّاف تيْرِيسيا .

فاشتد جزعي لسماع هذا الكلام ، وأعولت قائلاً : من ذا الذي يقودنا في هـذه الرحلة ؟ إذ لم تقم سفينة بمثلها قبل اليوم .

« فأجابت سيرسة : (لا تجزع يا ابن لبرت ، إذا لم يكن مـن يقودك فما عليك إلا أن تنصب ساريتك وتنشر شُرُعك ، وتجلس مع صحبك ، وستحملك ريح الشمال إلى مكان مصيرك . وحينما تجتاز مجرى الأوقيانوس فستأتي شاطئاً تكثر فيه أشجار الحور الباسقة والصفصاف . هناك أرسِ سفينتك عـلى شاطىء الاوقيانوس ، وسر الى مقر الأرواح الشريرة ، تجد صخرة عظيمة يلتقي بقربها مجريان ، أحدهما فليغيثون نهر النار ، وثانيهما كوسيتوس نهر العويل. فاحفر هناك حفرة طولها باع وعرضها باع ، وصُبَّ فيها

شراباً تقدمةَ للموتى . فصبَّ أولاً شيئاً من العسل ، وثَنِّ بشيء من النبيذ الحلو ، ثم ثلّث بالماء ، وذُرَّ فوق ذلك شعيراً أبيض . وفيما تقوم بهذه الأعمال ابتهل الى الموتى ، وعِدْ بأن تضحي عند رجوعك الى ايثاكـة بعجلة عقيم تكون خير ما عندك ، وبأن تضحي لثيريسيا وحده بكبش أسود لا تشوبه شائبة ، يكون أفضل ما في القطيع . وبعد أن تنتهي من صلواتك للموتى ، ضحِّ بكبش أسود ونعجة سوداء ، وعليك أن تحوّل رأسيها نحو إريبوس ، وأما أنت فولِّ وجهك شطر شاطىء الاوقيانوس . وسيحضر عند ذاك كثير من أرواح الموتى ، فلا تدعها تشرب من الدماء قبل أن تكلم ثيريسيا . وسيأتيك العرّاف عاجلاً ويهديك سبيل رجوعك الى وطنك) .

« فأيقظت رفاقي في الصباح التالي ، وأنا أقول : كفاكم نوماً فسنرحل الآن لأن سيرسة أوضحت لي جلية الأمر .

« قلت هـذا فأطاعوا قولي . ولكني لم أرجع بصحبي جميعاً سالمين من مسكن الإلهَة فإن ألفينور ، وقد كـان أصغرهم جميعاً ، ولم يكن بالشجاع ولا بالذكيّ المدرك ، قد نام بعيداً عن رفاقه ، واختار سطح المنزل ، لأنه كان مثقلاً بالخمر ، فطلب الهواء الرطب . فلما سمع أصواتنـا وتبيّن وقع أقدام الرجال غادين ورائحين ، وثب فجأة من

مرفده ، ولم يفكر في النزول على المرقاة التي صعد عليها ، بل سقط من فوق السطح ، فدُقّتْ عنقه وانحدر إلى مساكن الموتى .

« وقلت لرفاقي وهم في الطريق : هل ظننتم أنكم ذاهبون الى وطنكم ؟ كلا ، ليس الأمر كذلك ، فإن سيرسة قد أرشدتني إلى طريق أخرى علينا أن نسلكها . فلا بد من الذهاب إلى مقرّ الأرواح لكي أكلّم روح العرّاف تيريسيا .

« قلت هذا ، فتصدّعت قلوب رفاقي في صدورهم ، وجلسوا حيث كانوا يُعولون وينتفون شعورهم . فلم يُجدهم نواحهم شيئاً .

« وكانت سيرسة قد غادرتنا في غضون ذلك ، وبادرت إلى كبش ونعجة سوداء ، فساقتها في سرعة إلى السفينة مارة بنا ، إذ ليس لأحد أن يلمح الآلهة الخالدين في مسيرهم » .

١٢

منازل الأموات

« وهيّأنا السفينة بعدئذ للسفر، ووضعنا فيها الغنم السود ثم أبحرنا. وأرسلت سيرسة ريحاً من خلفنا ملأت الشُرُع، وظلت سفينتنا النهار بطوله تنساب مسرعة فوق اليمّ .

« وبلغنا عند مغيب الشمس أبعد حدّ للأوقيانوس حيث يسكن السياريون الذين لا ينفكّون محاطين بالضباب والغمام، فلا تقع عليهم الشمس لا في صعودها إلى السماء ، ولا في انحدارها منها ، بل يكتنفهم الظلام أبداً . عندئذ طلبت إلى اثنين من رفاقي أن يُعدّا الغنم للتضحية. وأما أنا فحفرت حفرة ، كل جهة من جهاتها الأربع في قدر باع. وأرقت فيها شراباً من العسل واللبن ، ومن النبيذ الحلو والماء ، وذَررْتُ الشعير فوق الشراب الذي أرقته قرباناً . ثم

عمدت إلى الغنم فذبحتها حتى سالت دماؤهـا إلى الحفرة . فاجتمع الى المكان أبنـاء الموتى ، وكان منهم الفتيات ، والشيوخ الذين حملوا أحزان السنين الطوال ، والمحاربون الذين صُرعوا في الميدان ، وكانت أسلحتهم مخضبة بالدماء. كل هؤلاء تجمعوا حول الحفرة ، وهم يصرخون صراخـاً مرعبـاً ، ففزعت لذلك أشدّ الفزع . عندئذ طلبت إلى رفـاقي أن يسلخوا جثث الغنم ، ويحرقوها بالنار ويصلّوا لآلهة الموتى . وأما أنا فجلست بجانب الحفرة ، ولم أدَع أرواح الموتى تقترب من الدمـاء قبل أن أقف على خبر تيريسيا .

« وقـد جاءتني أولاً روح رفيقي ألفـنور . فدهشت كثيراً لدى رؤيته ، وسألته : (كيف أتيت إلى هنـا يا ألفنور ، إلى أرض الظلام ؟ وكيف تمكنت رجـلاك من سبق سفينتي) ؟ فقال ألفنور : (إني سقطت عن سطح قصر سيرسة ، ولم أفكـر في المرقاة التي صعدت عليهـا ، فدُقّ عنقي . ولكني أتوسّل اليك الآن ، إذا مـا كنت تحبُّ حقاً زوجك وأباك وولدك ألا تنساني عندما ترجع الى جزيرة سيرسة ، وألاّ تحرمني المناحة والدفن . أحرقني بالنار وأحرق معي سلاحي ، وأقِم لي رابية عند شاطىء البحر ، حتى يتسامع الناس في مـا يلي من الزمن بذكري ويعلموا

عصيري ، واجعل مجذافي فوق قبري ، ذلك المجذاف الذي ألفتُ الكدح به مع رفاقي) .

« فقلت له : (إن هذا جميعــه سيكون كما تشتهي وترغب) .

« وكنا ، ونحن نتكلم ، جالسين على جانبي الحفرة ، وقد بسطتُ سيفي فوق الدمــاء . وأتتني بعده روح أمي التي كنت قد غادرتها حيّة لدى إبحاري إلى طروادة . وقد بكيت في حرقة عند رؤيتهــا ، ولم أدعها مع ذلك تدنو وتشرب من الدمــاء ، قبل أن أقف على خبر تيريسيا . عندئذ أقبل تيريسيا يحمل في يده صولجانــاً من الذهب ، وتكلم قائلاً : (لِمَ تركت ضوء النهار ، وأتيت إلى هنا إلى أرض الموتى ، حيث لا بهجــة ولا سرور ؟ فتعالَ الآن ، وغادر الحفرة ونحِّ سيفك حتى أدنو منك، وأقول لك القول الحق) .

« فــأرجعت سيفي إلى غمده ، فشرب تيريسيا مــن الدماء . ولما شرب قال: (إنك تطلب أن تسمع شيئاً عن عودتك إلى بلدك . فاعلم إذن أنها ستكون محفوفة بالمهالك والمشاق . إذ ليس مــن السهل أن يتخلى فوسيذون عن حنقه عليك ، بعد أن سلبت البصر مــن عين السيكلوب ولده العزيز . ومع كل هذا فقد ترجع سالماً إلى وطنك ،

على أن تكبح جماح نفسك ونفوس صحبك ، عندما تنزلون جزيرة الرؤوس الثلاثــة ، حيث تجــدون ثيران الشمس وغنمها . فإذا تركتموها وشأنها ولم تمسُّوها بأذى ، فقد ترجعون إلى إيثاكة، ولو كان ذلك بعد أن تلاقوا الأهوال والشدائد ، وإلا فستهلكون من دونها . وإذا مــا نجوت بنفسك فسترجع بعد زمن طويل ، وبعد أن تفقد رفاقك جميعاً ، وستحملك سفينة من سفن الغرباء، فتجد الفوضى في منزلك ، وتجد هنـالك رجالاً قساة يلتهمون رزقك ، وهم قد جاءوا يطلبون امرأتك زوجة لهم . وبعد أن تنتقم لنفسك من هؤلاء إما بالخداع وإمـا جهراً بحدِّ السيف ، خُذ مجذافك ، وسافر حتى تــأتي الأرض التي لا يعرف أهلها البحر ، ولا يأكلون اللحم ممزوجاً بالملح ، ولم يروا قط سفناً ولا مجاذيف هي بمثابة الأجنحة للسفن . وسيكون مجذافك علامة واضحة لك ، وحينما يلقاك مسافر آخر في الطريق تقول لــه إنك تحمل على كتفيك مِنسفة . عندها اغرس مجذافك في الأرض وقدم لفوسيذون ضحيةً، ولتكن مـن خروف وثور وخنزير بري . ثم ارجع أدراجك إلى وطنك ، وقدم ضحية من مائة حيوان إلى الأرباب جميعاً، وسيأتيك الموت بعيداً عـن البحر ، وسيكون شديد الرفق بك ، بعد أن تبلغ الشيخوخة ، ويكون أهلك مقيمين من

حولك في أمن وسلام) .

« فأجبته : (ليكن هذا يا ثيريسيا، فقد قضى الأرباب بهذا كله وفقَ مشيئتهم . ولكن أعلمني سر هذا الأمر ، إني رأيت هنا روح أمي التي فارقت الحياة ، وهي تجلس قرب الدماء ، ولكنها لا تنظر إليَّ ولا تكلمني . فكيف لها أن تعرف أني ابنها حقاً ؟) .

« فقال ثيريسيا :(كُل ميت تدعُه يشرب من الدماء يكلّمك ، وكل من تحول بينه وبين الدم يولي صامتاً) .

« فأقمت في مكاني ، ودنت روح أمي وشربت من الدم ، ولما فعلت عرفت فيّ ابنها ، وقالت : (لِمَ أتيت أرض الظلام يا ولدي ، وأنت لا تزال حياً ؟ ألم ترجع إلى بيتك حتى الآن ؟) .

« فأجبتها : (قد أتيت هذا المكان في طلب ثيريسيا الثيبي. وأما وطني فلم أره حتى الآن . ولا ريب في أن الهمَّ يلاحقني منذ ذلك اليوم الذي رافقت فيه الملك أغاممنون إلى أرض طروادة . ولكن خبريني كيف كان موتك ؟ هل قضى عليك مرض وبيل ، أم هل رمتك أرطميس بسهمها رمية مفاجئة ؟ وما شأن أبي وولدي ؟ هل ينعمان بخيراتي أم هل اغتصبها منهما مغتصب ، وما الذي جرى لزوجي ؟ هل هي مقيمة على عهدي ؟ أم تزوجت بأحد أمراء الإغريق ؟) .

« فقالت أُمي : (إن امرأتك مقيمـــة على عهدك ، وهي تبكيك ليلَ نهار . وولدك ينعم بمقتنياتك وله مكانه اللائق في أعياد القوم . وأما أبوك فلا يأتي المدينة مطلقـاً بل يسكن الريف . ولا يتخذ عند الرقـاد فراشاً ، ولكنه إذا ما جاء الشتاء ينام كما ينام العبيد في الرماد قريبـــاً من النار . وإذا أقبل الصيف أوى إلى زاوية الكرم ، ونـــام فوق أوراق الشجر . ولشدَّ مـــا يقاسي من الأسى وهـــو يتوقع عودتك . ثم إن الشيخوخة قد أوقرته بأثقالها . وأما أنـــا فلم يقض عليَّ مرض وبيـــل ، ولم ترمني أرطميسُ بسهامها ، وإنما متُّ شوقاً اليك ، وأسى على مـــا فاتني من حكمتك وحبك) .

« وقد حاولت عبثـــاً أن أضع يدي على روح أُمي ، واندفعت ثلاثاً إلى الأمام راغباً في عناقها ، وثلاثاً أفلتتْ من يدي كما يفلت الظل . ولمـــا قلت لهـــا : كيف هذا يا أُماه ؟ أمـــا أنتِ إذن سوى شبح أرسلته ملكة الموت إليَّ ؟ أجابتني أُمي : (هذا شأن الأموات يا ولدي ، فلا تبقى لهم لحومهم وعظامهم التي تلتهمهـــا قوة النار . وأما أرواحهم فهي كالأحلام تطير هنا وهناك . فارجع في أسرع مـــا تستطيع إلى الضياء ، وقصَّ على زوجك كل ما رأيت وسمعت) .

« وبعد أن أنهيت حديثي مع أمي أتتني أرواح نساء كانت لهن شهرة في قديم الزمان ، وقد أرسلتها إليّ الملكة فِرسِفين . وأجزتُ لهن أن يقتربن واحدةً فواحدة ، ويشربن من الدماء . وكانت كل واحدة منهن بعد أن تشرب تُعلمني باسمها ونسبها . وهكذا رأيت ألكمينا التي حملت من زفس بهرقول ، وكلوريس أم نسطور أحكمِ بني البشر ، وليدا أم كَستور مروِّض الخيل ، وفولُكس الملاكم الجبار . ورأيت امرأة عَلُويس التي حملت بأوتوس وإفيالتِس اللذين كانا أطول البشر قامة ، وأجملهم منظراً بعد أوريون النبيل . وكانا حقاً فارعيْن في الطول فقد كان الواحد منهما يبلغ أربعاً وخمسين قدماً طولاً ، وخمس عشرة قدماً عرضاً ، وهما لمّا يُكملا السنة التاسعة من عمرهما .

« وقد فكّرا في محاربة الأرباب ؛ لأنهما رغبا في نقل جبل أوسّا الى الاولمب ، وأن يقيما جبل فِليون بغاباته جميعها فوق أوسّا . هذا ما رغبا فيه ، وقد كان في مقدرتهما حقاً أن يفعلا ذلك لو بلغا تمام النموّ . غير أن ابن زفس ، الذي حملت به لاطونة ، فتك بهما بسهامه قبل أن ينبت عِذارُهما . وقد رأيت أيضاً أريادنة ابنة

الملك مينوس التي اختطفها ثيسوس من أرض كريت ، وقد همّ أن يتزوجها ، لولا أن رمتها أرطميس بسهامها فقتلتها. ورأيت أيضاً إريفيل التي باعت حيـــاة زوجها بالذهب . رأيت جميع هؤلاء ، كما رأيت كثيرات غيرهنّ مـــن زوجات الأبطال وبناتهم .

« ولمّا بارحتني هؤلاء ، إذ أمرتهن الملكـــة بالرجوع كما كانت قد أرسلتهن ، أتت روح أغاممنون بن أتريذ ، وكان الحزن الشديد بادياً عليها، وحولها أرواح أولئك الذين هلكوا معه بحيلة اوغيستوس الشريرة . ولما شربت روحه من الدماء ، عرفني وبسط لي يديه يريد أن يضمني ، فلم يقدر على ذلك لأنه لم يكن سوى شبح ، ولا مادّة له . ولما رأيته أخذتني الشفقة عليه ، وقلت له : (ألا خبرني أيها الملك أغاممنون الذي كنت أعظم ملوك الأرض جميعاً، أيّ حكم من أحكام الموت كان نصيبك ؟ هـــل أثار فوسيذون في وجهك عاصفة جبّارة عصفت بسفنك فحطمتها؟ أم فتك بـــك أناس على الأرض وأنت تحـــاول أن تسوق أمامك أبقارهم وأغنامهـــم ، أو أن تستولي على مدينتهم عنوةً ؟)

« فأجاب أغاممنون : (كلا لم يحطّم فوسيذون سفني، ولم يفتك بي اناسٌ على الأرض ، وإنما هو أوغيستوس

الذي دبَّر أمر موتي ، فقد تآمر وزوجي اللعينة عليّ . فدعاني إلى وليمة.وذبحني بعدها كما يذبح الرجل ثوراً عند مذوده . وهكذا متّ أفظع ميتة ، أنا ورفاقي من حولي، لأنهم ذُبحوا من غير رحمة ، كما تُذبح الخنازير في منزل أحد الأغنياء في عرس ، أو في عيد من الأعياد ، أو في وليمة . لقد شهدت وايمُ الحق ، موت الكثيرين من الرجال ، فمنهم من فُتك به منفرداً ، ومنهم من قُتل في معترك القتال . ولكنني لم أرَ مجزرة شنيعة كهذه سقطنا فيها صرعى على أرض القاعة نجود بأنفاسنا ، حول كؤوس الخمر الممزوجة والموائد المثقلة باللحوم ، وقد سالت على الأرض الدماء. وسمعت وأنا صريع صوتاً حزيناً يثير الشفقة، صوت كَسَّندرا ابنة الملك فريام ، وقد قتلتها زوجتي من أجلي . عندئذٍ القيت يدي على سيفي وأنا أُعاني سكرات الموت ، وقد همَمْتُ أن أرفعه للضرب . ولكن زوجتي الشريرة انتبذت جانباً ، ولم تمد لتغمض عينيّ أو تغلق في يداً . حقاً ليس على وجه الأرض شرٌّ من المرأة ، ولا أقلُّ منها حياءً . تصوّر أيّ فعلة فعلتها هذه المرأة، إنها قد دبّرت ميتة زوجها نفسه ! وكنت قد ظننت انني سأنزل بين وُلدي وأهلي منزلة الضيف الكريم ، وهناك الترحاب الذي لقيت ! حقاً إن هذه المرأة قد أتت ما يلحق

عاره بكل النساء بعدها ، حتى اللواتي يسلكن منهن السبيل القويم) .

« عندئذ أجبته : (حقاً إن هذا البيت قد أنزلَ به زفس شراً عظيماً على يد جنس النساء . فقد هلك الكثيرون في الحرب من أجل هيلانة ، وها أن كليتمنسترا قد سعت في موتك).

« عندئذ عاد أغاممنون الى الكلام فقال : (إيّاك أن تكون رفيقاً بامرأة أياً كانت ، أو أن تُطلعها على كلّ دخيلتك ، ولكن أطلعها على بعضها واكتم بعضها الآخر . وعلى كلٍّ فإن الأجل ، يا أوذيس ، لن يأتيك على يد امرأتك ، لأنّ بنلوب ابنة إيكاروس امرأة صالحة حكيمة. وإني لأذكر أننا غادرناها في بيتك ، وهي لا تزال حديثة العهد بالزواج ، عندما أبحرنا إلى طروادة ، وغادرنا ابنك على صدرها رضيعاً . وأحسب أنه بلغ الآن مبلغ الرجال . يا لسعده ! فإن أباه العزيز سيراه عند عودته ، وسيضمّ الواحد منهما الآخر بين ذراعيه كما هو خليق بالآباء والأبناء. وأمّا أنا فإن امرأتي لم تُتح لي أن أشبع نظري بمرأى ولدي، ولكنها قتلتني قبل هذا . أصغِ الآن مرة أُخرى الى مـــا أقوله لك . إذا ما رجعت إلى بلدك ، فلا يكن ذلك جهرة

بل خفية ، إذ لا يسع الرجال أن يثقوا بالنساء بعد الآن. أذكر هذا ، وخبرني أيضاً هل اتفق أن سمعت شيئاً من أخبار ولدي أورست ، وهل كان يقيم في فيلوس عندما كنت فيها ، أم هل يقيم في اسبارطة عند أخي مانيلا ؟ لأني موقن بأنه لا يزال حياً) .

« فأجبته على ذلك بقولي : (لا تسلني عن شيء من أمره ، فإني لا أعلم أحيٌ هو أم ميت ، ومن العبث أن أتكلم بما ليس فيه فائدة) .

« هذا ما تحدثنا به ، وأتت بعدئذٍ أرواح أخرى ، منها روح أخيل ، وفطرقل ، وأنطيلوخ ابن الملك نسطور البكر ، وروح أياس أشد الإغريق بأساً بعد ابن فيلا .

« وقد خاطبني أخيل أولاً بصوت حزين فقال : (أي عمل عجيب قد أتيت يا ابن ليرت ؟ كيف جرؤت على القدوم إلى هذه الأرض حيث تقيم أرواح الموتى ؟) .

« فأجبته قائلاً : (قد أتيت يا أخيل في طلب العراف ثيريسيا علّه يرشدني إلى وسيلة أرجع بها إلى إيثاكة . فإني لم أبلغ أرض الإغريق ولم أصل إلى موطني ، بل اني لا ازال تائهاً في اضطراب لا نهاية له . ذلك هو حظي العاثر . أما انت ، فلم يأتِ ، ولن يأتي بعدك رجل

أسعد منك حظاً ، فعندما كنت في قيد الحياة ، كنا نحن الإغريق نكرمك كما يكرم الناس الأرباب ، وها انك بعد موتك ملك على جميع القاطنين في هذا المكان) .

« ولكن أخيل اجابني على الفور : (لا تخاطبني بكلام تعزيني بـه عن موتي يا أوديس . إني لأفضل وايم الحق ان اكون أجيراً في خدمة رجل رقيق الحال ، ليس عنده من القوت إلا النزر القليل ، وأظل حياً على وجه الأرض، على أن أكون ملكاً على الأموات جميعاً . ولكن هلمّ وحدثني عن ولدي ، إذا كنت تعلم من أخبـاره شيئاً . هل سار إلى الحرب ليكون في طليعة الأمراء ؟ ثم حدثني أيضاً عن أبي فيلا الشيخ العجوز . ألا يزال محتفظاً بمكانه الرفيع بين المرامدة ؟ أم انهم لا يأبهون لـه الآن ، بعد أن أناخت به الشيخوخة ، وسلبته خفة القدمين وقوة اليدين؟ ألا حبذا لو يُتاح لي أن أبادر إلى معونته في ضوء الشمس، وأعود إلى ما كنت عليه في سالف الأيام ، حينما فتكت بأبطال لا يحصيهم العد عند أسوار طروادة ، حقاً لو يُتاح لي هذا لصددت عنه من يقصدونه بعنف ، أو يمنعون عنه ما يستوجبه من إكرام) .

« فأجبت : (أما فيلا فلم أسمع عنه شيئاً ، وأما

ولذلك نقطوليم فأقول عنه قول الصدق الذي تأمله مني .
لقد جئت به أنا نفسي من جزيرة سيروس إلى جيش
الإغريق في طروادة . ولما غدا بيننا لم يكن دون أحد
عند المشورة . واما في الحرب فلم يكن يتلبث بين الجموع
بل كان دوماً في السابقين الأولين ، وقد فتك من جيش
الطرواديين بالكثيرين . ولست أقدر أن أذكر لك أسماءهم
لكثرة عددهم . غير ان أجلّهم شأناً كان اوريفيل
الميسياني ، ابن الملك تليفوس . وكان هذا أبهى من
رأيت من الرجال طلعةً ، ما عدا ممنون ابن الصباح .
ولما دخلنا إلى جوف الحصان الخشبي ، الذي صنعه إفيوس
للإغريق لكي نتخذه وسيلة للاستيلاء على مدينة طروادة ،
بكى أمراء الإغريق جميعاً بكاءً مراً وأخذوا يرتجفون
رعباً . وأما هو فقد كان الأوحد الذي لم تخالط لونه
صفرة ، ولم تسل على خده عبرة . بل ظل يتوقع
الخروج من الحصان في توق ، ويده لا تفارق مقبض
حسامه معتزماً أن يوقع الشر برجال طروادة . ولما دككنا
مدينة الملك فريام الجميلة ، نال من الأسلاب خير نصيب،
وأبحر بسفينته قاصداً وطنه ، ولم يصبه جرح من رمح أو
سيف ، كما يحدث للرجال عند احتدام القتال) . قلت

هـذا فغادرتني روح أخيل تخطو خطوات عظيمـــة واسعة تقطع مرج البَرواق . وقد سُرَّ كثيراً لأن ابنه قد أصاب شهرة عظيمة في الحرب .

« وكلمتني أيضاً أرواح أبطال آخرين ، وأفضت إليَّ بأشجانهـــا . غير أن أياس بن تلامون انتبذ جانبـــاً ولزم الصمت . فقد كان حانقاً لأني تغلبت عليه لما تبارينا معاً للفوز بسلاح أخيل . فقلت لـــه : (ألا تـزال حانقــاً يـــا أياسُ العظيم من أجل هذا السلاح اللعين ؟ لا ريب أن الأرباب قد جعلتها فتنـــةً ، إذ قد سببت لك الهلاك وأنت للجيش حصن منيع . وكان حِـــداد الإغريق عليك مثل حدادهم على أخيل بن فيلا . واني أرجوك الا توجه اللوم إليَّ ، بل إلى زفس الذي يحمل حقـــداً للإغريق . وتعالَ إليَّ وكلمني) .

« ولكن أياس ذهب ولم ينبس بكلمة .

« وبعد هـذا رأيت الملك مينوس جالساً عـــلى عرش يحمل بيده صولجانــاً من الذهب . وقد جلس للقضاء بين الموتى .

« ورأيت كذلك أوريون الجبار يسوق الوحوش معاً ، كما يسوقهـــا الصياد ، في مرج مـــن البرواق ، وقد حمل

بيده هراوة عظيمة صُنعت كلها من البرونز .

« ورأيت تيثيوس الجبار ابن الأرض ، وكان منطرحاً على الأرض مغطيــاً سبعة فراسخ ، وبقربه نسران يمزقان كبده وهو لا يقدر أن يصدَّهما عنه بيديه .

« ورأيت أيضاً تنطالوس ، وقد وقع في محنة شديدة ، إذ كان واقفاً في حوض قارب ماؤه عند ذقنه ، ولكنه إذا ما اشتد بـه العطش ، وأراد أن يشرب ، لم يتمكن من ذلك ؛ لأن الماء كان يغيض كلما انحنى ليشرب ، وتظهر الأرض تحت رجليــه . وكانت تتدلى فوق رأسه أشجار شهية الثمر ، فكان منهـا الكُمَّثرى والرمان والتفاح بهجة للناظرين ، وكان منهــا التين الحلو والزيتون ، ولكنهــا كانت كلما مدَّ نحوها يده لاقتطافها ، تحملها الريح بعيداً ، حتى أنها كانت تصل بها إلى السحاب .

« ورأيت سيسيفوس ، وكان هو أيضاً يعاني كَرْبــاً عظيماً . فقــد كان قابضاً بكلتا يديه على صخرة ضخمة يحاول دفعها على مُنحدَر هضبة إلى قمتهـا . وكان يدفعها بعد أن يُجهد رُكبتيــه وذراعيه ، ولكنها كانت ، إذا ما شارفت القمَّة ، تفلت منه وتتدحرج في سرعة عظيمة مرتدة إلى سفح الهضبة .

« ورأيت آخر الجميع شبح هرقول ، ولم أرَ منه إلا ظله ، لأن البطل نفسه كان جالساً مع الأرباب في الأعالي يمرَح ، بعد أن اتخذ هيبا ابنة زفس له زوجاً . وقد ارتفع من حوله صياح الأرواح كأنه زقزقة العصافير . أما هو فقد وقف متجهم الوجه مظلماً كالليل ، وفي يده قوسه وقد شُدَّ سهم إلى وترها ، وبدا في عينيه عزم مخيف كمن يوشك أن يطلق سهمه . وكان على صدره تُرس من الذهب ، نقشت عليه رسوم بديعة ، رسوم دببة وخنازير برية ، وسباع براقة العيون ، ورسوم معارك ومذابح مرعبة . وكلمني ظل هرقول قائلاً : ألا خبّرني هل قُسمت لك في الحياة قسمة شر كتلك التي قسمها لي زفس ؟ فقد سلّط عليَّ جلفاً يسومني أبداً أشق الأعمال . وها هو قد أرسلني إلى هنا لآتيه بكلب جهنم ، ظاناً انه لا يقدر ان يُرهقني بعمل أشق من هذا . ولكنني أتيت به من جهنم إلى ضوء النهار ، لأن هرمس وأثينا أعاناني على ذلك .

« قال شبح هرقول هذا ومضى في طريقه . ثم انتظرت هنيهة عليّ أرى أرواح أبطال آخرين من أبطال الزمن القديم ، ولكنني ، فيما أنا واقف التفَّ من حولي ألوف

وألوف من الموتى ، وهم يصيحون صياحاً مخيفاً ارتجفتُ له رعباً . وخشيت أن ترسل اليّ الملكة العظيمة فرسفين رأس الغُرغون الهائل ، فغادرت مكاني ، وأهبت برفاقي أن يركبوا السُّفُنَ ويحلوا الحبال . فركبنا وجلسنا على المقاعد ، فحملنا تيار الاوقيانوس العظيم إلى الأمام . وقد جذّفنا في بادىء الأمر ، ثم نشرنا الشُّرُع .

١٣

عرائس الماء، سيلا، نيران الشمس

(قصة اوذيس)

« لما رجعنا الى جزيرة سيرسة كان الليل قد أرخى سدوله . فأرسينا السفينة ونمنا عند الشاطى حتى الصباح . ولما كان الصباح قصدنا قصر سيرسة ، وجئنا من هناك بجثة رفيقنا ألفينور . وأقمنا ركام الجنازة في أقصى رأس من الأرض داخل في البحر ، وأحرقنا الرجل الميت وسلاحه ، ثم أقمنا فوق عظامه رابية ، ونصبنا على قمتها عموداً ، ووضعنا مجذافه فوق العمود .

وقد علمت سيرسة بحضورنا وبما فعلناه ، فقدمت الينا ، وجلست بيننا وصحبتها وصيفاتها يحملن إلينا مقادير وافرة

من اللحم والخبز والنبيذ . ثم تكلمت وقالت : « لقد أربت شجاعتك على الغاية ، فقد ذهبت الى منزل الموتى مرتين في حين لا يراه أكثر الناس إلا مرة واحدة : « ولكن هلمّوا الآن وكلوا واشربوا هذا اليوم ، وغداً تعودون إلى ركوب البحر ، وسأهديكم الطريق وأكشف لكم ما سيحل بكم ، فلا تقوم العوائق والصعاب في طريقكم » . وهكذا أقمنا طول ذلك النهار في عيد نأكل ونمرح . ولما خيّم الظلام على الأرض اضطجع رفاقي عند السفن وناموا . وأخذت سيرسة بيدي وأقصتني عن صحبي، وسألتني عمّا رأيت وما فعلت . ولما سردت عليها قصتي بحذافيرها ، قالت : « أصغ الآن إلى ما ألقيه عليك . إنك ستُقبل في بادىء الأمر على عرائس الماء اللواتي يسحرن الرجال جميعاً بغنائهن . فإن من يدنو منهن على غير علم، ويسمع غناءهن لا يعود الى رؤية امرأته وأولاده ؛ لأن العرائس يصبنه بسحرهن ، ويجذبنه الى حيث يجلسن ، يحيط بهن رُكام عظيم من الموتى . فأسرع بسفينتك حين مرورك بهن ، وعليك أولاً أن تسد آذان رفاقك بالشمع، كي لا يسمع واحد منهم غناءهن . ولكن إذا رغبت أنت نفسك في أن تسمعهن ، فليشدّك رجالك إلى سارية السفينة شداً محكماً . وهكذا تستمع إلى الغناء ولا ينالك أذى .

ولكن إذا أخذت تتوسّل اليهم أن يحلوك ، فليزيدوا رباطك توثيقاً .

(وبعد أن تجوز جزيرة عرائس الماء ، عليك أن تختار السبيل الذي تسلكه . ففي الجهة الواحدة تقوم الصخور التي يسميها الناس صخور التّيه . وهـذه الصخور لا تقدر المخلوقات ، حتى المجنّحة منها ، أن تجتازها دون أن يلحقَ بهـا أذى . والحمائم عينُها ، التي تحمل إلى الإلـه زفس طعامـه ، تأخذها الصخور كلها ، فيُضطرُ الإلـه إلى أن يُرسل غيرها لتحلّ مكانها . ولا تقدر سفينة أن تجتاز بها سالمة . ولا تنفك الأمواج من حولها تتقاذف أخشاب السفن المحطَّمة وجثث الرجال الغرقى . ولم تتمكن من اجتيازها سوى سفينة واحدة ، هي أرغو . وهذه السفينة ذاتُها ، كان لا بدّ أن تحطمّها الأمواج على الصخور ، لو لم تمهد لها هيرا سبيل النجاة من أجل حبها لجاسون .

(هذه الصخور قائمة في الجهة الواحدة ، وتقوم في الجهة الثانية صخرتان . تذهب الواحدة منها بقرنها الحادّ إلى عنـان السماء ، وتحف بهذا القرن غمامة دكناء ، لا تبارحها لا في الصيف ولا في زمن الحصاد . وهـذه الصخرة لا يقدر على تسلقها إنسان ، ولو كان له عشرون يداً ورِجلاً ، لأنها ملساء صعبة المُنحدر . وفي جوف هذه

الصخرة كهف تقطنه سيلاّ هُولة البحر المخيفة . وصوت هذه الهولـة يشبه صوت جرو حديث العهد بـالولادة . وأقدامها الاثنتا عشرة ضئيلات مشوهات ، غير أن أعناقها الستة في غاية الطول ، وقد علا كلاً منهـا رأس مريع المنظر ، وفي كل رأس ثلاثة صفوف من الأسنان انتظمت ثخينة مليئة بالموت . وهي تختبىء في الكهف إلى وسطها ، ولكنها تُخرج رؤوسها لتصيد الدّلافين ، وكلاب البحر ، وغيرهـا من مخلوقات البحر ، وهي هناك كثيرة الأفواج تفوت الحصر . ومـا من سفينة تمر بها في سلام ، فهي تختطف الناس عن ظهر السفينة ويعود كل رأس من رؤوسها بإنسان . وأمـا الصخرة الثانية فقريبة جداً من الأولى ، وهي على مرمى سهم منها ، ولكنها تنخفض عنها كثيراً ، وتعلوها شجرة تين كبيرة . وتمتص خاريبديس المـاء من تحتها ثلاثاً في اليوم ثم تمُجُّهُ في اليوم ثلاثاً . وإذا اتفق أن كنت هناك حين تمتص الماء فلا ينجيك شيء حتى عون فوسيذون نفسه . فعليك إذن أن توجه سفينتك بحيث تقرب من سيلّا وتبتعد عن الأخرى ، فخيرٌ لك أن تخسر ستة من رجالك من أن تبيدوا جميعاً) .

« قالت سيرسة هذا ، فأجبتهـا : (خبّريني ، أيتها

الإلهَة ، هل أقدر على النجاة من خاريبديس بوسيلة ما ، وأنتقم في الوقت عينـــه من هذه الهُولـــة حينما تفترس رفاقي ؟) .

« ولكن الإلهَـــة قالت : إن شجاعتك لتفوق كـــل شجاعة ، ولا تفكر إلا في القتال . وإنك ولا ريب تُقدم على قتـــال الأرباب أنفسهم ، ولا تنسَ أن سيلا ليست من نسل فانٍ ، وليس في قتالها من نصير ، والهرب منها خير وأبقى ، لأنها ، إذا تمهلتَ ريثما تضع عليك شِكة سلاحك ، تُعـــاود الكرة وتختطف مـــن رجالك مقدار مـــا اختطفت أولاً . ولذا عليك أن تسرع بسفينتك مـــا وسعتك السرعـــة ، وادعُ الأم التي حملت بسيلا هـــذه لتكون آفـــة للإنسان ، لعلّها تحول دون انقضاض ابنتهـــا للمرة الثانية .

« وستأتون بعد ذلك جزيرة الرؤوس الثلاثـة ، حيث رعال الشمس وقُطعانها . وهي سبعة رعالٍ مـن البقر ، وسبعة قُطعان من الغنم ، وفي كلٍ منهـا خمسون رأساً . وهذه لم تُولد ولا تموت ، وترعاها إلهتان . فإن لم تمسّوا هذه البقر والغنم بأذى ، فإنكم سترجعون كلكم إلى إيثاكة ، ولكن إذا نالها منكم سوء ، فـإن سفينتك ستتحطم ويهلك صحبك جميعهم ، وترجع وحدكَ بعد لأيٍ طويل الأجل .

« نطقت الإلهة بهذا وانصرفت . فأيقظتُ رجالي فحدَروا السفينة إلى البحر وضربوا الماء بمجاذيفهم . وأرسلت الإلهة ريحاً مؤاتية ، فنشرنا الشُرع ، وركنّا إلى الراحة . وفيما نحن كذلك في الطريق، خاطبت رفاقي قائلاً : (لا خير لنا يا أصدقائي في أن يعلم منا واحد أو اثنان فقط ما تنبأت لي به الإلهة . ولذا فإني سأطلعكم عليه لكي نكون على بيِّنة مما سيقع لنا ، فإما أن نموت وإما أن نحيا) .

« وأخبرتهم أولاً خبر عرائس الماء ، وفيما أنا أتكلم أقبلنا على جزيرتهن . عندئذ سكن الهواء سكوناً لا نسمة فيه . فأنزل رفاقي الشُرُع وأخذوا المجاذيف . واقتطعت بسيفي قطعة كبيرة من الشمع ، فأذبتها في الشمس ، ودهنت بالشمع آذان رجالي . ثم أوثقوا يديّ ورجليّ ، وأنا واقف منتصباً ، إلى سارية السفينة . ولما اقتربنا من الشاطىء وكنا بحيث يصل الينا منه صوت الإنسان ، أبصرت العرائس السفينة ، وأخذن يغنين . وكان غناؤهن هذا :

« هلم ، يا أوذيس يا ذا الاسم الآخيّ العظيم ،
عـد بمركبك السريع وأنصت الى نشيدنا ،
فلم يدنُ من قبلُ زائر من هذه الأرجاء ،
تائهاً في الآفاق اللازوردية بسفينته الدكناء ،
إلا سمع قبل إبحاره صوتنا العذب ،

ثم مضى مبتهجاً طافح القلب بالذكريـات .
إننا نعلم ما جرى من الأعمال في سالف الزمان،
بقضاء الأرباب في طروادة الواسعة الأرجاء ،
ونحن ندري بكل جهاد بني الانسان في كل مكان» .

« فرجوت حينئذ رفاقي أن يحلوا وثاقي مومئاً اليهم برأسي معبّساً ، لأنّ آذانهم كانت مسدودة ، ولكنهم أعملوا مجاذيفهم ، وأضاف أوريلوخ وفريميد إلى وثاقي وثاقاً جديداً . ولما اجتزنا الجزيرة ، نزعوا الشمع من آذانهم ، وحلّوا وثاقي .

« ورأوا بعد هذا دخاناً وزبداً ، وسمعوا زمجرة شديدة، فوقعت المجاذيف من أيديهم خوفاً ورعباً ، ولكنني طلبت إليهم أن يستنجدوا بالشجاعة ؛ لأنهم قد جُنِّبوا فيما مضى أخطاراً غير هذه بإرشادي ونصحي . وأهبتُ بالمجدِّفين أن يكدحوا جهد طاقتهم . ولكنني قلت لمدير الدفّة : (وجِّه الفلك خارج الدخان والزبد ، وسر قريباً من الصخور لكي لا ترتطم السفينة على حين غِرّة فنهلك جميعا) . ولكني لم أذكر سيّلا بكلمة، خشية أن تخونهم شجاعتهم فيصدُفوا عن التجذيف . ثم إني تسلّحت ، ووقفت عند مقدمـة السفينة أنتظر ظهور سيّلا .

« وهكذا مخرت بنـا السفينة المضيق ، فساورني قلق

عظيم إذ كانت سيّلا في ناحية ، وخاريبديس في الناحية الأخرى تمتص الماء على وجه مخيف . وما لبثت أن مجّته ، فظلّ يغلي حيناً كما يغلي فوق النار مرجل عظيم . وتطاير الرشاش حتّى بلغ ذرى النّفانف على الجانبين . ثم عادت وابتلعت الماء حتّى بدت لنا أغواره البعيدة ، وانكشف لنا الرمل الأبيض في قاع البحر . وجعلنا ننظر إليها خائفين على أنفسنا من الهلاك . وفيما نحن شاخصون اليها بأبصارنا ، التقطت سيلا ستة من رفاقي ، وكان هؤلاء أوفرهم شجاعة وأشدّهم بأساً . ولما حوّلت نظري الى سفينتي باحثاً عن رجالي رأيت عند ذاك أرجلهم وأيديهم وسمعتهم ينادونني باسمي ويكلمونني للمرة الأخيرة . وكما يفعل الصياد إذا ما جلس على أحد الرؤوس ، وألقى خيط صنارته الطويل بالطُّعم ، ليُغري به سمك البحر ، وكلما أمسك واحدة ألقاها تتلوّى على الشاطىء ، هكذا حملت سيّلا رجالي يتلوون صُعداً في النّفْنَف إلى كهفها . وقد التهمتهم هناك وهم يصرخون صراخاً غريباً مستنجدين بي . ولقد كان هذا المشهد وايمُ الحق ، أشجى ما مرّ بي في البحر من الأهوال .

« وأتينا بعد هذا جزيرة الرؤوس الثلاثة ، فسمعت من سفينتي خُوار البقر وثُغاء الغنم . فذكرت قول تيريسيا

العرّاف ، ووصيته لي بأن أنحرف عن جزيرة الشمس ، فقلت لرفاقي : (استمعوا الآن إلى نصيحة ثيريسيا العراف وسيرسة . إنهما نصحـاني أن أسرع في المرور بجزيرة الشمس ، وزعما أن أعظم شرّ يحلُّ بنا هناك . فهيّوا إذن وانشطوا في التجذيف) .

« قلت هذا ، بيد أن أوريلوخ أجابني حانقاً : (حقاً يا أوذيس إنك لا تعرف التعب ، وكأنّك قُدِدتَ مـن الحديد حتى تمنع رفاقك ، الذين نهكتهم التعب والسهر ، من النزول الى هذه الجزيرة ، حيث في الإمكان أن نُنعش أنفسنا . وإنّك على هذا متهوّر ، إذ تأمرنا أن نسير في الليل . وفي الليل تثور رياحٌ مهلكة ، فأنّى لنا النجاة إذا مـا دهمَتنا من الغرب أو من الجنوب عاصفة مفاجئة ، فحطمت سفينتنا ونثرتها قطعاً ؟ فالأولى أن تدعنا نقيم ، ونتناول طعامنا ونرقد إلى جانب سفينتنا ، ثم نعود في الغد إلى ركوب البحر) .

« قال هذا فوافقه الجميع على قوله . فعلمت عندئذ أن الآلهة تريد بنا شراً ، وأجبت : إنكم ترغمونني لكونكم كثيرين وأنا واحد ، ولكن أقسموا جميعاً أنكم ، إذا وجدتم هنا رعيلاً من البقر أو قطيعاً من الغنم ، لن تطغى عليكم الشهوة ، فتغريكم بذبح رأس مـن العجول أو الأغنام ، بل تكتفون

عما أعطتنا سيرسة من القوت .

« فأقسموا جميعاً على ذلك ، ولما أقسموا أرسوا السفينة في جَوْن ، عنده ينبوع ماء نمير ، وهناك تناولنا طعامنا. ولما أخذنا كفايتنا من اللحم والشراب ، ذكرنا رفاقنا الذين اختطفتهم سيلاً من السفينة وافترستهم ، فجعلنا نندُبهم إلى أن سطا علينا النعاس .

« وفي الصباح التالي خاطبت رفاقي قائلاً : (لا يزال لدينا ، يا أصدقائي شيء من القوت ، فعندنا الخبز والنبيذ، فأمسكوا إذن عن الرّعال والقطعان لكي لا يحل بنا الأذى، لأنها رعال الشمس وقطعانها ، والشمس إلَه جبار لا ينجو من رَقابته أحد) .

« وقد أقنعتهم بكلامي هذا . وظلت الريح الجنوبيـة تهبُّ شهراً كاملاً بلا انقطاع . ولم تكن ريح غيرها سوى الريح الشرقية التي كانت تهبُّ الحين بعد الحين . والحق أن رفاقي أبقوا على القطعان ، فلم يمسّوها بأذى مـا دام زادهم من الخبز والنبيذ لم ينفد ، لأنهم كـانوا يخشون الموت . ولكنهم بعد أن أتوا على جميع ما لدينا من المؤونة أخـذوا يطوفون في الجزيرة في طلب القوت . وكانوا ، وقد أجهدهم الجوع ، يصطادون العصافير والأسماك بالصنانير. وكنت أنا وحدي أطوف منفرداً أدعو الآلهـة أن تهبنا

النجاة . واتفق أن غلبني النعاس يوماً – وكان هذا هو جواب الآلهة الوحيد – ونمت بعيداً جداً عن صحبي .

« وكان اوريلوخ في هذه الأثناء يكلّم الباقين مستعيناً بحيلة شؤم ويقول :

(أصغوا يا رفاقي الى من عانى معكم أشدّ المحن . إن الموت مما ينبغي أن نحاذره دائماً ، بيد أن الموت جوعاً هو أفظع وأشنع ما يُخشى . فتعالوا إذن ولْنُضَحّ للأرباب في السماء بخير ثيران الشمس . ولننذر أن نبني للشمس هيكلاً عظيماً حينما نبلغ إيثاكة ، ونزيّنه بكثير الهدايا ونفيسها . ولكن إذا شاء إلَه الشمس أن يُغرق سفينتنا ، غضباً منه لذبحنا ثوره ، فإنني لأفضل أن أموت ، وأنا أقابل الأمواج فاتحاً فمي ، على أن أدلف الى الموت متفانياً على مهل في هذه الجزيرة القفر) .

« وقد أيدوه كلهم في ذلك . وعندها ساق أوريلوخ أسمن رأس في القطيع – وقد كان لا يبرح يرعى على مقربة من السفينة – وذبحه الرجال ضحيةً للأرباب . وبعد أن قاموا بالمراسيم المرعية ، ذرّوا أوراقاً خضراً من أوراق الشجر ، إذ لم يكن لديهم شيءٌ من الشعير ، وأراقوا ماءً بدلاً من النبيذ ، وصلّوا للآلهة ، وأحرقوا عظم الفخذين مع الدهن ، وأكلوا من الأحشاء . عندئذٍ هجر

النوم عنيّ فاتجهت إلى الشاطىء ، غير أني قبل أن أصل إلى مكان السفينة تلقاني القُتار ، ولما أدركت مـا حدث صرخت عالياً : (إن هذا النوم الذي أغريتني به يا زفس ، لكي أستريح ، لنوم مميت فقد أغضب رفاقي الشمسَ أشد الغضب بطيشهم) .

« وفيما كنت اتكلّم طارت إحدى الحوريات اللواتي كنّ يرعين القطعان إلى الشمس بنبإ ما حدث . عندها تكلمت الشمس في سائر الأرباب قائلـة : (انتقموا لي الآن من رفـاق أوذيس المجرمين ، فقد فتكوا بقُطعاني التي أبتهج برؤيتها سواء عند صعودي إلى السماء أم عند هبوطي منها . قسماً إذا لم ينـالوا العقاب العدل عـلى سوء صنيعهم فإني سأنحدر وأنير آفاق الموتى) .

« فأجاب زفس عندئذ : (أشرقي أيتها الشمس على الأرض كما في السابق . أماّ هؤلاء الجناة فإنـه من اليسير أن تنال مركبهم صاعقة من لدنيّ فتحطمه في وسط البحر).

« وقد سمعتُ هذا كله فيما بعد من الحورية كاليبسو، وكانت قد سمعته هي من هرمس الساعي .

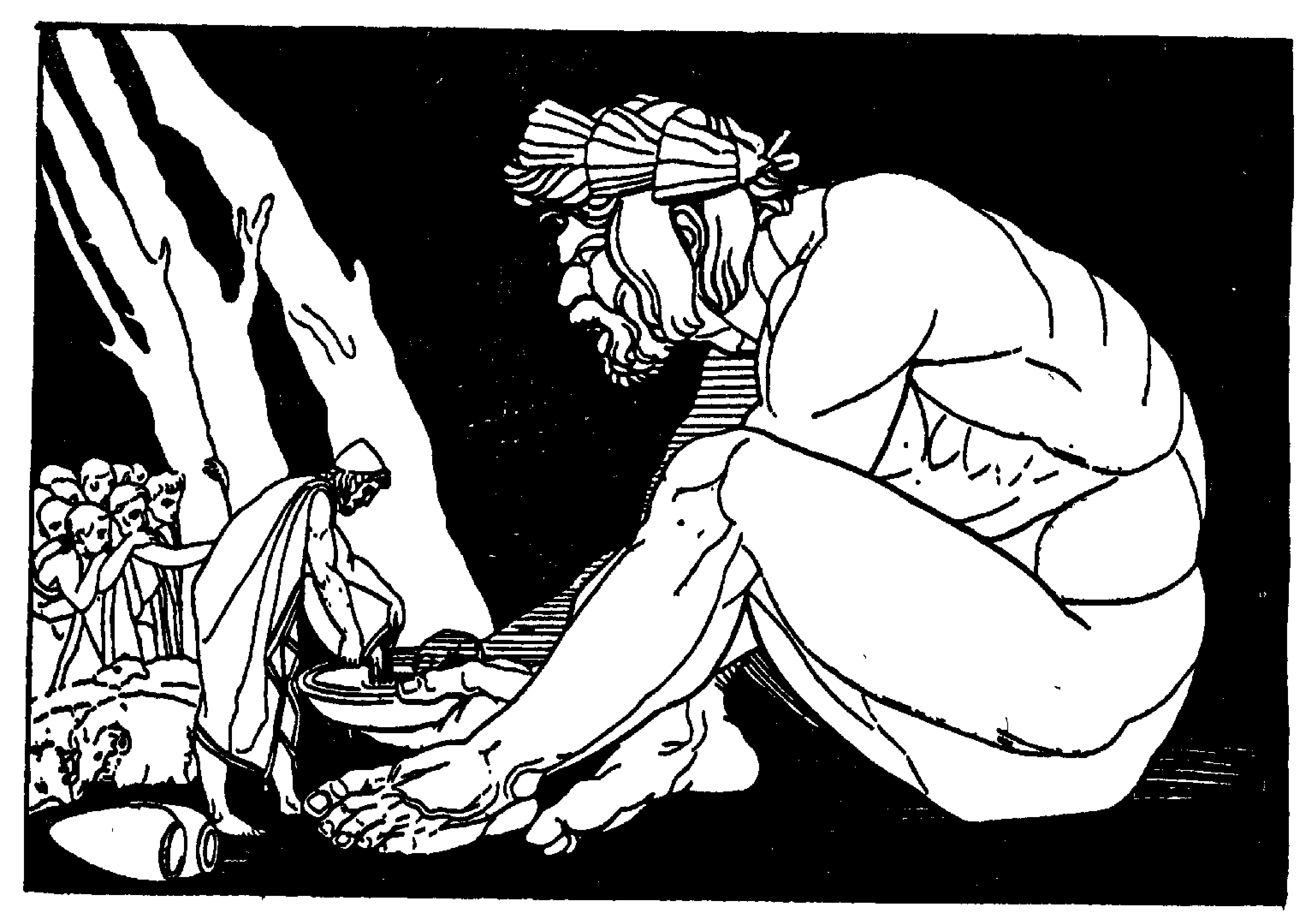
« فأوسعت رفاقي تأنيباً بكلام يقطر غضباً ، ولكني لم أجد لسوء عملهم علاجاً بعد أن رأيت الأبقار ذبيحة . ثم

تلا هذا علامات مخيفــة من السماء . فقــد تقلصت جلود الأبقار ، وسُمع للحومها فوق السفافيد خُوار كأنه صوت مخلوقات حية . وأقام رفاقي ستة أيام في عيد يَطعمون من قطيع الشمس . ولما كان اليوم السابع ، دفعنا سفينتنا إلى البحر ونشرنا الشُّرُع .

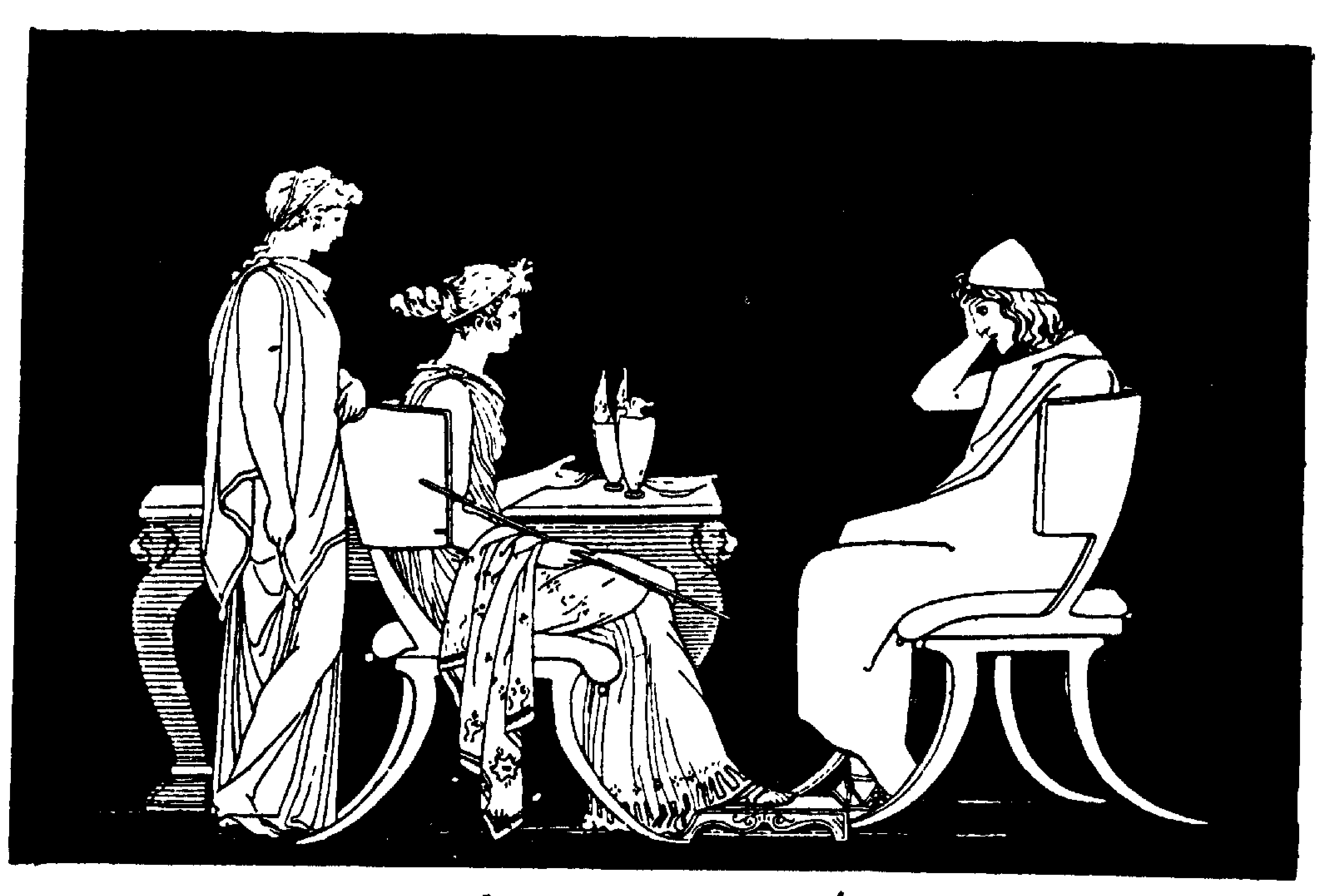
« ولما صرنا على مسافة لا نرى منها جزيرة الرؤوس الثلاثة ، ولم تظهر لنا أرض سواها ، بعث زفس علينــا غمامة قاتمة ، وانقضت الريح الغربية بغتــة على السفينة ، فانتزعت حبــال الصاري مــن الجانبين . وعندئــذ سقط الصاري ، وحطم جمجمة نوتيٍ منــا فغطس كما يغطس الغواص في البحر . ثم ضرب زفس السفينةَ بصاعقتــه ، فملأها كبريتاً من جانبها الواحد إلى الجانب الآخر . فسقط رفاقي من السفينة ، ورأيتهم يحومون في الماء حولها كطيور الزُّمَّج . وهكذا خيّبت الأرباب أملهم في العودة . ولكني بقيت مــع ذلك في السفينة حتّى انفصلت جوانبهــا عن قاعدتها ، وحينئذ أوثقت نفسي بسير من الجلد إلى السارية والقاعدة ، فقد كانتا ملتصقتين الواحدة بالأخرى . وجلست عليها واستسلمت إلى الريح ، فظلت تدفعني طول الليل . ورجعت عند الصباح إلى سيلا وخاريبديس ، وكان عند ذلك موعد امتصاص خاريبديس للأمواج . غير أن موجة

رفعتني فتشبثت بكل قواي بأغصان شجرة التين البرية النابتة فوق الصخر ، وأقمت متشبثاً بها مدة طويلة، وأنا لا أدري كيف يمكنني التسلق إلى أعلى من مكاني . وبقيت أرقب ان تقذف بالسارية والقاعدة اللتين ابتلعتهما مع المـاء . ولما رأيتهما ثانية ألقيت بنفسي عن الصخر ، وأمسكت بهما ، وجلست عليهما وجعلت أجذف جاداً براحتيّ . ولم يسمح أبو الأرباب لسيلا أن تراني ، ولولا هذا لهلكت . وبقيت طافيـاً تسعة أيام ، وفي اليوم العاشر حملتني الأربـاب إلى جزيرة كاليبسو .

« وانك تعلم كيف صرت إلى هنـاك ، فقد سبق لي أن قصصت خبر ذلك عليك وعلى زوجك . ورويته لكما أمسِ وليس يطيب لي أن أعيد ما قلت » .



أوذيس يصب الخمر لفوليفيم



أوذيس على مائدة سيرسة

١٤

إيثاكة

ولما أتمّ أوذيس قصته ساد السكوت في البهو قليلاً . وبعد حين تكلم الملك ألسينوس فقال : « قد أتيت منزلي يا أوذيس ، فلن يقوم بعد الآن عائق في سبيل عودتك . إليكم يا زعماء الفيسيانيين ، أنتم الذين لا تبرحون تشربون النبيذ ، وتنصتون إلى أغــاني المنشد في قصري ، إليـكم ألقي هذا الأمر . إن الحُلَل ، والذهب المحكم الصيغة ، وغير ذلك من العطايا التي أهداها الأمراء الى هذا الرجـل محفوظة له في صِوانٍ . فليُعطِه كل منا الآن زيادة عـلى ذلك مِنصباً كبيراً للقِـدْر ومرجلاً عظيماً ، نعطيه ذلك ، ثم نجمع ثمنه مـــن الشعب ، فليس يجوز أن يقع عبءٌ كهذا العبء على كاهل رجلٍ واحد » .

فأعجب الأمراء هذا القول ، وذهبوا كلُّهم ، وعادوا يحملون الهدايا في اليوم التالي . ووضعها الملك نفسه تحت المقاعد لئلا تُعيق المجذّفين في عملهم .

ولما انتهى أمر هذا كلّه ، قصد الأمراء إلى قصر الملك، وضحّوا لزفس بثور ، وقضوا يومهم في عيد ، وغنّاهم المنشد . وظلّ أوذيس مع ذلك يرنو الى الشمس ، كأنه يستعجل غيابها . وكانت رغبته في العودة ملحَّة تُشبه رغبة الفلاح في تناول عشائه ، بعد أن قضى نهاره يجرُّ محراثه في أرض بُورٍ ، وأمامه النّير شُدّت اليه الثيران . وكما يمتلىء قلب هذا فرحاً حينما يرى الشمس تغوص في المغرب، هكذا امتلأ قلب أوذيس فرحاً حينما توارى أمامه ضوء النهار . وتكلم فقال :

« أرِقِ الشراب تقدمةً للآلهة يا سيدي الملك ، وأرسلني في سبيلي . وإني أستأذنك الآن في الوداع ، فقد منحتني كل ما تشتهيه نفسي ، منحتني عطايا سنيةً ، وحرساً يرافقني الى وطني . فلتهبني الآلهة معهم حظاً سعيداً ، ولتمنحني أيضاً أن أجد زوجتي وأهلي مقيمين في منزلي سالمين ! وأما أنت فإني أدعو لك أن تقيم هنا هانئاً مع زوجاتك وأولادك ، تنعم بأنواع الطيِّبات ، ولا يقربكم أذى ، ولا يمسّكم سوء » .

عندئذ خاطب الملك وصيفه فقال :

« امزج النبيذ الآن يـا فونتُنوس ، ودُرْ على القوم بالشراب ، لكي نتقدّم إلى زفس بالدعاء ، ونرسل هذا الغريب في سبيله » .

فمزج فونتنوس النبيذ ، وأداره على الحاضرين ، فأراقوا منه وتوجهوا إلى زفس بالدعاء . ثم نهض أوذيس من مكانه ، ووضع كأسه في يـد الملكة أريتا ، وقال : « ليلزمْكِ السعد أيتها الملكة إلى أن تأتيك الشيخوخة ، والموت الذي ليس لكائن منه مفرّ ! إني ذاهب الآن الى بلدي ، فاهنئي بأولادك وبقومك ، وبالملك زوجك » .

ولمـا قال هذا تخطى العتبة . وأرسل ألسينوس معـه وصيفاً ليقوده إلى السفينة ، وأرسلت الملكـة وصيفاتها ، تحمل احداهنّ ثوباً قشيباً وقيصاً ، وتحمل الثانية الصندوق ، وتحمل الثالثة خبزاً ونبيذاً . ولما بلغوا السفينة تناول المجذّفون هذه الأشياء وجعلوها في العنبر ، وفرشوا لأوذيس بساطاً في مـؤخرة السفينة ، وطرحوا فوقـه غطاء لكي يحظى بنوم هنيء .

ولما تمت عدّتهم ، صعد أوذيس إلى الفلك واضطجع في مكانه وأخذ الرجال أماكنهم من المقاعد وحلّوا الحبال .

ولم يكادوا يمسون الماء بمجاذيفهم حتى استولى على أوذيس سبات عميق . وقد أسرعت السفينة فوق الأمواج كأنها مركبة تجرها أربعة من الجياد تعدو بها في السهل . ولم يكن في قدرة البازي نفسه ، وهو أسرع الأجسام الطائرة، أن يباريها .

ولما بزغ في السماء النجم رسولُ الصباح ، اقتربت السفينة من الجزيرة . وهناك ، في إيثاكة ، مرفأ هو مرفأ فورسيس إله البحر ، يقوم على جانبيه جرفان عظيمان يصدان عنه قوة الأمواج . وكل سفينة تجد السبيل اليه تصبح قادرة على الرسوّ ، ولا تحتاج إلى المرامي . وفي أعلى المرفإ شجرة زيتون بقربها كهف خاص بحوريات الماء . ولهذا الكهف بابان ، أحدهما يتجه إلى الشمال ويلج منه البشر ، والآخر يتجه إلى الغرب وهو خاص بالآلهة . إلى هذا المكان وجه الفيسيانيون السفينة ، وهم على أتمّ علم به . وقد اندفعت فوق الساحل إلى منتصف قاعدتها لسرعة تجذيفهم . ثم حملوا أوذيس من مكانه في السفينة ، وهو في البساط والغطاء اللذين أعطتها له الملكة . وظل مع ذلك نائماً . وأخرجوا أيضاً هدايا أمراء الفيسيانيين ، وجعلوها رُكاماً عند جذع الزيتونة ، على مسافة قصيرة من الطريق العام ، لئلا يسرقها أحد المارّة وأوذيس نائم .

وبعد هذا عادوا أدراجهم إلى وطنهم .

غير أن فوسيذون ما برح ذاكراً غضبه، فقال لزفس : « الآن يمسني العار بين الأرباب من أجل بشر فانين . فإن هؤلاء الفيسيانيين أنفسهم ، وهم من ذوي قرباي ، قد بلغ تهاونهم بي أنهم لم يعودوا يكترثون لي . فقد قلت إن أوذيس هذا لا بدَّ أن يلقى محنة عظيمة لدى عودته إلى وطنه ، وها هم قد جازوا به البحر سالماً ، ومعه من الهدايا ما لم يكن ليحظى بمثله من طروادة ، لو رجع منها سالماً يحمل كل ما أصابه من الغنائم » .

فأجابه زفس : « ما هذا الذي تقوله يا سيد البحر ؟ وأنّى للأرباب أن يعيبوك وأنت أكبرهم سناً ؟ وإذا أمسك البشر عن تقديم ما يجب لك من الإكرام ، فعليك أن تنزل بهم العقاب الذي ترضاه . فافعل إذن ما تشاء » .

فقال فوسيذون : « لقد فعلت هذا فيما مضى ، ولكني كنت أخشى غضبك . وأما الآن فسأضرب سفينة هؤلاء الفيسيانيين عند رجوعها بعد أن حملت هذا الرجل إلى بلده . وسيكون في عملي هذا عبرة لهم ، فلا يحملون الناس بعد الآن ويوصلونهم إلى غاياتهم آمنين . وسأظلل مدينتهم بجبل عظيم » .

فأجابه زفس على ذلك بقوله :

« افعل ما بدا لك » .

فهبط فوسيذون أرض الفيسيانيين ، وتلبّث ريثما دنت السفينة مسرعة في سبيلها . وعندئذ أنزل بها ضربته وحوّلها إلى حجر وأرسخها في قاع البحر .

وأما الفيسيانيون فقال أحدهم للآخر :

« من ذا الذي حال دون عودة سفينتنا إلى قاعدتها ؟ لقد كانت الآن ملء البصر » .

غير أن الملك ألسنيوس قال :

« لقد تحققت النبوءات التي كان يحدثنا بها أبي . فقد كان يقول إن فوسيذون حانق علينا لأننا نجوز البحر بالناس سالمين ، وإن الإلـه لا بدّ أن يضرب يوماً إحدى سفننا ويحوّلها إلى حجر ، ويظلّل مدينتنا بجبل عظيم . فلنكفّ الآن عن إيصال الناس إلى أوطانهم ، ولنتقرّب إلى فوسيذون بالقرابين ولنضحّ باثني عشر ثوراً لئلا يُظلّل مدينتنا بجبل عظيم » .

قال الملك هذا ، فقام الأمراء بتنفيذ ما أمرهم به . واستيقظ أوذيس في هذه الأثناء من منامه في أرض إيثاكة ، فلم يعرف المكان ؛ لأن أثينا نشرت ضباباً كثيفاً

حوله . وسيتضح فيما بعد أنها إنما أرادت له بذلك الخير، لكي ينفذ في أمن ما عزم عليه .

فنهض أوذيس وأخذ يندب حظه قائلاً : « يا لتعسي! إلى أيـة أرض قدمت ؟ أمتوحشون سكانها جائرون أم مضيافون من أهل البر والصلاح ؟ إلى أين أحمل ثروتي هذه ؟ وإلى أين أذهب أنا نفسي ؟ حقاً أن الفيسيانيين قد أساءوا إلي صنعاً . فهم قد وعدوا بأن يحملوني إلى وطني، ولكنهم أخذوني إلى أرض غريبة . فليعاقبهم زفس حامي المتوسلين على ذلك ! ولأهتم الآن بمتاعي ولأحصيه ، فقد يكون هؤلاء الرجال قد أخذوا منه شيئاً » .

قال هذا وأحصى مناصب القدور ، والمراجل ، والثياب، والذهب ، فوجدها لم تنقص شيئاً . ولكنه ظل ينوح شوقاً إلى وطنه .

وفيما كان سائراً يندب بقرب الشاطىء ، قابلته أثينا في هيئة راعٍ فتيٍ يروق جماله الأنظار ، كأنه من أولاد الملوك . فابتهج أوذيس لمرآها مع أنه لم يعرفها ، وقال : « إنك أيها الصديق أول من أرى في هذه الأرض . فأرجوك أن تنقذ مالي ، وتنقذني أنا أيضاً . ولكن أصدقني الخبر أولاً ، وقل لي ما هي هذه الأرض التي أتيت ، ومن هم سكانها ؟ أجزيرة هي أم جزء من اليابسة ؟ »

فقال الراعي الزائف : « إمّا أن تكون أحمق ، وإما أن تكون قادماً من أرض بعيدة ، لجهلك هذه الأرض . فالكثيرون في الشرق والغرب يعرفونها . فهي صخريــة لا تصلح للخيل ، وهي قليلة العرض ، ولكنها أرض خصبة صالحة للخمر . ولا ينقصها المطر ، بل هي مرعى خصب للثيران والمعز . ويسمّيها الناس إيثاكة . وقد سمع الناس بذكرها حتى في طروادة التي تبعد جداً عن هذه الأرض من بلاد الإغريق » .

فابتهج أوذيس بما سمع ، ولم يشأ مع ذلك أن يُظهر نفسه ، بل آثر أن يُلفّق حكاية ، فقال :

« أجـل ، إني قد سمعت وايمُ الحق بإيثاكة هـذه في كريت ، التي قدمت منها حديثاً بهذه الثروة كلّها ، بعد أن تركت مثلها لأولادي . فقد قتلت أورسيلوخ ابن الملك ايذومين ؛ لأنه أراد أن يسلبني غنائمي . وقد قتلته وأنا مترصّد له على طريقه . ثمّ تعاهدت مع جماعة من الفينيقيين أن يأخذوني الى فيلوس أو الى ايليس . وكان في عزمهم أن يقوموا بهذا ، ولكن الريح ساقتهم الى هنا ، وقـد حملوني وأنا نائم الى الشاطىء مع متاعي ، وعادوا أدراجهم إلى صيداء » .

فسُرّت أثينا جداً بهذه الحكاية ، وغيّرت صورتها ،

فغدت امرأة طويلة القامة جميلة المنظر ، وقالت لأوذيس:

« إن الذي يقدر على خداعك يُعدّ أمكر الماكرين . فإنك ، وأنت في عقر بلدك ، لا تنفكُّ تلجأ الى كلام المكر والخداع ! ولْنَدعْ هذا الآن ، فإنك على ما أعتقد أوفرُ البشر حكمة ، وأنا أجوَد الأرباب رأياً ، فأنا أثينا بنت زفس ، وقد كنت دائماً إلى جانبك ، وأبـادر إلى معونتك . ولنتّخذ الآن لأموالك هـذه مخبأ . وأمّا أنت فالزم الصمت ، ولا تُعرِّفْ أحداً بنفسك ، وعليك أن تُعانيَ الكثير قبل أن ترجع إلى سابق عهدك » .

فأجابها أوذيس : « إنـه ليعسر على بشر مهما كان حكيماً أن يُميزك أيتها الإلهَة ، لأنك تتخذين هيئات شتى . وقد كنتِ دائماً رفيقة بي لمّا كنت أحارب الطرواد مع غيري من الإغريق . غير أني ، منذ استيلائنا على مدينة فريـام ، وإبحارنا الى أوطاننا ، لم أركِ حتى قابلتِني في أرض الفيسيانيين ، فشدّدت عزيمتي وأرشدتني أنت نفسك إلى المدينة . والآن أتوسّل إليك بأبيك زفس أن تَصدُقيني القول : هل هذه الأرض التي أرى هي إيثاكة ؟ فإنـه ليخيّل إليّ أني أتيتُ أرضاً سواها ؛ وأنك تسخرين بي. ألا قولي لي قول الصدق هل بلغت وطني حقاً ؟ »

فأجابته أثينا : « لن أُغادرك بعد الآن ، لأن لك من

الحكمة والفطنة مـا تبذُّ به سائر الرجال . فكلُّ رجل غيرك ، يعود مثلك بعد تطواف طويل الأمد ، يُبادر إلى رؤيـة زوجه وأولاده . ولكنك أردت أن تمتحن زوجك أولاً . وأما قولك إنك لم تعد تراني في طوفانك ، فذلك لأني لم أشأ أن أعاديَ فوسيذون أخا أبـي ، فقد كـان حانقاً عليك ؛ لأنك سمَلْتَ عين ابنه السيكلوب فأعميته . ولكن تعالَ الآن فأريك هذه الأرض أرض إيثاكة، ليطمئن قلبك . فانظر ! هذا هو مرفأ فورسيس . وفي أعلاه شجرة الزيتون . وهنا أيضاً الكهف الجميل الخاص بحوريات الماء . وانظر ، فهناك هضبة نيرتون تغطّيها الغابات ».

عندئذ بدّدت الإلهَة الضباب ، فرأى الأرض وعرف أنهـا إيثاكة حقاً ، فخرَّ على ركبتيه ، وقبّـل الأرض ، ودعا الحوريات قائلاً :

« لم أكن أرجو أن أراكنَّ ، وها أنا أُحيّيكُنَّ الآن تحيَّةَ الوداد ، وسأقدم لكنَّ أيضاً الهدايا الكثيرة إذا تعطفت أثينا فعنُيت بإرجاعي إلى سابق عهدي » .

فقالت أثينا عندئذ : « شدّدِ العزم ولا تجزع . وعلينا قبلاً أن نضع متاعك في مكان خفيّ أمين من الكهف ».

حينئذٍ حمل أوذيس النحاس والذهب والثياب التي أهداها

إليه الفيسيانيون ، وتعاونا عــلى وضعها في الكهف . ثم ألقت أثينا حجراً كبيراً على بابه وقالت :

« فكـِّر الآن أيها الرجل الكثير الحيلة في ما يجب عمله لتقبض على هؤلاء الرجال خُطّاب امرأتـك الذين يقيمون في منزلك منذ ثلاث سنوات ، ويلتهمون رزقك . وهي قد َمكَرتْ بهــم في جوابها ، ومنَّتهم بالوعود الكثيرة ، ولكنها لا تزال تنتظر عودتك » .

فقال أوذيس : « حقــاً إنني لولاك لهلكت كما هلك أغاممنون . فأنجديني الآن كما أنجدتني في سالف الأيام في طروادة ، ففي قدرتي ، وأنت إلى جانبي ، أن أحارب ثلاثمائة من الرجال » .

فقالت أثينا : « سأحدث بك تغيراً لا يعرفك معــه أحــد ، فلحمك الغضّ سيذوي على أطرافك ، ويذهب شعرك اللامع عن رأسك ، وتكمدُ عيناك . فلا يأبـه لك الخطّاب ، ولا تعرفـك امرأتك ولا ولدك . فاذهب إلى حيث يسكن عموس ، راعي الخنازير ، قرب نبع أريثوسا ، فهو لك ولبيتك وفيّ أمين . وسأبادر أنا الى بيت مانيلاّ في اسبارطة لكي أُحضر تلماخ الذي رحل الى هناك يتقصّى أخبارك » .

ولكنّ أوذيس قال للإلهَة : « لمَ لم تُطلعيه على أخباري ،

وأنتِ بكل شيءٍ عليمة ؟ فهل كــان ذلك لكي يعاني الكروبَ تائهاً فوقَ البحار كما عانيتُ ، فيتمكن الأغيــار أثناء ذلك من التهام أمواله ؟ »

فأجابته أثينا : « لا تجزع عليه ولا تخف فقد أرشدته أنا نفسي ، لكي يغنم ذكراً طيّباً ، كما يليق بولد يبحث عن أبيه . وهو يقيم الآن في بيت مانيلا آمنــاً مطمئناً . وهناك رجال يرقبون عودته ليفتكوا به ، ولكنّ مأربهـــم لن يتحقّق ، بل سيهلكون هم ويهلك معهم غيرهم ممّن التهموا أموالك » .

عندئذ مسّته بصولجانها فذوى جلده وغدا كجلد رجل هرم ، وذهب شعره عن رأسه ، واكمدّت عيناه . وأمّا ملابسه فحوّلتها إلى أخلاقٍ يَغشاها الوحل ويلوّثها الدخان. وألقت فوق ذلك كله جلدَ وعلٍ كبير ذهب عنه الوبر . وجعلت في يده عكازاً ، وأعطته جراباً رثّاً وحبلاً يربطه به.

١٥

عموس ، راعي الخنازير

ذهبت أثينا إلى لقدمونيا لتُحضر تليماخ، وذهب أوذيس إلى منزل عموس راعي الخنازير . وقد كانت هناك حظيرة كبيرة واثنتا عشرة زريبة للخنازير ، وأربعة كلاب للحراسة في شراسة الوحوش الضارية ؛ وقد رباها على ذلك راعي الخنازير . وكان في كل زريبة خمسون خنزيراً . وكانت الكبار منها أقل عدداً ؛ لأن الخطّاب ما برحوا يلتهمون منها في ولائمهم . وكان عدد ما في الحظيرة لا يتجاوز ثلاثمائة وستين خنزيراً . وكان الراعي نفسه يخصف نِعالاً . وكان ثلاثة من رجاله مع الخنازير في المروج . وكان أحدهم يسوق أمامه خنزيراً سميناً إلى المدينة ليكون طعاماً

للخطاب . ولما دنا أوذيس هَرَّتْهُ الكلاب وهجمت عليه، فألقى عصاه وجلس ، وكاد يلقى الأذى على عتبة منزله . غير أن الراعي هرع اليه ، وطرد عنه الكلاب بالحجارة، وخاطب مولاه ، وهو لا يعرفه ، فقال :

« كادت الكلاب تفتك بك أيهـا الشيخ ، وإن هذا لمّا يلحقني منه العار والأسى . وإن ما عندي من الأشجان غير ذلك لكثير . فإني مقيم هنا يُبرِّح بي الحزن من أجل مولاي ، وأربّي الخنازير وأسمّنها لكي يلتهمها غيره ، على حين يكون هو في جوع تائهاً فوق الغمر ، أو مطوّفاً في أرض الغرباء . هذا إذا كان لا يزال من الأحياء . ولكن هلمّ الآن أيها الشيخ إلى منزلي ، وأعلمني من أنت،وأطلعني على ما عانيت من الأشجان » .

وقاده راعي الخنازير عندئذ إلى مسكنه ، وأجلسه على مقعد من أغصان الشجر ، عليه جلد تيس بريّ . وكان الجلد ضافياً ليناً ، فشعر بالرغبة في أن ينام عليه .

وكـان فرح أوذيس بهذا الترحـاب عظيماً فقـال : « ليَمْنَحْكَ زفس وسائر الآلهة رغائب فؤادك لاحتفائك ورِفْقك بي » .

فأجـاب الراعي : « من الشرّ أن أزدري الغريب ،

فإنَّ الغريب والسائل موفَدان من قِبَل زفس ، وأما العطاء مهما ضؤُل ، فهو كثير منا نحن الأرقّاء العائشين في خَشية من مولانا . وقد أعاقت الأرباب عودة سيدي . ولا ريب عندي أنــه لو عاد لأعطاني بيتاً ، ومنحني بقعــة من الأرض ، وأهدى إليَّ فوق هذا ، زوجـة جميلة . لأن هذا هو عطاء السادة لمن يحسنون الخدمــة من أتباعهم ، وفي أيديهم تنمو ثروتهم كما نمت ثروة مولاي في يدي . ولو أقام سيدي في منزله لأثابني خيراً،ولكنه لاقى الهلاك، كما أودَ أن يهلك كــل قوم هيلانة ، لأنهــا أودَتْ بالكثيرين من أبناء الإغريق البواسل . فإنه هو أيضاً قــد ذهب مع مــن ذهب إلى طروادة ، لكي يساعد أغاممنون وأخاه مانيلا على الانتقام من الطرواديين » .

وقصــد الراعي بعدئــذٍ إلى الزرائب ، وجاء منهــا بختريرين صغيرين فقطعهما بعد أن شيّطهما ثم شواهمــا على السفافيد . ولمــا تم نضجهما وضعهما أمام السائل . ثم مزج نبيذاً في كوب من خشب اللبلاب ، وجلس قُبالة ضيفه ، ودعاه الى الطعام قائلاً : « كُلِ الآن مما يسعني أن أقدمه لك من الطعام . وأما الخنازير السمينة فيلتهمها الخطّاب . إن هؤلاء الرجال ، وايم الحق ، لا يعرفون الرحمة ، ولا

يخـــافون الأرباب . ولا بدّ أن يكونوا قــد سمعوا بموت سيدي حتى سلكوا هــذا السلوك الشائن ، لا يخشون على أعمالهم الشريرة عقاباً.انهم لا يتوددون كما يتودد الخطاب ، ولا يرجعون إلى منازلهم ، بل يقيمون في راحة يلتهمون ثروتنا إلى مــا لا حد له . وانهم ليُكثرون من تضحيـــة الذبائح ليل نهـــار ، ولا يقتصرون على ذبيحة واحدة أو اثنتين ، ولكنهم يضحّون بالكثير ، ويسرفون في الشراب إلى حد البطر . وقد كان لمولاي من الأملاك مـــا يفوت الحصر ، ولم يكن في ايثاكـة ولا في بلاد الإغريق مـــن يضارعـه غنى . فاسمع الآن تعداد هذه الممتلكات : كان له على اليابسة عشرون من رِعال البقر ومثلها من قُطعان الغنم ، ومثل ذلك من أسراب الخنازير والمعز . وله أيضاً هنا في أقصى هذه الجزيرة أحد عشر قطيعـــاً من المعز ، يؤخذ منهـــا إلى الخطاب رأسٌ في كل يوم ، وأنا أحمل اليهم أفضل كبار الخنازير » .

قال الراعي هذا فيما كان أوذيس يأكل اللحم ويشرب النبيذ . ولم ينطق بكلمـــة ، بل كان يدبر في نفسه أمر القضاء على الخطاب . ولكنــه تكلم أخيراً فقال : « من يكون مولاك الذي تكلمت عنه أيها الصديق ؟ تقول إنـه هلك وهـــو يسعى في الانتقام للملك مانيلا . أعلمني باسمه

الآن ، فقد أكون رأيته وأنا أجوب الآفاق البعيدة؟ »

فأجاب عموس : « كلا أيها الشيخ ، فإنك تردد ما يقولـه جميع عابري السبيل . ولكننا لم نسمع منهم خبراً صادقاً . ولم يمر بهذه الجزيرة أحد من شُذاذ الآفاق إلا رأته ملكتنا ، وسألته الأسئلة الكثيرة وهي تنتحب . وأما أنت ، فلست أشك أنك تقص علينـا أعجب الحكايات لتنـال رداءً أو معطفاً . ولكنني أعلم أن أوذيس قـد مات ، وذهب طعاماً إما لطير السماء وإما لسمك البحر ».

غير أن الفقير الزائف قال : « أصغ إليّ الآن ، إني أقول ، ولست ألقي القول جُزافاً ، بل أدعم كلامي بالقسَم ، إن أوذيس سيعود . وستجزيني عند ذلك جزاء طيب الأنباء . فستعطيني معطفاً وثوباً ولن آخذ منك شيئاً قبل ذلك مع حاجتي الملحة ، فإني أكره الرجل الذي يُلجئُهُ الفقر إلى التحدث بكلام الغش ، كما أكره أبواب الموت . والآن إني أشهد زفس وأشهد هـذا البيت الذي أتيت ، بيت أوذيس المضياف ، على أن هذا سيتحقق كما قلت ، وسيعود أوذيس هذا العام . أجل ، إنـه سيأتي عندمـا يدخل القمر في المحاق وسينتقم من جميع هؤلاء الذين ألحقوا باسمه العار » .

فأجاب عموس : « يقيناً أني لن أعطيك مكافأة الأنباء

الطيبة أيها الشيخ ، فلا ريب عندي أن أوذيس لن يعود إلى بيته . ولنوجِّه أفكارنا الآن وجهة أخرى ، ولا تعد إلى تذكيري بهذه الأمور ، لأن قلبي يطفح أسىً إذا ما ذكّرني أحدٌ بمولاي . أما قسمك فليكن من شأنه ما يكون ، فإني لأدعو أحر الدعاء لكي يعود أوذيس حقاً ، ففي هذا تحقيق لرغبتي ورغبة زوجته ، ورغبة الشيخ ليرت وتلماخ . وإني الآن في قلق على تلماخ . فقد ظننت أنه لن يتورط في مثل ما تورط فيه أبوه ، ولكن أحداً ، لا أعلم أإلَه هو أم إنسان ، قد جرده من فطنته ، وحمله على الذهاب إلى فيلوس ليستقصي أخبار أبيه . وها هم الخطاب قاعدون له بالمرصاد ، متمنين انقراض نسل أوذيس عن ظهر الأرض . ولكنني لن أذكر من أمره هو أيضاً ، شيئاً بعد الآن ، ولست أدري أيهلك أم ينجو بمعونة زفس . فتعال الآن أيها الشيخ وأخبرني من أنت ، ومن أين أتيت ؟ وأي سفينة حملتك ؟ فقدومك إلى إيثاكة في سفينة مما لا ريب فيه » .

فأجاب أوذيس عندئذ وقال : « لو كان لدينا من الطعام والنبيذ ما يكفينا سنة ، وجلسنا هنا نتحدث في طمأنينة ، على حين يذهب غيرنا من الناس إلى أعمالهم ،

لأقمت كل هـذه المدة أسرد عليك كل مـا أصابني من الهموم ، وقاسيته من الأهوال على وجه الأرض ، وأما قصتي فهي هذه :

« إنـي كريتي ، وابن رجـل يدعى كستور مـن امرأة مـن الرقيق . ولمـا كان أبي عـلى قيد الحياة ، كان يعاملني معاملته لسائر أبنائه . ولكن لمـا مات اقتسم أولاده ثروتـه ، ولم يعطوني منهـا إلا الشيء القليـل ، وسلبوني مسكني . ولكني تزوجت بامرأة غنية ، لأني كنت شجاعاً حسن السمعة . ولم يكن بين الرجـال من يسبقني إلى قتال أو كمين . وقد أحببت السفن والرماح والسهام التي أعتقد أن البعض يمقتها . وقدت رفاقي في السفن تسع مرات لقتـال الغربـاء ، وفي المرة العاشرة صحبت الملك إيذومين إلى طروادة . ولما سقطت مدينة فريام ، رجعت إلى وطني . وقـد أقمت هناك مع زوجتي مدة شهر ، ثم أبحرت بتسع سفن إلى مصر . وفي اليوم الخامس بلغنا نهر مصر ، لأن الآلهة منحتنا سفراً موفقاً . وهنالك أوقع رفاقي في أهل البلاد أذىً عظيماً . فعـاثوا في حقولهم ، وسبوا زوجـاتهم وأولادهم ، ولم يصغوا إلى نصحي حينما كنت أنهاهم . عندئذ جمع المصريون جموعهم وهاجمونا ففتكوا

ببعضنا وأسروا بعضنا الآخر . وأما أنا فقد ألقيت خوذتي ورمحي وبادرت إلى حيث كان ملك البلاد جالساً في مركبته ، وتوسلت اليه أن يرحمني ويعفو عني ، ففعل . وأقمت معه سبع سنوات جمعت خلالها ثروة طائلة . وفي السنة الثامنة قدم تاجر فينيقي فأغراني بالذهاب معه فرافقته إلى بلده . وأقمت هناك سنة ، وحملني بعدها في سفينة إلى ليبيا ، وفي عزمه أن يبيعني بيع الرقيق ، ولكن زفس حطم السفينة فلم ينجُ منها سواي . وبقيت طافياً تسعة أيام متشبثاً بالسارية ، إلى أن قذفتني موجة في اليوم العاشر إلى أرض ثرِسْبروثيا ، حيث أحسن ملكها فايدون معاملتي ، بأن أمر لي بطعام وكسوة . وهناك سمعت بخبر أوذيس ، حتى إني رأيت ما جمعه من الخيرات التي حفظها له الملك فايدون إلى حين عودته من دودونا ، التي ذهب اليها يستوحي زفس في هيكله . ومن هناك أبحرت في سفينة إلى دوليخيوم قاصداً الملك أكاستوس ، ولكن الملاحين كان في عزمهم أن يبيعوني بيع الرقيق . ولهذا تركوني موثقاً في السفينة ونزلوا إلى الشاطىء ليتناولوا عشاءهم ، فحللت في غضون ذلك وثاقي بمعونة الأرباب ، وقفزت إلى البحر ، وسبحت إلى الشاطىء ، واختبأت في غابة قريبة » .

عندها قال راعي الخنازير : « لقد أثرتَ فؤادي ايها الغريب بحكاية ما لاقيت من الشقاء ، غير أني أخشى ألا تكون صادقاً في قولك إن أوذيس سيعود . فإني أعلم جيداً انه كان بغيضاً إلى الأرباب ، ولهذا لم يقضوا عليه حينما كان يحارب أهل طروادة ، ولا فيما بعد بين أصدقائه ، بعد نهاية الحرب . لأنه لو قضى حينئذ ، لأقام له الجيش نُصباً كبيراً ، وأصاب الذكر العظيم له ولأولاده . ولكنه مات ميتة خِلواً من المجد بين عواصف البحر . وأما أنا فأقيم على حدة مع الخنازير ، ولا أذهب إلى المدينة ، إلا إذا دعتني بنلوب حينما تُنقل الينا أنباء عن مولاي ليس من يعلم مصدرها . حينئذ يحيط الجميع بناقل الأخبار ويمطرونه الأسئلة ، سواء في ذلك الراغب في عودة مولاه ، والمسرور بالتهام رزقه من غير عوض . غير أني لم أعد أبالي بإلقاء الأسئلة على حاملي الأنباء بعد أن خدعني أحد الإتوليين بحكايته ، فقد زعم هو أيضاً أنه قتل رجلاً وجاب بلاداً كثيرة ، ولما أتى منزلي اكرمت وفادته . وقد قال هذا الرجل إنه رأى مولاي مع إيذومين ملك كريت ، وإنه أصلح له سفنه التي كسرتها العاصفة . وأضاف أن سيدي سيعود في الصيف او في وقت الحصاد ، حاملاً معه الكثير من الأموال . فلا تحاول ايها الشيخ ان تنال

حظوة عندي بـالكذب او ان تنعش فيَّ الأمل بـالكلام الفارغ ، فإنك لن تنـال عطفي بمثل هذا كله ، وحسبي خشية زفس وشفقتي عليك » .

ولكن أوذيس أجاب : « حقاً إن قلبك لبطيء الإيمان، فإني لم اقدر على اقناعك حتى بالقسم . ولكن تعالَ نُقم ما بيننا عهداً ، ولتكن الأرباب شهودنا . إذا مـا عاد مولاك تعطيني عباءةً وثوباً ، وترسلني في سبيلي إلى حيث أشاء ، ولكن إذا لم يرجع كما أخبرتك ، فعليك أن تأمر رجالك بأن يُلقوني عن صخرة عظيمة ، حتى يخشى غيري بعد ذلك أن يخدع الناس » .

فقال الراعي : « أي مكانـة تكون لي بين الناس إذا مـا فتكت بك بعد أن أكون أضفتك في منزلي ! وبأي قلب صالح أتوجه بصلاتي إلى زفس بعد ذلك ! غير أن وقت العشاء قد حان ، فليت رجالي يعودون لكي يُهيّئ الطعام » .

وفيما هو يتكلم اقتربت الخنازير ورعاتها ، فنادى عموس رجالـه قائلاً : « هلمّوا بأفضل خنزير فإني أرغب أن أكرم ضيفاً أتانا من بعيد . وإننـا ، وايمُ الحق ، لنلاقي التعب المضني في سبيل هاته الحيوانات ، في حين يلتهمها غيرنا دون مقابل » .

فأحضروا خنزيراً كبيراً عمره خمس سنوات ، وأشعل الراعي ناراً ، وبعد أن ألقى فيهـا شيئاً من شعر الخنزير تكريماً للآلهة ، ذبح الحيوان وهيـأ اللحم . فجعله سبعة أقسام ، وضع أحدها جانبـاً لحوريات المـاء وهرمس ، وأعطى قسماً من الباقي لكل واحد . وأمـا أوذيس فنال أفضلها وهو لحم الصُّلب .

فسُرَّ أوذيس وتكلم فقال : « لتكن يا عموس حبيباً إلى زفس ، كما كنت بي رفيقاً » .

فأجاب عموس : « كل أيها الغريب ، وابتهج بمـا لديك ، فـإن الأرباب تمنح أشياء ، وتمنـع أشياء » .
وكان الليلُ بـارداً ، والمطر يسقط بلا انقطـاع ، لأن الريح الغربية التي تأتي بالمطر كانت تهبّ شديدة . وقـد أراد أوذيس أن يمتحن الراعي ، ويرى هل يعطيه عباءته الخاصة ، أو هل يسأل غيره أن يفعل ذلك ، فقال له ، وقد دنا وقت النوم :

« أصغِ إليَّ فـإن النبيذ الذي يفقد الإنسان صوابـه يحملني عـلى الكـلام . ألا ليتني كنت فتيـاً ، وليت قواي لم تتحطم ، كما كنت أيام كنا نحارب أمام مدينة طروادة !

« في يوم من الأيام أقمنـا كميناً قريباً من مدينـة طروادة . وكنا انـا ومانيلا وأوذيس ، عـلى رأس هذا الكمين . فألبدنـا بين القصب ، وكان الليلُ بـارداً ، والثلج قد تراكم على دروعنا . وكان رفاقي جميعاً يرتدون معاطفهم ، وأما أنا فقد تركت معطفي عند السفن . ولما مضى من الليل الهزيع الثالث ، خاطبت أوذيس ، وقلت له : (هـا أنا من غير معطف ، وأحسب أني سألقى حتفي برداً) . ففكر على الفور في علاج لهذه الحالـة ، فقد كان دائماً حاضر الرأي ، وقال : (إخفض صوتك لئلا يسمعك أحـد) . ثم التفت إلى الآخرين وقـال : (لقد أنذِرتُ في الحلم . ونحن هنـا بعيدون جـداً عن السفن ، وفي خطر . فليبادر أحدكم إلى أغاممنون ليُنجدنـا بالرجال) .

فهبَّ ثواس بن أندريمون عندئذ ، وذهب يركض ، وألقى عنه معطفه ، فأخذته ونمت متلفعاً به ناعماً بالدفء . ولو كنت الليلة كما كنت في ذلك العهد ، لما حُرمت من مثل هذه الألطاف » .

فقال عموس عند ذاك : « لقد أحسنت القول ، أيها الشيخ . وستنال الآن معطفاً تتدثر به . ولكن في الصباح يجب أن تعود إلى ارتداء ثوبك الخَلَق ، ومتى عاد ابن

أوذيس يعطيك ملابس جديدة » .

ونهض عندئذ وهيأ لأوذيس فراشاً من جلود الغنم وجلود المَعَز قرب النار . ولما انطرح عليه أوذيس ألقى عليه معطفاً ثخيناً ، كان قد ادخره للأيام الشديدة العواصف ، ونام هو إلى جانب الخنازير ليحرسها . وقد سُرَّ أوذيس إذ رآه شديد الحرص على رزق مولاه مع طول غيابه .

١٦

عودة تلياخ

كان تلياخ كل هذه المدة مقيماً مع الملك مانيلا ، وكان معـه ابن نسطور . فذهبت أثينا إليه هناك ، وقد ألفت ابن نسطور مستسلماً إلى النوم ، وأما تلياخ فلم يسعفه النوم لاشتغال باله بأبيه ، ووقفت أثينا قريباً منـه وقالت : « لا يحسن يا تلياخ ، ان تطيل إقامتك بعيداً عن بيتك ، وفيه أناسٌ ينهبون رزقك ويبدّدونه . فتعالَ إذن وأيقظ مضيفك مانيلا ، واطلب اليـه أن يرسلك في سبيلك ، فلعلك تجد أمكَ لا تزال في منزلها . لأن أباها واخوتهـا يُلحّون عليها أن تتزوج اوريماخ ، فقد بذّ الخطّاب جميعاً بكثرة هداياه ، فانتبه إذن لئلا تأخذ شيئاً من نفائس بيتك، فإن قلب المرأة يميل دائماً إلى زيادة ثروة الرجـل الذي يتخذها زوجـة ، ولا تعود تفكّر في أولادها ، ولا في

ذاك الذي كان زوجها قبلاً . فاذهب إذن وضع أموالك في يد امرأة من أهل بيتك تثق بها كلّ الوثوق ، إلى أن يجد الأرباب لك زوجة . ثم أصغِ الى أمر آخر . إنّ أشجع الخطّاب يكمنون لك في المضيق ما بين إيثاكة وصاموس،وهم يودّون قتلك قبل رجوعك إلى بيتك . فابتعد إذن بسفينتك عن المكان ، وواصل السير ليلَ نهار ، وسيرسل لك أحد الأرباب ريحاً رُخاءً . وحينما تبلغ أرض إيثاكة أرسل سفينتك ورفاقك إلى المدينة ، واقصد أنت عموس راعي الخنازير ، فهو ما برح لك مخلصاً . واقضِ ليلتك عنده ثم اطلب اليه أن يذهب إلى المدينة في اليوم التالي ، ليحمل إلى أمك خبر رجوعك سالماً » .

عندئذ أيقظ تليماخ ابن نسطور ، بأن أصابه بكعب قدمه ، وقال : « انهض يا ابن نسطور ، وأحضر خيولك وشد المركبة ، ولنذهب في سبيلنا » .

ولكن فيسِستْرات أجاب : « لا يمكن أن نسوق المركبة في الظلام ، مهما اشتدت بنا الرغبة في الرحيل . وسينبثق الفجر قريباً . فأقم إلى أن يأتي مانيلا بهداياه ، ويضعها في المركبة ، ويرسلك في سبيلك . إذ يجدر بالضيف أن يحفِل بالمُضيف الذي أحسن وِفادته » .

ولما أقبل الصباح ، ونهض مانيلا من فراشه ، خاطبه

تليماخ وقال : « أرسلني يا مانيلا إلى بلدي سريعاً ، لأني شديد الرغبة في الذهاب » .

فأجابه مانيلا : « لا أصدُّك عن الرحيل بعد الآن ، وأنـــا ارى شدة رغبتك في العودة . إذ لا يليق بالمُضيف أن يُفرط في الحفاوة بضيفه أو أن يُقصِّر في هذه الحفاوة . والأجدر به أن يعدل في الأمر ، فلا يستعجل الضيف الذي يودّ الاقامـة ، ولا يمسك ذاك الذي يرغب في الرحيل . ولكن اصبر ريثما أحضر لك هداياي وأضعها في مركبتك . ودعني أيضاً آمر النساء أن يهيّئن الطعام في ردهة قصري ، ففي ذلك شرف لي من جهـــة ، وفائدة لك من جهـــة أخرى ، إذ يجب أن تأكل جيداً قبل أن تشرع في رحلة طويلة . ولكن إذا كنت تريد ان توغل في هذه الأرض، فتذهب إلى هيلاس وارغوس ، فدعني أرافقك فنقصد إلى كثير من المدن،ولن تردّنا احداها خائبين من غير زاد » .

ولكن تليماخ أجـــاب : « ليس الأمر كما تقـــول يا مانيلا ، بل إني أودّ الذهاب تواً إلى بلدي ، فإنني لم أقم أحداً على حراسة أموالي . ومن سوء الصنيع أن أهلك وأنا أبحث عن والدي ، او ان افقد شيئاً ممـــا املك من النفائس في بيتي » .

حينئذ طلب مانيلا من زوجته ومن الوصيفات أن يهيّئن

الطعام . وأمر خادمه ان يشعل النار ويشوي اللحم . وقصد إلى خزائنه ومعـه هيلانة ومغابانث فحمل منهـا كأساً مزدوجة ، وحمَّل مغابانث طاساً كبيراً من الفضة للمزج ، وامـا هيلانة فأخذت من أصونتها ثوباً صنعته بيدهـا . وكان من أجمل الثياب ، يتألق كما يتألق النجم ، وكان تحت سائر الثياب .

عندها قال مانيلا : « خذ هذا الطاس للمزج ، فهو من الفضة ، وحافتـه من الذهب . وقد صنعـه هيفست بيديه وأعطانيه ملك الصيداويين . وإني أعطيك أيضاً هذه الكأس » .

وأقبلت هيلانـة الحسناء تحمل الثوب بيديهـا وتكلمت فقالت : « خذ يـا بنيّ العزيز هذا الثوب من عمل يدي هيلانة عـلى سبيل التذكار ، فاحفظه ليوم زواجك لتلبسه عروسك . ودعْ أمر صيانته إلى ذلك اليوم لأمّك . والآن فلتكن عودتك إلى بلدك وبيتك محفوفة بالهناءة والسرور » .

ثم جلسوا للطعام والشراب ، ولمـا فرغوا من ذلك ، شدّ تلياخ وابن نسطور الجياد إلى النير ، وقفزا إلى المركبة .

وأقبل مانيلا يحمل النبيذ في كأس من الذهب ، لكي يُراق تقلمـةً للآلهة قبل سفرهما . ووقف أمـام الجياد

وتكلم فقال : « وداعاً أيها الشابان النبيلان . إهديا نسطور مني السلام ، فلقد كان لي بمنزلة الأب حينما كنا نحارب طروادة » .

فأجابه تلماخ : « سنفعل هذا ، واني لأرجو من الآلهة أن أجد والدي قد عاد وأخبره بما لقيت في رحابك من رعاية واكرام » .

وفيما كان ينطق بهذا طار عن يمينه نسر يحمل بين مخالبه إوزّة اختطفها من فناء الدواجن . ولحقه الرجال والنساء يتصايحون ، وطار من فوق الجياد ملازماً الجهة اليمنى . فسرّوا لرؤيته .

وقال ابن نسطور : « ما ظنك يا مانيلا ، هل أرسل زفس هذه العلامة لك أو لنا ؟ » .

وفيما كان مانيلا يُعمل الفكر ، قالت هيلانة : « أصغوا إلى ما ألقته الأرباب في رُوعي ، فكما انقضّ هذا النسر مَن الجبل الذي نشأ فيه ، واختطف الإوزة من المنزل ، هكذا سيعود أوذيس إلى بيته بعد تَجْوال طويل ، وينتقم لنفسه . وإن قلبي لَيُحَدِّثني أنه الآن هناك يكيد للخطاب كيداً » .

فهتف تلماخ : « ليكن هذا قضاء زفس ! » .

ثم برحا المكان ، وأسرعا يقطعان السهول ، وباتا تلك الليلة في فيري . ولما بلغا فيلوس في اليوم التالي ، قال تليماخ لفيسسترات : « هل لك يا ابن نسطور أن تجيبني إلى رجائي كما يجدر بالصديق ، فتتركني عند سفينتي ، ولا تأخذني إلى أبعد من هذا ، لئلا يحمل أباك الشيخ لطفُه على استبقائي لديه على رغم إرادتي . فإني ، وايم الحق ، لشديد الرغبة في الذهاب إلى وطني » .

وفعل ابن نسطور هذا فحول جياده إلى الشاطىء نحو السفينة . ولما وصلا إلى هناك ، أخذ الهدايا من المركبة ، ووضعها في مؤخرة السفينة . وبعد أن فعل ذلك نادى تليماخ قائلاً : « اصعد إلى سفينتك ، وسر بها قبل أن أبلغ بيتي . فإني أعلم جيداً أن أبي لا بدّ أن يأتي اليك ويسألك الرجوع معه إلى بيته . ولن يذهب إلا وأنت معه إذا ما وجدك هنا ، فإنه صُلب الرأي » .

وطلب تليماخ من رفاقه أن يصعدوا إلى السفينة ففعلوا .

وفيما كان تليماخ يُعِد نفسه ، ويصلي ويقدم مُحرقَة لأثينا ، أقبل شخص فاراً من أرغوس ، وكان قد قتل رجلاً . وكان هذا عرّافاً يُدعى ثوكليمان من نسل ملامفوس . (وملامفوس هذا سرق ثيران فيلاوس لكي ينال ابنة نلِوس لأخيه) .

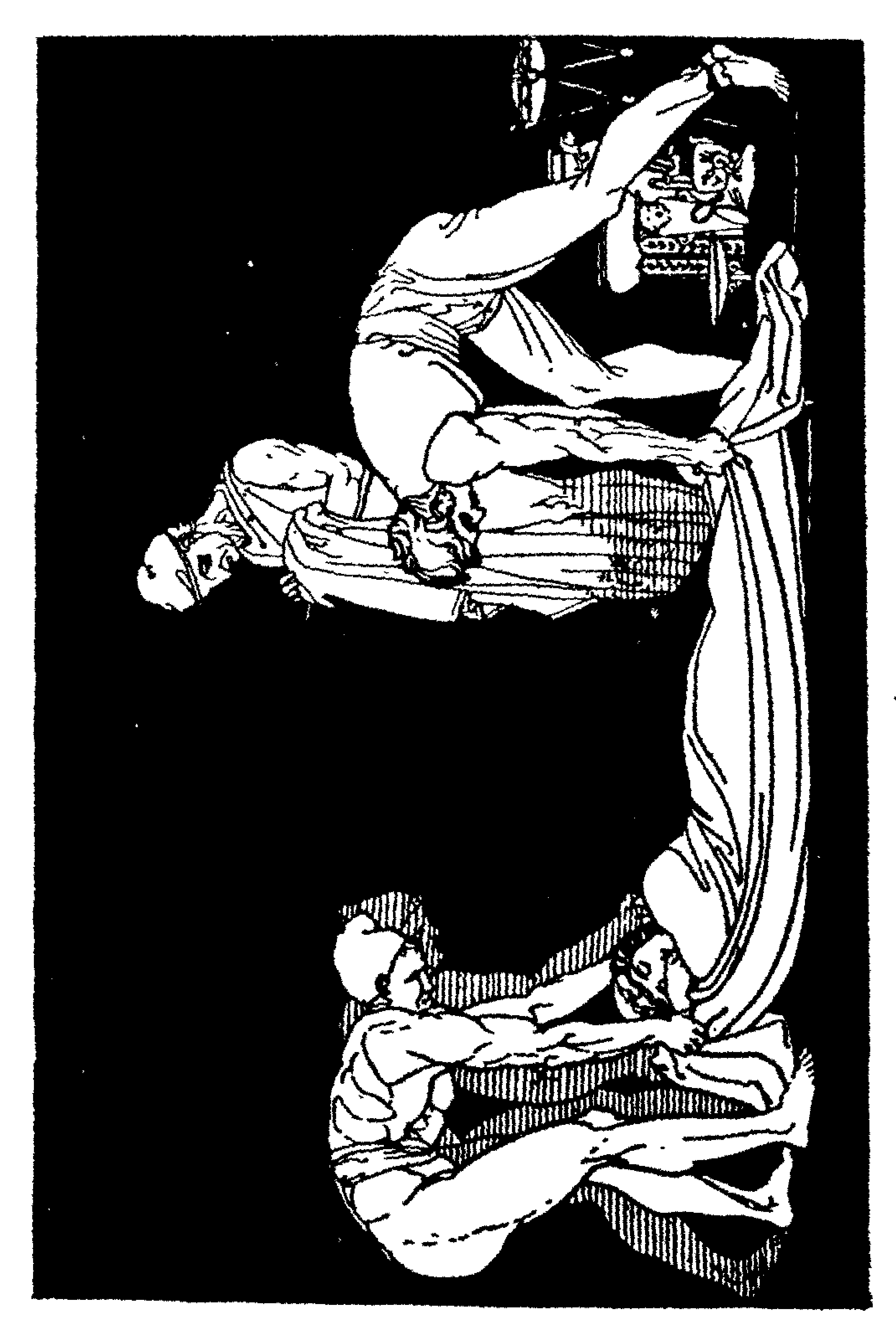
فوقف هذا الرجل عند السفينة وقـال : « اصدُقوني الخبر ، وقولوا من أنتم ، ومن أي البلاد قدمتم » .

فأجابه تلماخ : « إني مخبرك بكل شيء أيها الغريب . أنا من إيثاكة وأبي هو أوذيس . وقد خرجت في سفينتي أتسقط أخباره » .

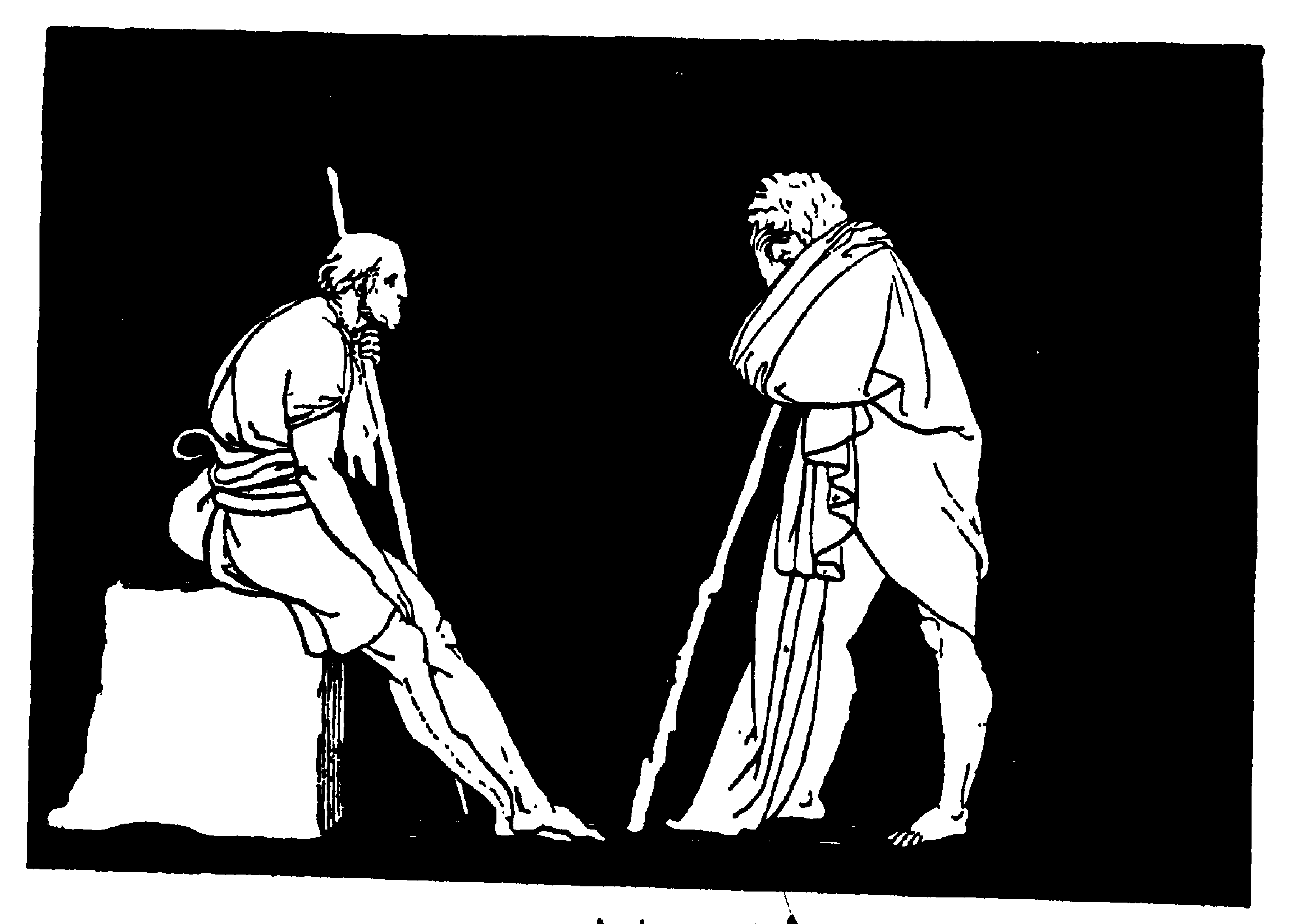
فقال العراف حينئذ : « قـد هربتُ من وطني لأني قتلت أحد أفراد قبيلتي ، فخذني في سفينتك ، لأن القوم ساعون في إثري لينتقموا مني » .

فأجابه تلماخ : « إذا أردت المجيء فلن أطردك ، فتعال معنا إلى إيثاكة وسأعطيك مما عندي » .

وعلى هذا برحوا المكان ، وأرسلت أثينا ريحـاً من خلفهم ، فأسرعوا الى وجهتهم . وكان أوذيس في غضون ذلك يتناول عشاءه مع راعي الخنازير ورجاله . وقد أراد أوذيس أن يخبُر خُلق الرجـل ، فقال : إني أودّ أن أذهب في الصباح الى المدينة ، فلست أريد أن أكون عبئاً عليك . دعني إذن أذهب الى المدينة ، فقد يعطيني بعضهم كأس ماء وكسرةً من الخبز . وإني أودّ أن أقصد بيت أوذيس ذاته ، فلعلّ الخطّاب يعطونني طعاماً . وإني لقادر على خدمتهم أحسن خدمة ، فليس من هو أقدر مني على



البحارة الفيسايون ينزلون أوذيس إلى ساحل بلاده



أوذيس يحادث عموس

اشعال النار ، أو شقّ الحطب ، أو تقطيع اللّحم ، أو صبّ النبيذ » .

فقال الراعي : « الأفضل لك ألاّ تذهب إلى هؤلاء الخطّاب ، فإنهم متكبّرون متجبّرون ، وليس الذين يخدمونهم من أمثالك . إنهم شبان حسنو الصورة ويرتدون الملابس البهيّة ، ويضمّخون شعورهم بالطّيب . والأولى أن تقيم هنا ، ولن تكون عبئاً علينا . وقد يعطيك ابن أوذيس حينما يأتي معطفاً وثوباً » .

فأجاب أوذيس : « ليُباركك زفس على إحسانك إليّ ، ووضعك حدّاً لتجوالي ، فليس أشدّ على المرء من أن يكون شريداً طريداً ، ولكن الجوع يضطرّه الى ذلك . فأخبرني الآن بما تعرف عن أمّ أوذيس وأبيه . ألا يزالان على قيد الحياة ؟ »

فقال الراعي : « سأطلعك على كل شيء . إن لبرت والد أوذيس ما يزال حياً . إلا أنه يدعو كل يوم طالباً الموت لشدة ما ناله من الأسى من أجل ابنه البعيد عن وطنه ، وامرأته التي ماتت . والحق إن موتها هو الذي أتاه بالهرم قبل الأوان . وهي قد ماتت غماً وحزناً على ولدها . ونالني منها وهي في الحياة كثير من العطف والبرّ ، وقد خسرت ذلك بفقدها . وأما مولاتي بنلوب فقد نزل

بيتهـا بلاء عظيم ، ونُكِبت أيضاً بحشد مـن أشرار الرجال » .

فقال أوذيس لعموس : « قل لي الآن ما الذي أقصاك عن والديك حينما كنت لا تزال طفلاً ؟ هل دكّ الأعداء المدينة التي كان يقيم فيهـا أبوك ، أو هل وجدك بعضهم منفرداً ترعى قطيعاً من الماشية فعبروا بك البحر وباعوك ؟ »

فسرد الراعي عندئذ هذه القصة : « هنـالك جزيرة تُسمّى سوريـا ، لا يسكنها كثير من الناس ، ولكنهـا أرض خِصبة ، فيها المواشي الوافرة ، ويكثر فيها القمح والخمر . لا تنزل بها مجاعة ولا يُلِمُّ بأهلها وباء جارف . ولكن عندما تتقدم بالرجال منهم السنّ ، يرميهم افلّون بسهامه فتقتلهم من غير ألم . وأمـا النساء فتتولى أمرهنّ أرطميس . وكان في الجزيرة مدينتان ، وكان أبي يملك على كلتيهما .

« وكان في بيت والدي امرأة فينيقيـة طويلة القامـة جميلة الصورة ، صنّاع اليدين . وأتى الجزيرة جماعة من الفينيقيين في سفينة يحملون بضاعة من حُليّ النساء وأشباهها . وقد خدع هؤلاء المرأة التي كانت في منزل أبي ، وسألها أحدهم من تكون ومن أي البلاد هي ؟ فقالت له : (قد أتيت من صيدا واسم أبي أرباس ، ولكن قرصان التفيانين

سبوني ، وأنـــا عائدة من الحقول إلى منزلنا وعبروا بـي البحر ، وباعوني لسيدي بثمن باهظ) . فقال الرجل : (هل تريدين أن ترجعي معنــا إلى بلدك ، وتري أبـاك وأمك ، فإنهما لا يزالان من الأحيــاء . والمعروف عنهما أنهما من أهل الثراء) . فأجــابت المرأة : (أفعل ذلك بكل سرور إذا أقسمتم لي أن تعيدوني إلى بلدي) . فأقسموا لها كما أرادت . وعندها قالت المرأة : (الزموا السكينـة الآن ، ولا يكلّمني منكم أحد أو يُحيّيني إذا مـا لقيني اتفاقاً في المدينة أو عند عين الماء . فقد ينقل أحدهم الخبر إلى مولاي ، فيوثقني عندئذ ويفتك بكم . ولكن عندمـا تكملون شحن سفينتكم أرسلـوا إليَّ مـن يخبرني في بيت سيدي فآتيكم ومعي كل ما تقع عليه يدي من التُّحف . ثم إني أدفع عن رضىً شيئاً آخر أجراً لسفري . وذلك أني حاضنة لابن سيدي ، وهو صبيٌّ صغير يلازمني في غدواتي وروحاتي . وسآتيكم به ، وتقدرون أن تبيعوه بثمن كبير) .

« وقد أقام هؤلاء الغرباء في أرضنا سنة كاملة جمعوا فيها أموالاً طائلة . وفي نهاية السنة أرسلوا إلى المرأة الفينيقية إشارة ، بـأن لجأوا إلى وسيلة حكيمة . فقد قدم أحدهم إلى منزل والدي ، ومعه سلسلة ذهبية انتظمت فيها كُرات من الكهرباء . وفيما كانت أمي والوصيفات يتداولن السلسلة

في البهو ويساومنَ فيها ، أومأ الرجل إلى المرأة خُفيةً ، ثم برح المكان بعد قليل . فأخذت المرأة بيدي وأخرجتني، فألفت لدى خروجها ثلاث كؤوس ، حيث كان ضيوف والدي يقصُفون ، فأخذتها وخبأتها في صدرها ، وتبعتُها وأنا لا أدري من أمري شيئاً . وانحدرنا إلى السفينة ، وقد أقبل الليل ، فحملنا الفينيقيون إلى ظهرها ، ونشروا القلوع، وأرسل زفس ريحاً مؤاتية . وظللنا نسير في البحر ستة أيام . وفي اليوم السابع رمت أرطميسُ المرأة بسهامها فسقطت في جوف السفينة . فألقاها الرجال في البحر فريسة للأسماك ، وبقيت أنا كئيباً حزيناً . ودفعتهم الريح إلى إيثاكة ، فاشتراني ليرت ، وعلى هذه الصورة قدمت هذه البلاد » .

فقال أوذيس عندئذ : « لقد منحك الأرباب الخير والشرّ على السواء . فهم قد دفعوك إلى بيت رجل كريم ». ثم اضطجع الاثنان وناما .

١٧

اوذيس وتليماخ

وصل تليماخ في سفينته سالمـــاً إلى إيثاكة ، الى أقرب مكان من بيت راعي الخنازير . وهناك أرسى رجاله السفينة، فثبتوا مقدمتها بالمراسي وشدوا مؤخرتها بالحبال ، ثم نزلوا إلى البرّ وأعدّوا لهم طعاماً .

ولما تناولوا كفايتهم من الطعام والشراب قال تليماخ : « خذوا السفينة الآن إلى المدينة ، وسأوافيكم الى هناك في المساء بعد أن أعرّج على مزرعتي ، وعندئذ أدفـــع لكم أجوركم ».

حينئذ قال ثيوكليان : « إلى أين تريـــد أن أذهب يا ولدي ؟ هل أذهب إلى أي بيت في إيثاكة ، أم أذهب إلى بيت أمّك ؟ »

فأجاب تليماخ : « لو كانت الأيام غير هـــذه الأيام لدعوتك إلى منزلنا نفسه ، حيث كل ما بـــه يُرفّه عن الضيوف ، وأما الآن فالأمر عسير ، لأني لا أكون هناك. ثم إن أمي لا تقابل أحداً ، ولا تبرح تنسج في مخدعهـــا على منوالها . فاذهب إذن إلى بيت أوريماخ ، فهو أفضل الخطّاب ، وأجدرهم بالاحترام . وأما ما سيكون مصيره ومصير رفاقه ، فهذا ما ليس لي به علم » .

وفيما هو يتكلم ، طـــار عن يمينه صقر يحمل بمخالبه حمامة . ونتف الصقر ريش الحمامة ، ونثره عـــلى الأرض ما بين ثيوكليمان والسفينة .

عندئذ أخـذ العرّاف تليماخ جانباً وأسرّ اليه : « ان طيران هذا الصقر كان من عمـــل الأرباب . وليس في ايثاكة بيت أحقّ بأن يكون بيتاً ملكياً من بيتك ، وستكون لك السيادة عما قريب » .

ثم خاطب تليماخ فيروز ، وكان يؤثره بثقته على سائر رفاقه ، فقال : « خذ هذا الغريب الى منزلك ، وأحسن وفادته الى حين قدومي » .

فأجاب فيروز : « ثق يا تليماخ أنه لن يعوزه شيء من أسباب الانبساط مهما طالت اقامتك » .

وبعد هذا اتجهت السفينة إلى المدينة . وصعد تليماخ إلى بيت الراعي . وكان الراعي وأوذيس قد أشعلا النار ، وأخذا في إعداد طعام الفَطور . وسمع أوذيس وقع خطوات إنسان ، ولم تنبح الكلاب ، فقال لعموس : « ها إن أحد الرفاق أو الأصدقاء قادم إلينا لأن الكلاب لم تنبح » .

وفيما هو يتكلم وقف تليماخ بالباب ، فأسقط الراعي من يده الطاس الذي كان يمزج فيه النبيذ ، وبادر اليه وأخذ يقبل رأسه وعينيه ويديه ، كما يقبل والد ولده الوحيد ، لدى عودته من بلد بعيد بعد غيبة عشر سنين . ولما دخل تليماخ ، نهض السائل المتنكر مع أنه والده حقاً ، وأراد أن يتخلى له عن مكانه ، ولكن تليماخ لم يدعه يفعل . وبعد أن أكلوا وشربوا ، سأل تليماخ الراعي عن هذا الغريب ومن يكون .

فأخبره الراعي بخبره كما سمعه ، ثم قال : « انني أُسلم أمره إليك ، فهو مستجير بك ، فافعل ما تشاء » .

ولكن تليماخ أجاب : « كلا يا عموس ، وهل أنا السيد في بيتي ؟ ألا يبدد الخطّاب أموالي ؟ ثم أليست والدتي في ريب من أمرها ، لا تدري أتقيم معي وتذكر أوذيس العظيم الذي كان زوجها ، أم تتبع أحد هؤلاء الذين جاءوا يخطبون ودّها ؟ سأعطي هذا الغريب طعاماً

وكساءً وسيفاً ، وأرسله إلى حيث يشاء ، ولكني لا أُحب أن يكون بين هؤلاء الخطاب ، لأنهم قساة متكبرون » .

فقال أوذيس : « ولكن لماذا تحتمل كل هذا من هؤلاء الرجال ؟ فهل يكرهك قومك حتى لا تقدر على الانتقام من هؤلاء ؟ أوليس لك من ذويك من يعينك عليهم ؟ ولو كنت أنا مكانك لفضلت الموت على أن أرى أموراً شائنة كهذه تقع في منزلي » .

فأجاب تلماخ : « إن قومي لا يكرهونني ، وأما الأهلون ذوو قُرباي فليس لي منهم أحد ، لأن أكريسيوس لم ينسل سوى لبرت ، ولم يُنجب هذا غير أوذيس، وليس لأوذيس ولد غيري . ولهذا ينهب هؤلاء القوم رزقي لا يخشون رادعاً ، وقد يسلبونني حياتي . وعلى كلٍّ فأمر هذا كله منوط بالأرباب . ولكن اذهب أنت يا عموس إلى بنلوب، وأخبرها برجوعي ، ولا تدع أحداً من الرجال يدري بذلك ، لأنهم يريدون بي شراً ، وسأقيم هنا ريثما تعود » .

فذهب عموس ، ولم يكد يبرح المكان حتى ظهرت أثينا في هيئة امرأة طويلة القامة جميلة الصورة ، ولم يرها تلماخ إذ لم يُعطَ الجميع أن يرَوا الأرباب الخالدين . غير أن أوذيس رآها ، ورأتها الكلاب فهرّت رُعباً . وأشارت إلى أوذيس فخرج ، وقالت له :

« لا تخف الأمر على ولدك ، بل دبّر معه وسيلةً لإهلاك هؤلاء الخطّاب ، وها أنا معكما » .

ثم مسّته بصولجانها الذهبي فخلعت عليه أولاً ثوباً قشيباً من الكتان وصداراً جديداً . ثم جعلته أطول قامة وأجمل صورة . فغدا أشدَّ سمرةً ، واستدارت وجنتاه وانتشرت لحيته سوداء على ذقنه .

فعلت هذا وغادرت المكان . ولما دخل أوذيس الكوخ نظر اليه ابنه وأخذته دهشة عظيمة ، وقد خشي أن يكون إلهاً من الآلهة ، فقال : « لا ريب أيها الغريب أنك غير ما كنتَ منذ هنيهة ، فقد كانت ثيابك غير هذه الثياب ، وكان لون جلدك غير هذا اللون . ولا بدّ أن تكون إلهاً هبط من السماء . فأنظرنا نقدّم لك القرابين لكي ترفق بنا وترحمنا ! » فأجاب أوذيس : « لست إلهاً يا بُنيّ ، بل أنا أبوك الذي احتملتَ الهموم الجمّة باحثاً عنه » .

قال هذا وقبّلَ ابنه ، فانحدرت دمعة من عينه بعد أن حبس دمعه طويلاً . غير أن تليماخ أجاب ، وكان لا يزال في شك من أن يكون محدّثه أباه حقاً :

« لا يمكن أن تكون أبي ، وما ظني إلا أن أحد الآلهة يخدعني ليزيدني حزناً على حزن ، فليس في قدرة

بشر فانٍ أن يأتي من تلقاء نفسه ما أتيتَ ، فيكون فتيً تارةً وشيخاً تارةً أخرى ، على ما يشاء . فقد كنت منذ هنيهة شيخاً ترتدي أسمالاً بالية ، وها أنت الآن كأحد أرباب السماء » .

فأجابه أوذيس قائلاً : « لا يليق بك يا تليماخ أن تدهشك عودة والدك إلى وطنه إلى هذا الحد . فأنا أبوك حقاً ، وقد عُدت بعد أن غبت عشرين سنة عانيت فيها أهوالاً كثيرة ، وضربت تائهاً في آفاق الأرض . وهذا ، الأمر الذي أدهشك مني إنما هو من عمل أثينا ؛ فهي التي تجعلني حيناً في مظهر شيخ متسوّل ، وحيناً في مظهر شاب فتيّ يرتدي أفخر الثياب » .

قال هذا وجلس ، فارتمى تليماخ على عنق أبيه ، وأخذ يبكي ويذرف الدمع الغزير . وجعل الاثنان ينتحبان ، كما ينتحب زوج من النسور أو العقبان أُخذت فراخها من العشّ ، قبل أن ينبت عليها الريش . وبقيا على ذلك حتى غياب الشمس . وأخيراً قال تليماخ لأبيه : « أخبرْني كيف رجعت يا أبي ؟ »

فأجابه أوذيس وقال : « لقد أعادني الفيسيانيون من بلدهم في أثناء نومي ، بعد أن زوّدوني بالعطايا الكثيرة ، وقد خبأتها في كهف ، وقصدت هذا المكان عملاً بنصح

أتينا لكي نضع معاً خطة نقضي بها على الخطّاب . فأعلِمني الآن كم عددهم وأيّ نوع من الرجال هم ؟ وهل نقدر نحن الاثنين أن نحاربهم أم هل نحتاج الى معونة غيرنا » .

فقال تلماخ : « إني اعرف يا أبي أنك حكيم كبير ومحارب عظيم ، ولكنّ ذلك أمرٌ لا نقدر عليه ، لأن هؤلاء الرجال ليسوا عشرةً ، ولا ضِعفَيْ هذا العدد ، فقد قدم منهم اثنان وخمسون من دوليخيوم ، وأربعة وعشرون من صاموس ، وعشرون من زاسِنثوس ، واثنا عشر من إيثاكة ، ومعهم ميدون الداعية ، ومنشد أيضاً وحشد من الحَشم » .

فقال أوذيس : « إذهب غداً صباحاً إلى البيت واختلط بالخطاب ، وسآتي أنا في هيئة سائل شيخ . وإذا ما ساموني خَسفاً ، فاحتمل ذلك ، وإن جرّوني إلى الباب . ولك إن شئت أن تتفوّه ببضع كلمات حكيمة ، ولكنهم لن يحفلوا بك ، لأن هلاكهم قد دنا . ثم عليك أيضاً أن تتنبّه لهذا : حينما أعطيك الاشارة ، اجمع كلّ ما في البيت من الأسلحة وخبّئها في غرفتك . وإذا ما سألوك عن السبب الذي دعاك إلى هذا ، فقل إنك تخشى عليها الدخان ، وإن حالها قد تغير فلم تعد كما تركها أوذيس حينما ذهب إلى طروادة ، بل ذهب الدخان برونقها .

وقل أيضاً إنـــه قد يثور بينهم خصام وهم عاكفون على كؤوسهم ، فليس يحسن أن يكون السلاح في مُتَنَـــاول أيديهم ، فإن مجرد رؤية الفولاذ تحمل الرجل على القتال، ولكن استَبْقِ سيفين ورمحين ودرعين لتكـون لي ولك ، وإياك أن يدري أحد بعودتي حتى ليرت والراعي وبنلوب نفسها » .

وأقبلت سفينـة تليماخ في غضون ذلك على المدينـــة ، وحُملت الهدايا إلى بيت كايثيوس ، وذهب أحد الدعاة إلى القصر يحمل إلى بنلوب الأنبـاء كيلا تجزع على ابنهـــا . وهكذا قدم الاثنان وهما الراعي والداعية في مهمّة واحدة . وتكلم الداعيـة في محضرٍ من الوصيفات فقـــال : « أيتها الملكة ، إن ابنك قد رجع من فيلوس ! » وأما الراعي فصعد إلى مخدع بنلوب ، وأخبرها على انفراد بمـــا أمره تليماخ . ولما فعل ذلك قفل راجعاً إلى بيته وإلى الخنازير .

وأقلق هذا النبأ أفئدة الخطاب ، فقال أوريماخ : « ان ما أقدم عليه تليماخ فيه من الجرأة مـــا فيه . فها هو قد آب من رحلته التي زعمنا أنه لن يعود منها . فلنجمع إذن جماعـــة من المجذفين ولنرسل سفينة إلى أصدقائنا ونسألهم العودة الينا في أسرع ما يستطيعون » .

وفيما كان أمفينوموس يتكلم ، حانت منه التفاتة، فرأى

السفينة في المرفإ ، ورأى الرجال يُنزلون الشُّرُع ، فقال ضاحكاً : « لا داعي إلى رسالة نوصلها إلى رجالنا ، فها هم أنفسهم قد عادوا . فقد يكون أحد الأرباب أنبأهم بالواقع ، أو يكونون قد شاهدوا سفينة تليماخ على مقربة منهم ، فلم يتمكنوا من اللحاق بها » .

واتجه الخطاب من ثَمَّ إلى مكان الاجتماع ، فوقف فيهم أنطينُوس وقال : « انظروا كيف نجَّت الأرباب هذا الرجل ! فقد كان كشافونا لا يبرحون في النهار يرقبون من أعلى الرؤوس ، ويحلُّ الواحد منهم محل الآخر . ولم نكن عند مغيب الشمس نتلبَّث على الساحل ، بل كنا نسير فوق الماء منتظرين الصباح . وها قد أرجعه أحد الأرباب مع ذلك إلى وطنه . ولكننا سنورده أخيراً مورد الهلاك ، لأننا لن نتمكن من تنفيذ مأربنا ما دام على قيد الحياة . فلنسرع قبل أن يجمع قومه ، ويطلعهم على المكيدة التي دبرناها له ؛ لأنهم سيكرهوننا حينئذ ونُطرد من الأرض . فعلينا والحالة هذه أن نفتك به ، إما في البرية وإما في الطريق ، ونقتسم أمواله فيما بيننا . غير أننا نترك البيت لأمه ، ولذلك الذي سيتزوجها . ولكن إذا كنتم تؤثرون أن يظل حياً فلن نبقى هنا لالتهام أرزاقه ،

وليذهب كلٌ منا إلى منزله . ثم نبعث في خِطبة الملكــة من أماكننا ، ونرسل اليها هدايا الزواج ، إلى أن يتمكن أحدنا من إقناعها » .

عندهــا تكلم أمفنوموس ، ولم يكن في الخطّاب أكثر منه إدراكاً ، فقال : « لست أرغب أيها الأصدقاء في أن يُقتل تليماخ ، فإن قتل ابن ملك مِن الأمور المخيفــة . فلنَستخِر الأرباب في شأنه أولاً ، حتى إذا جــاء وحي زفس بالموافقة ، قتلته أنا بيديَّ هاتين . وأما إذا جاء بالمنع فإني أصدُّكم عما تقصدون » .

وعلى أثر ذلك تركوا مكــان الاجتماع ، وذهبوا إلى بيت أوذيس . وقد علمت بنلوب من الداعية ميذون بتآمر الخطاب على قتل ابنهــا ، فذهبت إلى البهو ، تصحبها وصيفاتها ، ووقفت بالباب ممسكة بنقابهــا أمام وجهها ، وتكلمت فقالت : « يزعم الناس يا أنطينوس أنك أفضل أمراء إيثاكة رأيــاً وأحسنهم منطقــاً ، ولكني لا أجدك كذلك حقاً . فكيف تأتمر بولدي غير مكترث للأرباب ، وغير ذاكر حسن الصنيع ؟ ألا تذكر هرب أبيك إلى هذا البيت خشيةً من غضب القوم ،وكان قد انضم إلى القراصنة التفيانيين ، وغزا قوماً مسالمين لنا . فأراد الشعب لهذا قتله ونهب متاعه ، ولكن أوذيس حال دون ذلك . وها أنت

الآن تعيث في بيت هذا الرجل عينه وتهمُّ بقتل ولده » .

فأجاب اوريماخ : « عليك بالشجاعة يا بنلوب الحكيمة، ولا ينزعج فؤادك . إن الرجل الذي يرفع على تليماخ يداً لم يولد ، ولن يولد ما دمت حياً على وجه البسيطة . ومن تسوِّل لـه نفسه ذلك ، يتدفّق دمه في الحال عـلى سِنان رمحي . فكم من مرّة أجلسني أوذيس على ركبتيه ، وأطعمني من الشّواء ، ورفع كأس النبيذ إلى شفتيّ . ولهذا كان تليماخ أعزّ الرجـال عندي . فلا تخشيْ عليه الموت بيد الخطّاب ، وأمّا إرادة الأرباب فلا قِبَلَ لأحدٍ بتفاديها» .

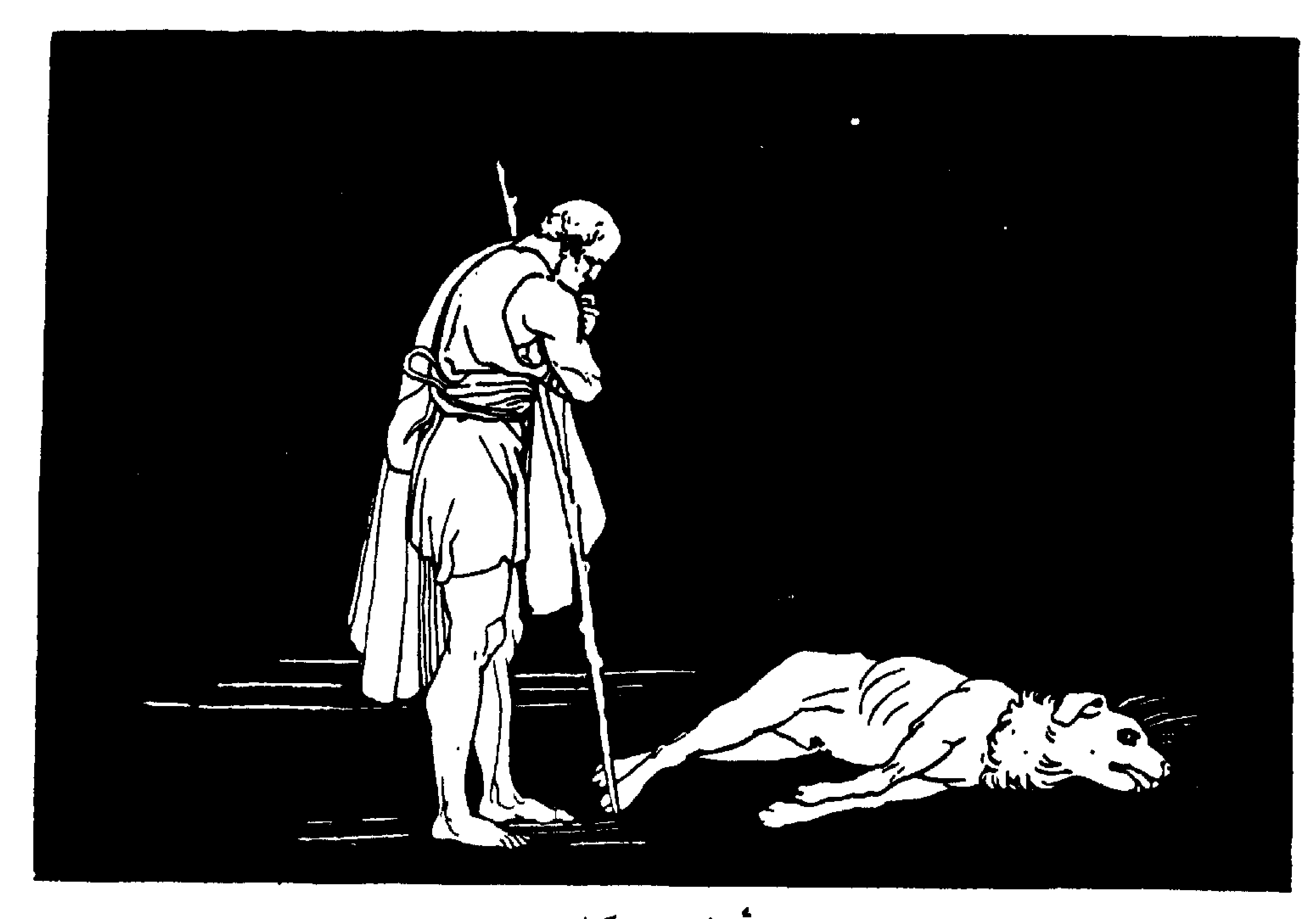
قال هذا آملاً أن يُلقي الطمأنينة في رُوعها ، وقـد كان مع ذلك لا يبرح يأتمر بولدها . وصعدت بعد ذلك إلى عُلّيتها تبكي سيّدها ، حتّى أرسلت أثينا على عينيها النوم الهنيء . ورجع الراعي في أثناء ذلك إلى بيته . وقبل وصوله أعادت أثينا أوذيس إلى هيئة السائل التي كان عليها، لئلا يعرفه فيخبر بنلوب بالأمر .

وخاطبه تليماخ قائلاً : « ما هي أخبار المدينة ؟ هـل رجع الخطّاب مـن كمينهم أم هل لا يزالون يرقبون سفينتي ؟ »

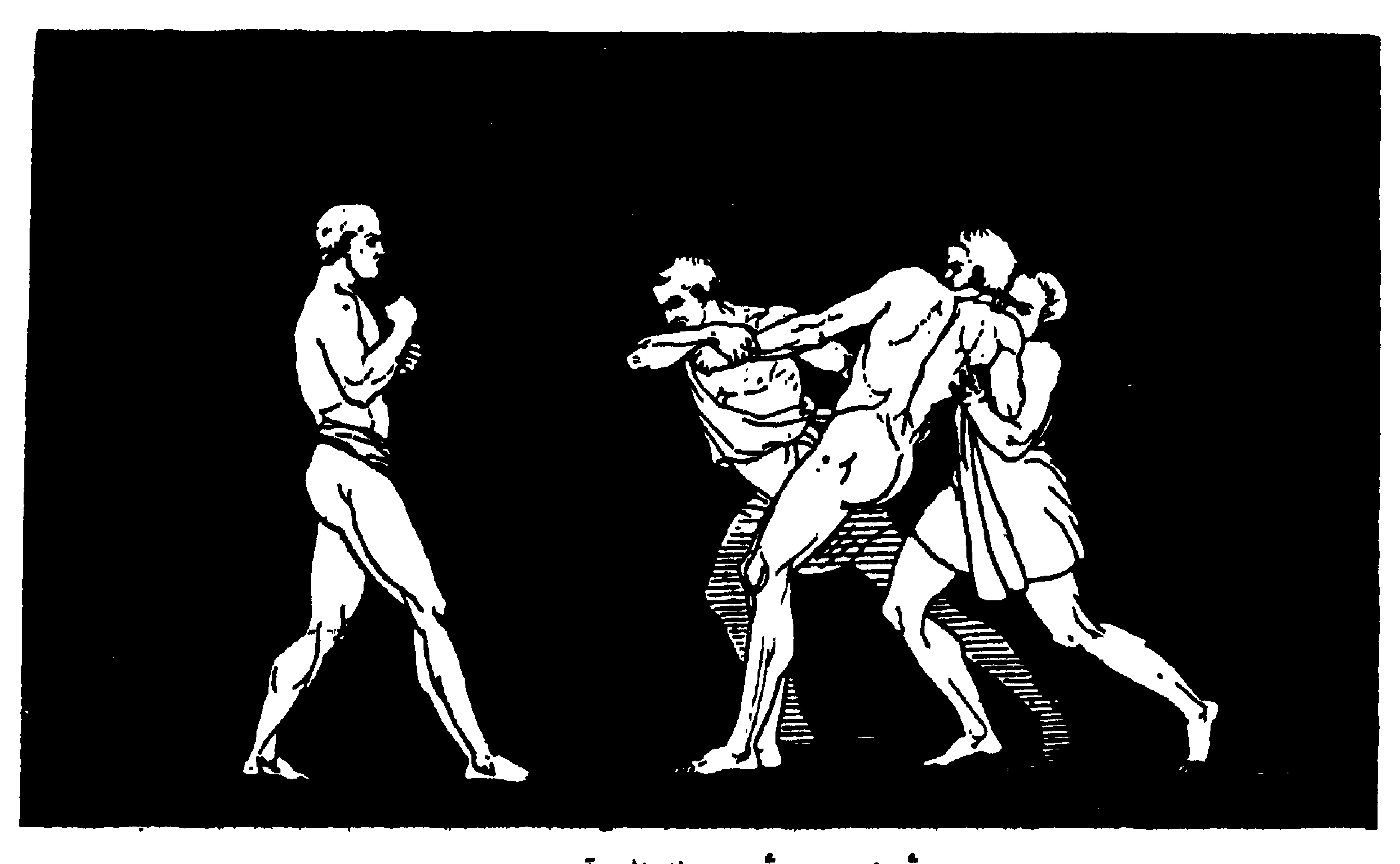
فأجاب عموس : « إنني لم أفكّر في التطواف في أرجاء

المدينة وإلقاء الأسئلة على الناس ، غير أني مُخبرك بما أعرف . فاعلم أن رسولك قد انضمّ إليّ ، وكان أول من بلّغ الملكةَ الأخبار . واعلم أيضاً أني رأيت سفينة تدخل الميناء حاملة الرجال الكثيرين والرّماح والدروع ، وقد يكون هؤلاء هم الخطّاب ، ولكنني لست من ذلك على يقين » .

فنظر تليماخ إلى أبيه ولكنه تحاشى من عين الراعي .



أوذيس وكلبه



أوذيس يتأهب اقتال آوريس

١٨

أوذيس في بيته

لما أقبل الصباح ، قال تلياخ للراعي : « إني ذاهب إلى المدينة ، لأن أمي لن يُرْضيها إلا رؤية وجهي بالذات. وأمّا هذا الغريب فخذه إلى المدينة ليستعطي خبزه هناك ممن قد يكترث للعطاء » .

عند هذا تكلم أوذيس فقال : « وأنا أيضاً لا أريد أن تُغادرني هنا يا صديقي ، فالاستعطاء في المدن خيرٌ منه في الريف . فاذهب أنت وسألحق بك حينما تشتد حرارة الشمس ، لأنّ ملابسي قد رثّت إلى الغاية وأخشى أن يهرأني البرد » .

فسار تلياخ في سبيله ، وهو يكيد الشرّ للخطّاب .

ولما بلغ بيته بصُرت به حاضنته أوريكليا أولاً ، فبادرت إليه وقبلته ، وهبطت بنلوب من عُليّتها ، فطوقته بذراعيها ، وقبّلت وجهه وعينيه وقالت : « ها قد رجعت يا تلماخ ، يا نور عينيّ ! وقد ظننت انني لن أراك ثانيــة . ولكن أعلمني بأي نبأ جئت عن أبيك ؟ »

فأجاب تلماخ : « لا أقدر أن أقول شيئاً من هــذا الآن . فاذهبي إلى مخدعك ، وانذري الضحايا للأرباب ، ليمنحونا الانتقام ممن أساءوا إلينــا . وسأذهب الآن إلى السوق لآتي برجل غريب قد أحضرتُه من فيلوس ، وطلبتُ إلى فيروز أن يُعنى به الى حين قدومي » .

ففعلت بنلوب ما أشار بــه ، ولكن تلماخ ذهب إلى مكان الاجتماع ، وألقت عليه أثينا روعة أدهشت جميع من رآه . وقد تجنّب الخطّاب ، وقصد إلى حيث كــان منطور وغيره من أصدقــاء بيته مجتمعين . وجاء فيروز بعدئذ يقود الغريب ، وتكلم فقــال : « مُر النساء أن يذهبن حالاً إلى بيتي ، لكي يُحضرن الهدايا التي أعطاك إياها مانيلا » .

ولكن تلماخ أجاب : « كلا فإننا لا نعلم مـا ستكون العاقبة . فإذا نهب الخطاب أموالي ، فإني أفضل أن تكون

الهدايا من نصيبك على أن يستولوا هم عليها ، وأما إذا هلكوا فستحضرها أنت إلى منزلي » .

ثم قاد الغريب إلى بيته ، وأمر أن يُقدّم له الطعام والشراب .

ولما أنهوا الطعام قالت له بنلوب : « إني ذاهبة إلى غرفتي ، ولكن أخبرني أولاً هل لديك نبأ عن أبيك ؟ » .

فأعاد عليها تلياخ كل ما أخبره به نسطور ومانيلا . ولما انتهى تكلم ثيوكليان العرّاف فقال : « اسمعي الآن يا زوجة أوذيس ، وليكن زفس ، ومائدة أوذيس هذه المضيافة ، وهذا الموقدُ شهودي على صدق ما أقول، إن أوذيس يقيم الآن في أرضه وبلاده ، يدبّر الهلاك للخطاب . وإني لأعلم هذا علم اليقين ، لأن البشائر التي رأيتها في غاية الوضوح » .

فأجابته بنلوب : « لِتمنحنا الأرباب تحقيق ذلك أيها الغريب ! ولن تَنْقُصك عند ذلك حسن العطاء » .

وكان الخطاب آنذاك يتلهّون برفع الأثقال ورمي الهدف بالرماح في مُنبَسط من الأرض . ولما حان موعد العشاء

قال ميذون الداعيـة : « هلموا الآن إلى عشائنا ، فليس أفضل من تناول الطعام في حينه » .

وهكذا تهيأوا للوليمة .

وكان السائل الزائف حين ذاك قادمـــاً إلى المدينة مع عموس . ولما اقتربا منها ، قادمين بطريق النبع الذي حفره إيثاكوس واخوته ، حيث يقوم أيضاً هيكل للحوريات ، لقيهما ملانثيوس راعي المَعز ، فأغلظ لعموس في الخطاب، وأنحى عليه باللوم لإحضاره هذا المتسول إلى المدينـــة . ثم دنا منهما وضرب فخذ أوذيس برجله ، ولكنه لم يزحزحه عن مكانه . وفكّر أوذيس هنيهة هل يضربه بهراوته فيقضي عليه ، أو يطرحه على الأرض ، ولكنـه رأى الأوْلى في أن يصبر على الأذى » .

ولكن عموس رفع يديه وقال : « ليت حوريات النبع يُحققن رجائي ، فيرجع أوذيس إلى بيته ، ويجردك من زينتك هذه التي أتيت بها إلى المدينة مخلفاً القطيع ، ليسطو عليه أشرار الرعاة ! » .

ثم واصلا السير إلى القصر . وكـــان الكلب أرغوس الذي رباه أوذيس بيديه رابضاً عند بـاب رَحبته . وقبل أن يبلغ هذا الكلب أشُده ، سافر أوذيس إلى طروادة ،

وقد استخدمه الرجال للصيد لمـــا كان قوياً ، فصاد معهم المـــاعز البري ، والوعل ، والأرنب ، وأمـــا الآن فقد كان راقداً على المزبلـــة ، ينغَر القمل في جسمه . وقد عرف الكلب مولاه ، ولما لم يقدر على الدنوّ منه حرّك ذنبه وأرخى أذُنيه .

فلمّا رآه أوذيس مسح دمعـــة وقال : « حقاً ، يا عموس ، إنه لأمر غريب أن يُلقى كلبٌ كهـذا جيّد السُّلالة على المزبلة » .

فأجاب عموس : « إنـــه كلب مات صاحبه بعيداً . ولما كان هذا الكلب فيما مضى لأوذيس كان أقوى الكلاب وأسرعها ، وأما الآن ، وقد هلك سيدي العزيز بعيداً ، فلا توليه النساء المهمِلات شيئاً من العنايـــة . ومتى غاب السيد أهمل العبيد واجبهم ، ولا يـدع فالاسترقاق يُفقـــد الإنسان نصف مزاياه » .

وفيما كان يتكلم ، مات الكلب ارغوس ، فقد انتظر عشرين عاماً ثم رأى سيده أخيراً .

وبعد ذلك دخل الاثنان البهو ، ولما رآهما تلماخ أخـذ مـن السلّة خبزاً ولحماً بقدر مـا تمسكه يداه ، وطلب أن يُعطى ذلك للسائل ، وأن يُقال له إنه يقدر أن يدور على

الخطّاب ، ويطلب منهم صدقة . وعلى هذا طاف بالخطّاب مادّاً يده مستعطياً . فأعطاه بعضهم ، وقد أخذتهم الرأفة به وعجبوا لرؤيته ، وسأله بعضهم عن نفسه من يكون . ولكن أنطينوس كان أقلّهم حياءً . فقد أقبل عليه أوذيس ، وأخبره بما كان له من الثروة الطائلة والقدرة في سالف الأيام ، وانه ذهب إلى مصر ، وبيع بَيع الرقيق في قبرص ، فهزأ به أنطينوس قائلاً : « تنحَّ عن مائدتي ، وإلا وجدتَ مني أسوأ مما وجدت في مصر وأشدّ مما لاقيت في قبرص » .

فقال أوذيس : « لا ريب في أن لك نفساً شريرة ، وإن كان جسدك جميلاً . فإنك تجلس إلى طعام رجل سواك ، ومع هذا فلا تعطيني شيئاً » .

فأمسك انطينوس عندئذ بالموطإ الصغير من تحت قدميه ، وضرب به أوذيس ، غير أن هذا ثبت في مكانه كالصخر ، وجالت في نفسه فكرة الانتقام . وذهب وجلس عند الباب ، وقال وهو في ذلك المكان :

« أصغوا إليّ يا خطّاب الملكة ! ينبغي للإنسان ألا يغضب إذا ما ضُرب وهو يقاتل من أجل ماله ، ولكنّ انطينوس ضربني لأني فقير . فلتحلّ عليه إذن لعنة الجائع إلى يوم زواجه ! »

فتكلم انطينوس عند ذلك وقال : « اجلس أيها الغريب وكل خبزك صامتاً ، لئلا يطردك الفتيان ، أو يجرّدوا لحمك عن عظامك » .

قال هذا في وقاحة وصلَف ، ولكنّ الآخرين لاموه قائلين : « بئس ما فعلت بضربك هذا الفقير الجوّابة . فقد تجرّ فعلة كهذه الهلاك ، إذا كان في السماء إلَه . وكثيراً ما يتخذ الآلهة هيئة البشر ، ويجوسون خلال المدن ليقفوا على ما يجري فيها من أعمال الصلاح أو أعمال الطّلاح » .

أما انطينوس فلم يكترث لذلك ، وأما تليماخ فقد اغتمّ أشد الاغتمام لرؤيته أباه يُضرب على هذا الوجه ، ولكنه لم يذرف مع ذلك دمعة ، بل جلس ساكناً يفكّر في هلاك الخطاب . ولما سمعت بنلوب كيف ضُرب الغريب في البهو ، خاطبت وصيفاتها قائلةً : « هكذا فليضرب أفلّون النابل أنطينوس ! » .

وقالت أورينومة قيّمة البيت : « ليت دَعَواتنا تُستجاب ! إذن لما عاش واحد من هؤلاء الأشرار ليرى هذا اليوم غداً » .

فأجابت بنلوب : « أجل أيتها الحاضنة . كلّهم

عدوّ ، ولكن انطينوس أشدّهم عداوة . حقاً إنه بغيض كالموت » .

ثم دعت بنلوب الراعي ، وقالت : « اذهب الآن وجئني بهذا الغريب . فإني أرغب في أن أرحّب به ، وأسأله هل سمع بأخبار أوذيس ، وقد يكون رآه بعينيه ، لأنه على ما يظهر قد طوّف بعيداً في آفاق الأرض » .

فأجاب عموس : « حقاً ان هذا الرجل سيفتن لُبّك أيتها الملكة ! وقد أبقيته في مسكني ثلاثة أيام لم يكفّ فيها عن التحدث بمصائبه . وكما يفتن منشد الأغاني الجميلة قلوب الناس ، هكذا فتنني هذا الرجل . وهو يقول إنه كريتي ، وإنه سمع أن أوذيس ما يزال حياً ، وأنه سيأتي بالكثير من الأموال إلى بيته » .

فقالت بنلوب : « اذهب وادعُ هذا الغريب لكي أحادثه . ألا ليت أوذيس يعود حقاً ! ليته يبادر هو وولده إلى الانتقام من هؤلاء الرجال لكل ما صنعوه من الشر ! »

وفيما هي تتكلم ، عطس تليماخ ، فدوى عُطاسه في أنحاء المنزل . وعادت بنلوب وقالت لعموس : « أدعُ هذا الغريب الآن ، ألم ترَ أن ابني عطس عُطاس البركة وأنا أتكلم ؟ ان هذا الانتقام ، وايمُ الحق ، لا بدّ منه ،

ولن يفلت منه أحد ، وأما هذا الغريب ، إذا ما أدركتُ أنه يتكلم صدقاً ، فسأعطيه معطفاً جديداً وثوباً » .

وخاطب راعي الخنازير الغريب فقال : « إن بنلوب ترغب في محادثتك . والاستعلام عن زوجها . فإذا رأت أنك تقول الصدق تعطيك معطفاً وثوبـاً ، وستكون لك الحرية لتستعطي في كل أنحاء هذه الأرض . ولكن السائل الزائف قال : « سأُطلع بنلوب على قصة زوجهـا طيّب النفس راضياً ، لأنني أعرفه جيّد المعرفة . ولكني أخشى هؤلاء الخطاب . وحينما ضربني هـذا الرجل منذ حين ، بلا سبب ، لم يحُل أحد دون الضربة حتى تلياخ ذاتـه . فاذهب اذن ، وقل للملكة ان تنتظر حتى غياب الشمس ».

فذهب الراعي ، وفيما هو يجتاز العتبة قالت بنلوب : « إنك لم تحضره ! فماذ يقصد من هذا الجواب ؟ إن السائل الحيي لا يجيد حرْفته » .

فأجابها الراعي : « إنه قد أحسن صنعاً يا مولاتي بخشيته شرّ هؤلاء الرجال الوُقُح . وهو يرغب إليكِ أن تنتظري ريثما تغيب الشمس . والأولى ، ولا ريب ، أن تحادثيـه على انفراد » .

فقالت بنلوب : « سأفعل ذلك ، فإن هذا الغريب من

ذوي الفِطَن . والحقّ أن وقاحة هؤلاء الرجال تجاوزت كل حد » .

ثم اتجه إلى حشد الحطّاب ، وكلم تلماخ مُدنياً رأسه منه لئلا يسمعه أحد ، وقال « إني ذاهب لتدبير أمـــور المزرعة . فراقب أنت ما يجري هنـا ، فإن الكثيرين من الشعب يضمرون لنا كرهاً أخزاهم زِفس ! » .

فأجاب تلماخ : « إذهب يا أبي كما قلت ، وارجع في الصباح ، ومعك الحيوانات للتضحية » .

وعلى هذا برح راعي الخنازير المكان ؛ وانصرف الحطّاب إلى القَصْف ، وجعـــلوا يرقصون وينشدون لأن الشمس كانت على وشك الغروب .

١٩

أوذيس في بيته (تتمة)

وقدم بعد هنيهة شحّاذ من المدينة ، وكان ضخم الجسم أكولاً شَريباً ، غير أن قوّته لم تكن على قدر جسمه . وكان يُدعى أرنيوس ، ولكن الفتيان كانوا يلقبونه بإيروس، لأنه كان رسولهم ، تشبيهاً لـه بإيريس رسولة زفس . فخاطب هذا الشحّاذ أوذيس ، وقال :

« خلِّ مكانك أيها الشيخ ، وإلا طردتك خارجاً . وإن الفتيان ليرغبون في ذلك الآن ، ولكني أرى من العار أن يُضرب رجل مثلك » .

فقال أوذيس : « إنّ في المكان متسعاً لي ولك ، فحصّل ما أنت قادر على تحصيله ، فلن أحقد عليك لذلك.

ولكن إيــاك أن تثير غضبي ، لأني أُؤذيك عندئذ وإن كنتُ شيخاً » .

ولكن إيروس لم ينقَدْ لكلام السلام ، بل ظلّ يتحدى أوذيس ويدعوه للقتال .

ولما رأى أنطينوس ذلك سُرّ وقال : « إنهــا أفضل رياضة رأيتها في هذا المنزل . فإن هذين السائلين يتحفّزان للقتال ، فلْنَحمِلْهما على أن يتباريا » .

فسرّهم القول ، وعـاد انطينوس إلى الكلام فقال : « أصغوا إليّ يا خطاب الملكة . إننا جعلنا أحشاء المعز جانباً لعشائنا ، فلنتفق إذاً على أن نترك الغالب من هذين الاثنين يختار منها ما يحلو لــه . وأن يكون له الحق بعد ذلك في أن يأكل معنا ، وأن لا يجلس غيره عـلى المائدة في مكانه » .

فقال أوذيس : « انه يعسر على الشيخ أن يقاتل شاباً ، إلا أني سأفعل ذلك ، إذا أقسمتم لي أن لا يمد أحدكم إليّ يداً بضربة مُخالِسة ، وأنا أقاتله » .

فقال تليماخ ان الأمر سيكون كما يشاء ، ووافق الجميع على كلامه . وبعدئذ شمّر أوذيس أذياله استعداداً للقتال .

ونظر جميع الحاضرين إلى فخذيه ، فرأوهما عبْلَتين قويتين ، ورأوا رحابة منكبيه ، وشدة ساعديه . فقال أحدهم للآخر : « لن يبقى من ايروس إلا القليل لما يبدو على هذا المتسول من الجلادة » .

أما ايروس نفسه، فقد ود لو استطاع أن يتسلل ويختفي عن الأنظار ، غير أن الذين شرعوا في تشمير ثيابه أكرهوه على التقدم . وقال انطينوس : « كيف تخاف هذا الشيخ أيها المدّعي ، وهو على ما هو عليه من الشقاء ؟ ثم أصغِ إلى ما أقول : إذا ما انتصر هذا الرجل عليك ، فإنك ستطرح في سفينة ، وتؤخذ إلى أرض الملك إختوس فيصلم أذُنيك ، ويجدع أنفك، ويطرحها لكلابه » .

وتشابك الرجلان . وقد فكر أوذيس هل يضرب الرجل ضربة قاتلة أو هل يطرحه على الأرض . وظهر له أن الأمر الأخير أفضل ، فلما ساق اليه ايروس ضربته بادره بلكمة على فكّه كسرت عظمه ، فوقع على الأرض مولولاً ، وتفجر الدم غزيراً من فمه .

عندئذ علا ضحك الخطاب . وجر أوذيس خصمه إلى خارجً البهو ، وأسنده إلى حائط الفناء ، ووضع في يده عصاً وقال : « إجلس هنا ، واطرد الكلاب

والخنازير عن البـــاب ، ولكن إياك أن تجرؤ بعـد الآن وترفعها على رجل ، ولا على غريب أو سائل ، لئلا يحلّ بك أسوأ مما لقيت » .

ثم إن أنطينوس أعطى أوذيس قطعة كبيرة من الكبد، وأعطــاه أمفينوموس رغيفين ، ودعــاه إلى شرب كأس قائلاً : « ليكن السعد حليفك ، أيها الأب ، فيما بعدُ، وإن كنتَ الآن من العيش في الضرّاء » .

فأجــاب أوذيس : « إني أحسب أنك ممن يتّصفون بفرط الحكمة يا أمفينوموس . وأعرف أن أباك من عُقلاء الرجال ! فكن إذن على حذر . فليس على وجه البسيطة أضعف من الإنسان . فهو في أيام العز والصفو لا يحسب للنوازل حساباً ، ولكن متى أنزلت به الأرباب المصائب ، يعود لا حول له ولا قوة . فقد كنت أنا أيضاً واثقاً من نفسي ومن قبيلي ، وأما الآن فانظر إلى أية حالة تردّيت! فلا يُقدمن رجل إذاً على عمل من أعمال القسوة والظلم ؛ لأن زفس لا بد أن يعاقب في النهاية على مثل هذه الأعمال . وهــا إن خطاب الملكــة هؤلاء يُسيئونَ إلى ذلك الرجل الغائب عن بيتـه ، ولكنه سيعود يومــاً ويفتك بأعدائه . فبادرْ إلى الهرب مــا دام في الوقت متسع ، ولا تَلْقَــه حين مجيئه » .

وقد قال هذا ، وهو ينوي له الخير ، ولكن مخاطبه دخل القصر مكتئب القلب متوقعاً شراً . غير أنه كان قد قُضي عليه أن يموت .

وألقت أثينا بعد ذلك في رُوع بنلوب أن تظهر للخطّاب سافرةً حتى تجيش قلوبهم في صدورهم ، فيردوا مورد الهلاك ، وتنال هي كرامة أعظم عند زوجها وولدها . فخاطبت بنلوب الحاضنة وقالت : « إني أشعر لأول مرة بالرغبة في السفور لهؤلاء الخطّاب ، على شدّة كرهي لهم. وأودُّ أيضاً أن أقول لولدي كلمة أحذّره بها من الاختلاط بهؤلاء السُّفهاء ، لئلا يُلحقوا به الأذى » .

فأجابت الحاضنة : « حسناً تفعلين أيتها السيدة فاذهبي وخاطبي ابنك ، ولكن اغسلي وجهك أولاً ، وضمّخيه بالطِّيب ، لئلا تظهر آثار الدموع على خديك . فلا خير في ملازمة الحزن بلا انقطاع » .

ولكن بنلوب أجابت : « لا تُعزّيني بهذا الكلام ، ولا تطلبي أن أغسل وجهي وأُطيِّبه . فقد ذهب رُوائي يوم سافر زوجي . ولكن دعي وصيفتين ترافقانني ، فإني أخجل من الظهور وحدي بين الرجال » .

وذهبت المرأة العجوز تستعجل قدوم الوصيفتين ، غير

أن أثينا كانت لها مقاصد أخرى ، فأرسلت علـى الملكة نوماً هنيئاً ، وجادت عليها في أثناء نومها بعطاياها الخالدة. فغمرت وجهها بجمال يشبه جمال افروديت وهي ذاهبة إلى رقص ربّات الجمال . وقد جعلتها أطول قامة وأجلّ مظهراً، وأبهى من العاج وقد خرج من يد الصانع . وبعد أن أتمت عملها هذا ، برحت المكان ، واقتربت الوصيفتان .

وزايــل النوم عيني بنلوب فقالت : « ليت أرطميس تمنحني ميتة خلواً من الألم كهذه الهجعة ، كي لا أقضي ما بقي من حياتي وأنا أندب سيدي الذي رحل ولم يعد ! »

ثم جاءت ووقفت بباب البهو ، وعلى كلٍّ من جانبيها وصيفة . وقــد بدت في جمال رائع أفعم قلوب الخطّاب فدعا كلٌّ منهم في نفسه أن تكون له زوجةً .

ولكن بنلوب خاطبت تليماخ وقالت : « ما الذي دهاك يا ولدي حتى لم يعد لك من الفطنة ما كان لك في سالف الأيام ؟ فقد كنت في صغرك حاضر البديهة . وأما الآن، وقد بلغت مبلغ الرجال ، وصرت من القوام والجمال علـى ما يليق بابن ملك ، فقد ضلّ رُشدك . فأيُّ فعلة وقعت في بيتك الآن ، حينما أُسيء إلى هذا الغريب ! فلو لحقه أذى من جرّاء ذلك لَركبك العار إلى الأبد » .

فأجابها تليماخ : « لست ألومك على غضبك ، يا أماه . ولكن أنّى لي أن أحسن تدبير الأمور كلها ، ما دام أهل السوء يضايقونني . وأمّا الصراع بين إيروس والغريب ، فلم تكن عاقبته ما أراده الخطّاب ، فإن الغريب قد تغلّب عليه . وليت جميع الخطّاب ينالهم ما ناله ! فهو يجلس الآن عند الأبواب مرنّحاً رأسه ، لا يقدر على الوقوف ، ولا على الذهاب إلى بيته ، بعد أن أوهن هـذا الغريب أوصاله » .

وقال أوريماخ لبناوب : « حقـاً يا ابنة إيكاروس ، لو كان للإغريق جميعاً أن يحظوا برؤيتك ، لاحتشد في ساحتك غداً عدد أعظم من الخطّاب ، فقد فضّلتِ على سائر النساء بما لك من جمال باهر ، وقامة فارعة ، ورأي سديد » .

فأجابت بنلوب : « لقد ذوى جمالي يوم بارحني سيدي أوذيس إلى طروادة . ليته يرجع فتستقيم الأمـور ! وإني لأذكر أنه يوم رحيله أخذ بيدي ، وقال : (أيتها السيدة ، إني لأحسب أن الإغريق لن يرجعوا جميعاً سالمين من طروادة . فالطرواديون ، على ما يقال ، قوم مهروا في الطعن بالرماح ، ورمي السهام . ولذا لست أعلم أأرجع سالماً أم ألقى الهلاك أمام تلك المدينة . فعليك والحالة هذه أن تُعنَي بأبي وأمي في

غيبتي عنايتك بهما الآن ، بل أشدّ . وعندما يشبُّ ولدك ، ويغدو رجلاً ملتحياً ، عندئذ لك أن تتزوجي من تشائين).
هذا ما قاله زوجي . والآن ، وقد حدثت هذه الأمور ، فسأضطرُّ يوماً ، أنا الشقية ، إلى أن أتزوج رجلاً غيره.
ثم يحزنني أمر آخر ، وهــو أن خطّابي ليسوا كسائر الخطّاب ، فقد جرت عادة الراغبين في خطبة سيدة كريمة ، بنت رجل غني ، أن يأتوا بالخراف والثيران من عندهم ، ويهيئوا الولائم لأصدقــاء العروس ، لا أن يلتهموا رزق غيرهم من غير عوض » .

قالت هذا ، فسرّ أوذيس إذ رآها تحتال على الخطّاب لتنتزع منهم الهدايا ، في حين أنها تضمر في نفسها مقاصد أخرى .

وأجاب أنطينوس : « تقبّلي الهدايا التي نحضرهـا لك يا بنلوب ، إذ لا يليق أن تُرفض الهديّة . ولكن اعلمي أننا لن نبرح ساحتك حتى تختاري أفضلنا زوجاً لك » .

قال هذا ، فوافق الجميع على كلامــه . وأرسل كلُّ رجل منهم تابعه ليأتي بهديته . وكانت هديــة أنطينوس ثوبــاً موشى فضفاضاً في غايــة الجمال ، مع اثني عشر مِشْبكاً مــن الذهب واثنتي عشرة رَصيعــة . وكـانت هدية اوريماخ سلسلة بديعة الصنع انتظمت فيها خرزات من

الكهرباء ، وقدم أوريداموس قرطين تدلت منهما ثلاث حبات من اللؤلؤ ، وأهداها فيسَنْدَر حلية نفيسة . وقدم كلٌّ من الآخرين هدية .

عندئذ ذهبت الملكة إلى مخدعها ، وانصرف الخطاب إلى الموسيقى والرقص . وأقام أوذيس عند الموقد يُعنى بها ويراقب الرجال .

وخاطب اوريماخ أصحابه فقال : « اسمعوا يا خطاب الملكة ! لا ريب في أن الآلهة هم الذين أرسلوا الينا هذا الرجل . فما أبدع ما يُشرق ضوء المشاعل على رأسه الأصلع الذي لم تنبت عليه شعرة ! » .

ثم التفت إلى أوذيس وقال : « هل لك أيها الغريب أن تخدمني بالأجرة في مزرعتي بين الهضاب ؟ فإن أجرك يكون مضموناً ، وتعمل في جمع الحجارة لبناء الجدران ، وفي غرس الأشجار . وأعطيك خبزاً وكُسوةً ، وحذاءين لقدميك . ولكني أحسب أنك لا ترغب في العمل في الحقول ، بل تفضل أن تظل شريداً تملأ بطنك بلا عمل » .

ولكن أوذيس أجاب : « وددت يا أوريماخ لو تبارينا ، فأخذ كلٌّ منا منجلاً ، وأقبلنا على العشب نحُشّه في الربيع عندما يطول النهار ! عندها يخبر أحدنا

الآخر ، وهو دائب في عمله الى أن يمتد به المساء ، من غير أن يذوق طعاماً . وودِدتُ لو ساق كلٌّ منا نيراً شُدَّ إليه ثوران ضخمان قويّان ، أجيد علفهما ، في حقل مساحته أربعة أفدنة ! إذن لرأيت قدرتي على شق أخدود مستقيم أمامي ! ووددت أيضاً لو أثار زفس حرباً ! إذن لرأيتني في طليعة القتال ، ولم تعيّرني كما تعيّرني الآن بما عندي من شهوة للطعام . إنك مغترٌّ بنفسك كثيراً ، ولكن إذا رجع أوذيس لما اتسع هذا الباب لهربك وهرب رفاقك .

فاشتدّ حنق أوريماخ لهذا الكلام وقال : « أيها الشيخ ، سينالك مني الأذى لما فهت به من كلام سفيه ، فهل سلبت الخمرة نُهاك أم هل تعوّدت الثرثرة الفارغة ، أو هل استفزّك الفرح وأخرجك عن طورك لتغلّبك على إيروس ؟ »

قال هذا وأمسك بموطىء قدميه ، فجلس أوذيس عند ركبتي أمفينوموس خشيةً من الأمير . وأصاب اوريماخ حامل الأقداح في يده اليمنى ، وهو يصب الخمر ، فسقط الفتى إلى الوراء يئن من الألم . فقال احد الخطّاب لرفيقه « ليت هذا الغريب هلك قبل مجيئه إلى هنا ! فانظر أيّ شغب أثار . ولن يعاودنا السرور بعد هذا » .

ولكن تلماخ أجاب : « لا ريب أيها الأسياد أنكم قد طَعِمتم وشربتم . والآن ، وقد نلتم كفايتكم ، فاذهبوا

الى منازلكم واستريحوا » .

قال هذا فدهشوا لجرأته .

وقال امفينوموس : « نِعْمَ ما قال الأمير . فلنُرِق الآن الخمر للأرباب ولننصرف » .

ففعلوا ما به أشار .

٢٠

أوذيس تعرفه حاضنته

وخاطب أوذيس تليماخ وقال : « هلمّ الآن ولْنُخْفِ الأسلحة التي في البهو . وإذا ما سألك أحد الخطاب عنها فقل : (اني قد أزلتها من مكانها لأبعدها عن الدخان ، فإن حالتها تغيرت عما كانت عليه حينما سافر أوذيس ، وذهب وهجُ النار برونقها . ثم إني قد جعلتها جانباً لسبب آخر ، وهو اني خشيت أن يقع بينكم خصام ، فيجرح أحدكم الآخر ، إذا ما أخذتكم حميّا الخمر ، لأن رؤية السلاح تبعث الإنسان على الضرب) . هذا ما يجب ان تقوله للخطاب » .

فقال تليماخ لأوريكليا الحاضنة : « استبقي النساء في غرفهن ، ريثما أضع اسلحة أبي في خزائنها . فقد ذهب

الدخان بجِدتها فأصبحت قاتمة دكناء » .

فأجابت الحاضنة : « ليتك وجهت مثل هذه العناية إلى كل ما يملك ابوك ! ولكن من يحمل المشعل إذا كنت لا تريد ان تحمله أمامك إحدى النساء ؟ » .

فقال تليماخ : « سيقوم بذلك هذا الغريب ، فلست أريد ان يأكل خبزي إنسان بطّال من غير ان يأتي عملاً » .

وهكذا حبست الحاضنة النساء في غرفهن ،وأقبل أوذيس وابنه على نقل الأسلحة ، من الدروع والخوذ والرماح ، من البهو إلى خزانة الأسلحة . وقد تقدمتهما أثينا تحمل مصباحاً من الذهب بهيّ النور .

فقال تليماخ : « إن ما أراه يا أبي لإحدى المعجزات ! فانظر إلى الجدران والدعائم والأعمدة ، إنها تشرق كأنها في لهب من النار . ولا ريب في ان هذا من صُنع إلَه » .

فأجاب أوذيس : « إلزم السكون ، واحفظ الأمر في صدرك ، ولا تتقصّ سببه . فاذهب الآن واضطجع ونم ، فإني أود ان أُحادث أُمك » .

فذهب تليماخ إلى غرفته ونام ، وبقي أوذيس وحدَهُ في البهو ، يدبر في نفسه أمر الفتك بالخطّاب .

ونزلت بنلوب وجلست بقرب النار على كرسيٍّ من الفضة والعاج أُجيد صنعه ، له موطىءٌ للقدمين متصلٌ به . وحضرت الوصيفات في الحال . وحملن إلى الخارج ما بقي من فضلات الطعام والكؤوس التي شرب بها الخطاب، وركَمْنَ قطعاً جديدة من الحطب في النار .

ونادت بنلوب الحاضنة وقالت : « أحضري لي الآن أيتها الحاضنة مُتكأً ، وضعي عليه جِزةً لكي يجلس هذا الغريب ويقص عليَّ قصته ».

فأحضرت الحاضنة المُتَّكأ والجزة ، وجلس أوذيس . وتكلمت بنلوب وقالت : « أسألك أيها الغريب أولاً عن نفسك ، من أنت ؟ ومن أي مكانٍ قدمت ؟ ومن أي مدينة أنت ، وما اسم أبيك ؟ » .

فأجاب أوذيس : « لا يستطيع إنسان أن يلتمس فيكِ نقصاً أيتها السيدة، فإن صيتك صيت ملكٍ يخشى الأرباب، ويملك على شعب باسل ، وتُغِلُّ أرضه الكثير من القمح والشعير ، وتنوءُ أشجاره بما تحمل من الثمر ، وتنتجَ غنمه ولا تحول ، ويكثُر السمك في بحره ، ويحالفه النجاح في كل أموره . فسليني الآن ما تشائين ، ولكن لا تسأليني عن اسمي وقومي ومسقط رأسي لئلا أنتحب لهذه

الذكرى ، فإني رجل كثير الهموم والأحزان . وليس من اللائق أن يتفجع الانسان وينتحب في بيت غيره . وقد تراني الوصيفات ، فيحنقن عليّ ، ويقلن إني رجل أذابه الدمع كما تذيب الخمرة شاربها » .

فأجابته بنلوب : « أيها الغريب ، إن الآلهة سلبتني جمال الوجه وحسن التكوين يوم ذهب أوذيس زوجي مع الإغريق إلى طروادة . وتكتنفني الآن الهموم والأحزان ، فإن أمراء الجزر من حولنا ، وأمراء ايثاكة نفسها يخطبون ودّي على كُره مني ، ويلتهمون ما في بيتي . وقد حاولت عبثاً أن أصرفهم عن خطبتي ، فقد أوحت إليّ أثينا أن أقول لهم : (أيها الفتيان النبلاء الراغبون في تزوُّجي ، عليكم الآن ، وقد مات أوذيس ، أن تلجأوا إلى الصبر ، وإن كنتم راغبين في تعجيل الزواج ، إلى أن أنتهي من نسج هذا الثوب ليكون كفناً لِلِيرت ، إذ من العار بعد ما كان له من الثراء العظيم ، أن يأوي إلى لحده ، من غير كفن يلفّه) . قلت هذا فوافقوا على قولي . وبقيت أُخادعهم ثلاث سنوات ، إذ كنت أحوك النسيج في النهار وأنقضه في الليل . وفي السنة الرابعة أفشت الوصيفات سرّي . وليس لي الآن من الزواج

متهرب ، فوالديّ يُلحان عليّ في ذلك . وولدي يغيظه أن يرى هؤلاء الرجال يلتهمون رزقه . وهو الآن في سنٍّ تمكنه من ادارة بيتـه الخاص . ولكن تعالَ وأعلمني من أي قوم أنت ، فإنك لم تنحدر من سنديانة أو صخرة ، كما تزعم الأساطير القديمة » .

فقال أوذيس عندئذ : « إذا كنت لا تزالين راغبـة في سؤالي عن أصلي ، فإني مخبرك بذلك ، ولكنك بهذا تجلبين لي من الحزن أكثر مما أُطيق ، فمن المؤلم للرجل الذي طوّف بعيداً ، وعانى كثيراً أن يتكلم عمّا قاساه . إن في وسط البحر جزيرة تدعى كريت . وإنها لأرض جميلة خصبة ، يقيم فيهـا الكثير من السكان ، وفيها من المدن تسعون . ففي إحدى هذه المدن ، واسمها كنوسوس حكم الملك مينوس. وكان عمره تسع سنوات حينما تسلّم أزمّة الملك . وقد أنجب مينوس ذوقاليون ، ورُزق ذوقاليون ولدان همـا إيذومين وأنا . وكان أخي أكبر مني سناً وأفضل مني كثيراً . وأما اسمي فهو أثيون . الى هناك قدم أوذيس حينما كان مبحراً إلى طروادة ، فقد حادت به الريح عن سبيله . وجـاء المدينـة في طلب ايذومين قائلاً إنه صديقه . ولكن ذلك اليوم كان اليوم العاشر أو الحادي عشر لإبحار ايذومين إلى

طروادة فضيفته مع صحبه وقدمت لهـم خبزاً من الشعير وخمراً وثيراناً للتضحية. وأقاموا معي اثني عشر يوماً كانت الريح الشمالية تهب في أثنائها بلا انقطاع، ولكنها سكنت في اليوم الثالث عشر فرفعوا المرساة وأقلعوا».

هكذا سرد أوذيس قصته. وكـانت قصة مُختلقة، ولكنها بدت حقيقية. وبكت بنلوب لسماعها. وكما يذوب الثلج فوق الهضاب، إذا مـا هبت ريح جنوبية شرقية، فتسيل الينابيع دافقةً، هكذا بكت بنلوب سيدها. فرقّ أوذيس لزوجه لما رآها تبكي. وأما عيناه فقد حبس دمعهما، فكأنهما من قرون الحيوان أو مـن الحديد. ولكن بنلوب قالت: «اسمح لي أن امتحنك أيها الصديق، لأعلم هل كان ذلك الرجل أوذيس زوجي حقاً. أخبرني أيّ ثوب كان يرتدي، وأي نوع من الرجال هو، ومن هـم أصحابه؟»

فأجاب أوذيس: «إني أذكر أنه كان يرتدي معطفاً مزدوجاً من الصوف، في لون الأرجوان البحري، شُبِّك بمشبك من الذهب نقشت عليه صورة كلب أمسك ظبيـاً من عُنقه، وقد صيغ صوغاً عجيباً وضّح به تشبث الكلب بفريسته، وجهاد الظبي للإفلات. وكان يلبس أيضاً ثوباً أبيض ناعماً يشبه أديم البصل الجاف. كان النساء يُعْجَبْن

به كثيراً . ولا أعلم هل أعطاه هذه الاشياء أحد ، فقد قدّم له الكثيرون العطايا ، وأعطيته أنا أيضاً سيفاً وثوباً . وكان يصحبه داعية اسمه أوريبات ، وكان هذا أكبر منه سناً أسمر اللون ، لَفّ الكتفين ، جَعْد الشعر » .

فلما سمعت بنلوب هذا استشدّ بكاؤها ، إذ عرفت من تلك العلامات أن ذلك الرجل كان سيدها حقاً ، وقالت: « إنك لَصادق أيها الغريب ، فقد أعطيته أنا نفسي هذه الثياب وطويتها بيدي . وأعطيته كذلك الحلية . وأما الآن فواحسرتاه لأني لن أراه ثانية » .

ولكن أوذيس أجاب : « لا تقولي هذا يا زوجة أوذيس ، وكفّي عن الندب لأن أوذيس ما زال حياً ، وهو جدُّ قريب يقيم في أرض التسفروتيين ، ومعه الكثير من الهدايا ، وهذا قاله لي فيذون ملك البلاد . وقد أراني الهدايا التي جمعها ، وكانت كثيرة عظيمة ، تُغني بيته الى الجيل العاشر . وأما أوذيس نفسه فقد ذهب الى ذوذونا حينما كنت هناك ، ذهب يستوحي زفس ، إذ لـه هناك هاتف غيبٌ في وسط سنديانة ، هل يرجع إلى بلده جهراً أو خفية . فكوني على يقين أيتها السيدة أن أوذيس راجع في هذه السنة العاشرة ، عندمـا يدخل القمر القديم في

المَحاق ، ويتولّد القمر الجديد » .

فقالت بنلوب : « ليت كلامك يتحقق أيها الغريب ! وسينالك الخير الكثير على يديّ مع العطاء الجمّ . بيد أنّ قلبي يحدثني أن هذا لن يكون . وستهيء الوصيفات الآن لك مضجعاً ويجعلن عليه الفراش والأغطية ، حتّى تنام دافئاً إلى أن يحين الصباح . وسيغسلن أيضاً رجليك » .

ولكن أوذيس تكلم فقـــال : « ان الفُرش والأغطية بغيضة إليّ منذ فارقت كريت ، وسأضطجع كما تعوّدت في ليـــالٍ عِدّة ، مسهّداً أرقب الصباح . ولا يسرني الاستحمام ، ولن تمسّ قدميّ واحدة من هذه الوصيفات. ولكن إذا كانت بينهنّ عجوز وفيّة القلب ، فـإني أسمح لها أن تمسّ قدميّ » .

فقالت بنلوب : « بينهنّ الوصيفـــة التي تحبّ . وهي المرأة التي حضنت سيدي ، فأحبته وأنزلته من نفسها مكاناً عزيزاً ، وحملته عـــلى ذراعيها ، منذ اليوم الذي وضعته فيه أمه . وهي اليوم قد أوهنها الكِبَر ، ولكنها ستغسل قدميك » .

ثم خاطبت الحاضنة وقالت : « انهضي الآن أيتها المرأة واغسلي هذا الرجل ، فهو في سنٍّ مولاك » .

فغطّت المرأة وجهها براحتيها ، وانتحبت قائلـة : « سأغسل قدميك طيّبة النفس راضية إكرامـاً لبنلوب وإكراماً لك . فقد جاءنا كثيرون من الغرباء نهكهم السفر، ولكني لم أرَ فيهم من هـو أشدّ منك شَبَهاً بأوذيس في صوته وفي قدميه » .

فأجاب أوذيس : « لقد سمعت مثل هذا من قبـل ، فالرجال ما زالوا يردّدون القول إنّ أحَدَنا شديدُ الشّبه بالآخر » .

ولما أعدّت الحمّام ، جلس أوذيس بعيداً عن الموقد، مولّياً وجهه شطر الظلام ، فقد خشي أن تعرفه العجوز إذا ما عالجت ساقه ، من نَدَبٍ عظيم كان فيها . وهذه قصة هذا الندب :

ذهب أوذيس الى فَرناس لرؤية اوتوليخ والد أمـه . وكان هذا قد بذّ سائر الناس في التلصّص وحلف الأيمان. وقد نال هذه الهبة من هرمس نفسه . وذهب اوتوليخ هذا يوماً الى إيثاكة ، فألفى حفيده قد وُلد حديثاً . وأحضرته حاضنته اريكليا نفسها بعد العشاء ، ووضعته في حضن جدّه قائلة : « أطلق أنت اسماً يا أوتوليخ ، على هذا الولد ، فهو ابن الأدعية الكثيرة » . فقال اوتوليخ : « على ابنتي وزوجها أن يدعوا المولود بالاسم الذي أطلقه عليه . وقد أتيت هذه

البلاد وأنا أتقد غضباً على الكثيرين من الرجال . فليكن اسمه اوذيس (رجل الغضب) وليأت إليّ حينما يبلغ مبلغ الرجال فأعطيه عطية تبهج فؤاده » .

وقد حدث ذلك ، فذهب أوذيس لرؤية اوتوليخ فأحسن جدّه وجدّته وأولادهما وفادته ، وأولموا له وليمة . وفي الصباح التالي ذهبوا جميعاً الى الصيد ومعهم أوذيس فتسلّقوا هضبة فرناس ، وكان ذلك عند شروق الشمس . ووصل الصيّادون إلى مَخْرفة في الغابة وأمامهم الكلاب تقتفي الأثر ، وخلفهم أبناء أوتوليخ ومعهم أوذيس . فألفَوا هناك خنزيراً برّياً عظيماً رابضاً في وِجارٍ ضيق ، التفّت أغصانه وتكاثفت ؛ فلم تكن الشمس لتخترقه ولا المطر .

وكان هنالك رُكام عظيم من ورق الشجر المتساقط . ولما أيقظت الخنزيرَ الكلابُ ووقعُ أقدام الرجال ، هبّ من مرقده ، وقفَ شعرُ ظهره ، ولمعت عيناه ، ووقف وقفة اليأس . فبادر اليه أوذيس قبل أصحابه جميعاً مُشرعاً رمحه ، تواقاً إلى البطش بالوحش . ولكن الخنزير كان أسرع منه ، فهجم عليه وجرحه فوق ركبته ، فشقّ اللحم بأنيابه شقاً كبيراً عريضاً ، إلا أنه لم يبلغ العظم . بيد أن أوذيس سدد إلى الخنزير رمحه وضرب كتفه اليمنى فاخترقها ، وسقط الوحش على الأرض ميتاً . ثم ضمد

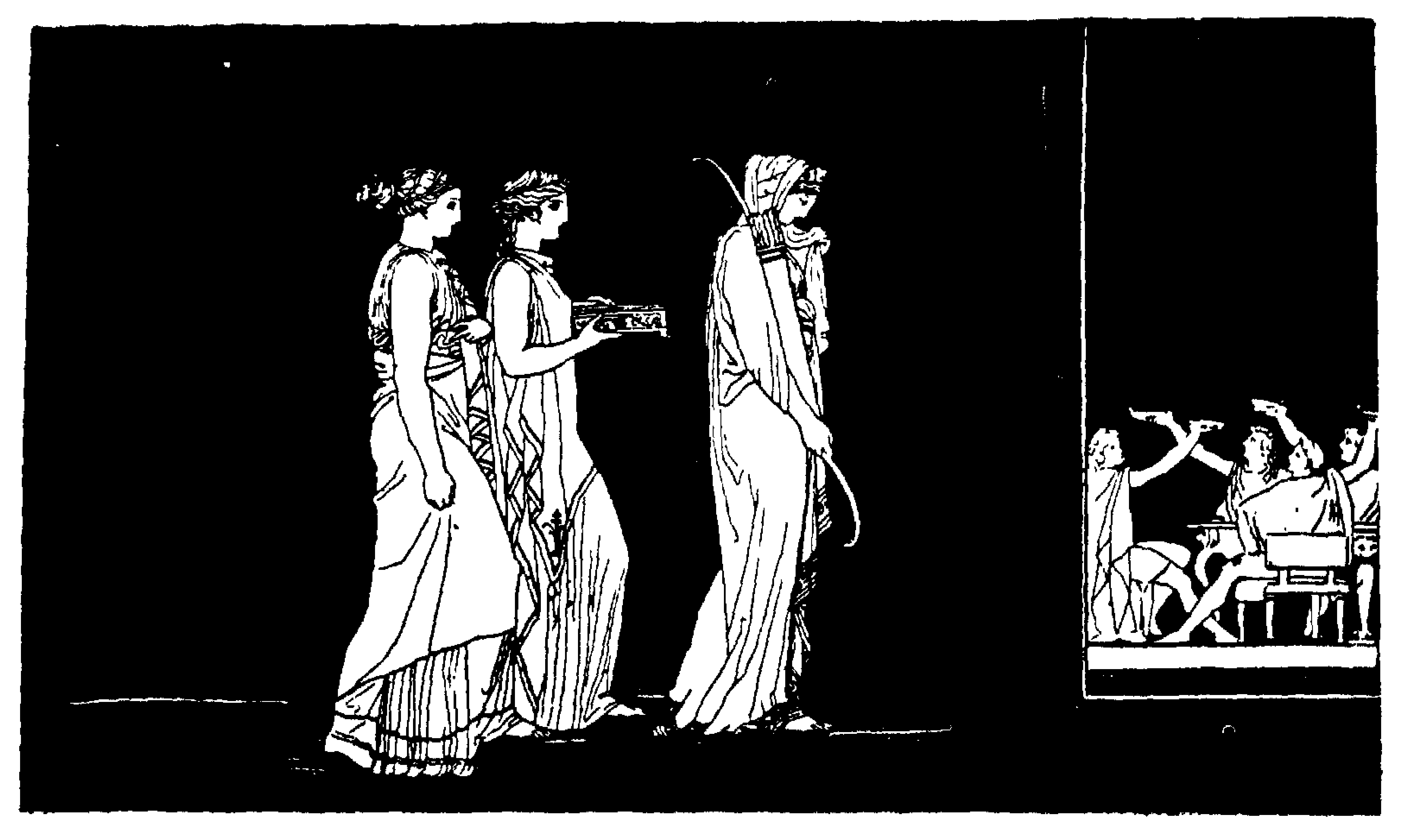
أبنـــاء أوتوليخ الجرح ، ووقفوا نزف الدماء بــأن غنوا إحدى أغاني الشفاء ؛ وعادوا إلى بيت أبيهم . واستبقوه هناك حتى اندمل جرحـــه ، ثم أرسلوه إلى بيتـــه مزوداً بالكثير من العطايــا السنية . ولكن نَدَبَ الجرح ظـــل باقيــاً . ومن هذا التَّدَبِ عرفت الحاضنة أنـــه أوذيس بالذات فقالت : « أي أوذيس ، يا ولدي تصور أني لم أعرفك قبلاً ! » .

والتفتت إلى حيث كـــانت الملكة ، كأنهـــا تريد أن تعلمها بالأمر ، ولكن أوذيس أخذ بخناقها وقال : « هل تريدين قتلي يا أماه ؟ لقد رجعت بعد عشرين عامـــاً ، ويجب ألا يعلم أحد برجوعي قبل أن أستعد للأخذ بالثأر » . فلزمت العجوز السكون ، وعادت بنلوب إلى مخاطبتـــه ، وقصت عليه أحلامها ، فقالت إنها رأت سرباً من الإوز في قصرها انقض عليه نسر وفتك به ، ولما جعلت تندب الإوَز سمعت صوتاً يقول : « ما الإوَز إلا الخطاب وما النسر إلا زوجك » .

فقال لها أوذيس إن حلمها لَنِعم الحلم . ثم قالت إن عليها في الغد أن تقرر اختيارهـا . فقد وعدت أن تحضر قوس أوذيس العظيمة ، والذي يبذ أقرانه في جذب القوس



أوريكليا تعرف أوذيس



بنيلوب تحمل قوس أوذيس إلى الخطاب

بلا عناء ، ويسدّد سهماً إلى الهدف تسديداً أفضل سيكون لها زوجاً .

فأجابها أوديس : « هذا حسن أيتها السيدة . فلا تعللي عن تجربة القوس ، إذ قبل أن يتمكن أحدهم من جذب الوتر يأتي أوديس العظيم ويسدد ضربته الصائبة إلى الهدف » .

وبعد ذلك استسلمت بنلوب إلى النوم .

٢١

تجربة القوس

إضطجع أوذيس في رواق البهو لينام . وقد رقد على جلد ثور لم يُدبغ ، وتدثر بعدد مــن جزّات الغنم الذي ذبح للتضحية والولائم ، وألقت عليه قيِّمة البيت معطفاً .

ولكنه لم ينم لكثرة الخواطر التي تواردت عليه . وكما يقلب رجل بِضعةً من اللحم عــلى النار ، كذلك كان أوذيس يتقلب من الجانب الواحد إلى الآخر ، وهو يفكر كيف يستطيع القضاء على أولئك الخطاب في بهو قصره ، وهو واحد تجاه كثيرين .

عندئذ هبطت اليــه أثينا من الأولمب ، ووقفت فوق رأسه متخذة هيئة امرأة . وتكلمت فقالت : « ألا تزال

ساهراً أيها الرجل الكثير الهموم ؟ أليس هذا المنزل منزلك؟ أوليست زوجتك مقيمة فيه مع ابنك ، وهو قد غدا كما كنت تتمنى أن يكون ؟ » فأجاب أوذيس : « إنه الحق أيتها الإلهَة ، ولكني أفكر في الوسيلة التي أتمكن بها من التغلّب على الخطّاب في قصري ، وأنا واحد تجاه كثيرين. وهنالك أمر آخر يُقض مضجعي ، وهو تفكيري في وسيلة للنجاة من المنتقمين لدمائهم بعد أن أفتك بهم » .

فأجابت الإلهَة : « حقاً إن إيمانك لضعيف ، فقد يضع بعضهم ثقته بالبشر ، مع أن البشر أضعف من الآلهة ، فلمَ لا تجعلني موضع ثقتك ؟ فإنني معك وسأحرسك إلى النهاية ، ولكن عليك الآن أن تنام لأن الأرق طيلة الليل مزعج للروح » .

قالت هذا وسكبت النوم على عينيه ، ثم عادت إلى الأولمب .

ولما كان الصباح نهض أوذيس من نومه ، وحمل جزّات الصوف ووضعها على مقعد في البهو ، وأخرج جلد الثور خارجاً . ثم رفع يديه بالصلاة إلى زفس قائلاً : « زفس، يا أبا الخلق ، إذا كنت قد أرجعتني إلى بلدي عن رضىً منك ، فاجعل لي على ذلك علامة » .

وفيما هو يتكلم أرسل زفس من الأولمب رعداً ، فسمعه

أوذيس وسُرَّ به . ثم إن امرأة في الطاحون تفوهت بكلمة فأل . وكان هناك اثنتا عشرة امرأة يطحنّ القمح والشعير . فنامت منهنّ احدى عشرة بعد أن أنهين ما عليهن، وأما الثانية عشرة ، فظلت تطحن لأنها كانت أضعفهن جميعاً . فلما سمعت الرعد ، وقفت عن العمل وقالت : « لا ريب أيها الإلّه زفس في أن هذا الرعد علامة منك، فقد أرسلت الرعد في سماء صافية، فاجعل هذه المرة الأخيرة التي أطحن فيها الدقيق للخطّاب في منزل أوذيس » .

ثم أقبل تلياخ وخاطب الحاضنة قائلاً : « هل أعطيت الضيف ما يليق من الطعام والفراش ، أم تركته ينام من غير عناية ؟»

فأجابت الحاضنة : « قد شرب هذا الغريب القدر الذي أراد ، وأكل حتى قال إنه اكتفى ، ولكنه رفض الفراش والأغطية ، ونام على جلد ثور لم يُدبغ ، وتغطى ببعض جزات الغنم ، وقد ألقينا عليه معطفاً » .

ثم قدم راعي الخنازير ، يسوق أمامه ثلاثة خنازير سمينة كانت أحسن ما في القطيع وقال : « أيها الغريب ، هل أحسن هؤلاء القوم العنايــة بك ؟ » فأجاب أوذيس : « فلتجزِهم الأرباب على السفاهة التي عاملوني بها ! » .

وجاء بعده ملانثيوس راعي المعزّ ومعه أمْعُزٌ لوليمة

النهار ، فخاطب أوذيس بمرّ الكلام قائلاً : « ألا تزال أيها الغريب تقلقنا بتسولك ؟ وما ظني إلا أننا لن نفترق قبل أن يجرب أحدنا لكمات الآخر . فإن استعطاءك لا يُطاق . وهناك ولائم أخرى تقدر أن تذهب اليها » .

ولكن أوذيس لم يجبه بكلمة .

وجاء أخيراً فيلوثيوس راعي البقر ، ومعه عجلة عقيم لوليمة الخطاب . فكلم أوذيس قائلاً : « ليحالفك السعد بعد الآن أيها الغريب ! فأنت الآن تكتنفك الهموم ، وان عينيَّ لتمتلئان دمعاً حينما تقعان عليك، فقد يكون أوذيس، إذا كان لا يزال حياً ، يُطوِّف بين الناس ، مرتدياً أسمالاً بالية كأسمالك ، وإذا كان قد مات فان موته لفاجعة كبرى . فهو قد أقامني على بقره ، فتكاثرت حتى أنها لتفوت العدّ . ولم تنمُ قطعان كما نمت قطعانه . وهذه الزيادة مع ذلك تؤلمني ، لأنني أرى الغرباء لا يبرحون يلتهمونها في قصره ، ولقد وددت أن أهرب منذ زمن طويل ، لأن الأمر تجاوز حدّ الاحتمال ، ولكنني لا أؤمل أن يرجع أوذيس إلى بيته وأملاكه » .

فأجاب أوذيس : « إن لك، يا راعي البقر ، فطانة وادراكاً ، فأصغ الآن إلى ما أقوله لك ، وأؤكّده بالقسَم، إن أوذيس سيرجع إلى بيته ، وأنت لا تزال في هذا المكان

وستراه بعينيك ، وسترى هلاك الخطّاب أيضاً » .

وأقبل الخطّاب بعد هنيهة فجلسوا إلى الوليمة على جاري عادتهم . وأشار تليماخ إلى الخدم فحملوا إلى أوذيس نصيباً كاملاً أسوةً بالباقين . ولما رأى ستيسبوس ، أحد أمراء ساموس ، ذلك (وكان رجلاً لا يكترث للعدل ولا يخشى الأرباب) قال : « هل يحسن أن ينال هذا الرجل من الطعام مثل ما ننال ؟ فانظروا الآن إلى عطيّتي له » . ثم تناول من سلة هناك كُراع ثور ، ورمى به أوذيس .

ولكن أوذيس أمال رأسه يسرةً ، فزاغَ عنه ، وطار الكراع إلى الحائط وترك عليه أثراً ، فصاح تليماخ في حنق شديد : « من حُسن حظك يا ستيسبوس أنك لم تُصب هذا الغريب ، ولو فعلت ذلك لنفذك رمحي هذا ، ولأقام لك أبوك مأتم الدفن مكان وليمة العرس » .

فقال أجيل : « نِعم القول هذا القول ، فمن الواجب ألا يُساء إلى تليماخ ، كما يجب ألا يُساء إلى هذا الغريب . ولكن يجب عليه ، من جهته أن يشير على أمه باختيار من تريد من الخطاب ليكون لها زوجاً ، فلا نضيّع وقتنا بعد الآن » .

فقال تليماخ : « حسن ما تقول . وهي ستتزوج مَن

تشاء . ولكني لن أخرجها من بيتي على كرهٍ منها » .

فضحك الخطّاب، ولكنه لم يكن ضحك فرحٍ وابتهاج، فاللحوم التى كانوا يأكلونها تقطّرت منها الدماء ، وعيونهم امتلأت بالدموع ، وانفتحت عينا العرّاف ثيوكليمان فصاح قائلاً : « ما الذي دهاكم أيها البؤساء . فها أن رؤوسكم ووجوهكم قد غشيها الظلام ، وصوت الأنين يخرج منكم ، وخدودكم قد ابتلّت بالدموع . وها إن الجدران والأعمدة قد تلطّخت بالدماء ، والبهو وسدّة بابه قد امتلأت بأشباح تتجه نحو الجحيم . وها إن الشمس قد اضمحلت من السماء، ولفّ الأشياء كلّها ضباب كريه » .

ولكنهم ضحكوا عند سماعهم هذا الكلام ، وقال اوريماخ : « إنّ هــذا الغريب معتوه ، فلنطرده خارج الأبواب الى سوق المدينة ، لأن هذا المكان تعمّه الظلمة على ما يظهر » .

وهزأوا بتليماخ أيضاً ، ولكنّه لم يأبه لهم ، بل ظلّ جالساً ينتظر إشارة من أبيه .

ثم ذهبت بنلوب لإحضار قوس أوذيس العظيمة ، التي أعطاه إيّاها افيتوس . فتناولتها هي وغلافها من الوتد الذي كانت معلقة عليه . ثم جلست ووضعتها على ركبتيها ،

وجعلت تبكي ، ثم نهضت واتجهت إلى حيث كان الخطّاب يقصفون في البهو . وقد أحضرت القوس ومعها الكنانة ملأى بالسهام . واستندت الى عمود القبّة وقالت :

« أيها الخطّاب الذين تلتهمون ما في هذا المنزل بحجة أنكم تريدون الزواج بي . هاكم الآن محكّاً لمهارتكم . هاكم قوس أوذيس العظيم فمن استطاع منكم أن يحنيها بيديه في سهولة ويرمي عنها سهماً يمرُق من خروت اثني عشرة فأساً ينصبها تليماخ ، فهو الذي سأتبعه مغادرةً هذا البيت الذي لن أذكره إلا في أحلامي » .

ثم أشارت إلى عموس أن يحمل القوس والسهام إلى الخطّاب . فبكى الراعي الصالح لدى رؤيته قوس سيده ، وبكى أيضاً راعي البقر فيلتيوس ، لأنه كان صالحاً محبّاً لبيت أوذيس .

ثم غرز تليماخ الفؤوس في نظام توالت فيه خروتها ، وكان بودّه أن يرمي عن القوس هو أيضاً ، وقد كان ذلك في وسعه . ولكن أوذيس أشار إليه ألا يفعل ، فقال : « أحسب أني لا أزال ضعيفاً فتياً ، فلكم ، وأنتم أكبر مني سناً ، أن تجربوا قبلي » .

فجرّبها أولاً ليُوذ الكاهن ، وكان وحده من بين

الخطّاب كارهــاً لأعمالهم البغيضة ، ولكنّه لم يقدر أن يُحركها ، بل أتعب يديه الناعمتين اللتين لم تتعوّدا العمل، وقال : « لا أقدر أن أحني هذه القوس ، فليجربها غيري، ولكني أظن أنّ فيها الأسى والألم لكثيرين هذا اليوم » .

فغضب انطينوس عند سماعه هذا الكلام ، وطلب من ملانثيوس أن يحضر من بيت المؤونة قرصاً مــن الشّحم ليدهنوا به الوتر فيلين لهم . فألانوا الوتر بالشحم ، ولكنهم لم يستطيعوا مع ذلك أن يحنوا القوس . وقد جربوها كلهم على غير جدوى ولم يبق منهم إلا أنطينوس وأوريماخ،وكانا حقاً أبسل الجميع وأقواهم .

وخرج راعي الخنازير وراعي البقر خارج الفناء ، ولحقهما أوذيس وقال : « ما عساكما تصنعان إذا رجع أوذيس الى بيته ؟ فهل تقاتلان من أجله أو من أجل الخطّاب ؟ »

فأجابا أنهما يقاتلان من أجله . فقال أوذيس : « ها أنا قد رجعت بعد غيبة عشرين عاماً . وإنّي لأعلم أنكما مبتهجان بعودتي ، وأنــا لا أعرف أحداً سواكما . فإذا ساعدتماني اليوم وأبديتما الشجاعة والبأس ، فلكما أعطي زوجتين وأملاكاً ومنزلين قريبين من منزلي . وستكونان لتليماخ أخوين ورفيقين. وكعلامة لكما على أني أنا هو أوذيس ، هاكما النَّدَب الذي خلّفه جرح الخنزير البرّي ، يوم خرجت للصيد مع أوتوليخ».

فبكيا فرحـاً ، وقبّلا أوذيس وقبّلها هو أيضاً . ثم طلب مـن عموس أن يحضر له القوس ، بعد أن ينتهي الخطّاب جميعاً من تجربة حظهم بها . وطلب منه أيضاً أن يشير على النساء بأن يلزمن داخل المنزل ، ولا يخرجن إذا ما سمعن جلَبة القتال . وطلب من فيلوثيوس أن يقفـل أبواب البهو ويوثقها بالحبال .

ثم رجع إلى البهو وكان اوريماخ يحمل القوس في يديه، ويحميها عـلى النار . ثم حاول أن يجذبها فامتنعت عليه . وعندئذ رفع صوته متحسّراً وقال : « الويل لي ! لا لأني خسرت هذا الزواج وحسبُ ، ففي بـلاد الإغريق نساء غير هذه للزواج ، بل لأننا أضعف جداً من أوذيس العظيم. ومن العار حقاً أن تقول هذا » .

عندئذ قال أنطينوس : « ليس الأمر ما تقول ، فهذا اليوم مقدّس لإلـه الرّماة ، ولهذا لم نقدر على النّزع في في القوس . ولكننا سنجرّبها غـداً بعد أن نقدّم لأفلون التضحية اللائقة » .

وقد أرضاهم هذا القول جميعاً ، ولكن أوذيس قال : « دعوني أجرّب هذه القوس ، فإني أودّ أن أعرف هل أنا من القوة على ما كنت في سالف الأيام » .

فأغضب ذلك الخطّاب ، وكان أنطينوس أشدهم غضباً،

ولكن بنلوب قالت إن له أن يفعل ، ووعدت الرجل بالعطاء الوافر إنْ هو تمكن من جذب القوس » .

ولكن تلماخ تكلم وقال : « إن هذه قوسي يا أماه ، ولي أن أعطيها أو أن أمنعها . وإذا أردت أن يجربها هذا الغريب ، فلن ينكر عليّ ذلك أحد . ولكن اذهبي مع وصيفاتك إلى مخدعك . ودعي الرجال يُعنوْن بهذه الأمور » .

قال هذا راغباً في إبعادها من البهو لعلمه ما سيحدث في داخله . وأما هي فقد أدهشها أن تسمعه يتكلم بهذه السلطة ولم تجب ، بل خرجت مع وصيفاتها .

ولما أراد عموس أن يحمل القوس إلى أوذيس ، أغلظ له الخطّاب في الكلام ، ولكنّ تلماخ أكرهه على ذلك . فأخذ القوس وناولها مولاه . ثم ذهب إلى اوريكليا وأشار عليها أن تقفل أبواب غرف الوصيفات وتبقيهنّ داخلاً مهما سمعن من لَغَط .

وأخذ أوذيس القوس العظيمة ، وفحصها ليرى هل أصابها خَلَل . ولكن الخطّاب هزأوا به . ولما وجد أنها لم يمسها ضرٌ شدّ وترها بلا عناء ، كما يشدُّ المغني وتر قيثارته إلى القدر اللازم ، ثم أمسك الوتر بيده اليمنى وجرّب صوته ، فكان حلواً كزقزقة السُّنونوَة ، ثم أخذ من

الكنانة سهماً وجعل فُوقه على الوتر ، وجذبه وهو جالس في مكانه ، فمرّق السهم من خُروت القؤوس كلّها ، واستقرّ على الحائط وراءها . وقال عندئذٍ لتليماخ : « لا بد من إقامة وليمة أخرى قبل غياب الشمس » .

ثم أومأ إلى تليماخ ، فدنا الفتى منه ووقف بجانبه متسلحاً بالرمح والخوذة والمجنّ .

٢٢

الفتك بالخطاب

عندئذ كلَّم أوذيس الخطابُ فقال : « لقد انتهينا الآن من هذا العمل ، فدعوني أُجرب هدفاً آخر » .

ثم سدّد سهمه إلى انطينوس ، وكان هذا يرفع الكأس عندئذ إلى شفتيه لا يفكر في الموت . ومن كان يظنّ أن رجلاً ، وإن كان أشدّ البشر جَبروتاً ، يجترىء على مثل هذا العمل ، وهو واحد بين كثيرين ؟ فاخترق رأس السهم رقبته وانبثق الدم من منخرَيه ، فرمى الكأس ودفع المنضدة من أمامه . ولما رآه الخطّاب يهوي إلى الأرض قفزوا جميعاً عن مقاعدهم ، ونظروا فلم يجدوا على الجدران رماحاً ولا دروعاً . ولم يدروا هل

ضربــه الغريب عرَضاً أو عمداً ، ولكن أوذيس كشف حقيقته قائلاً :

« ظننتم أيهــا الكلاب أنني لن أعــود ! فالتهمتم منزلي ، وخطبتم ود امرأتي ، وأنـــا لا أزال حيـاً ، ولم تخشوا الأرباب ولم تحسبوا للبشر حساباً . ولهذا أتاكم جميعاً الهلاك بغتةً » .

ولما أخذتهم الرجفة جميعاً خوفاً وفزعاً ، قال اوريماخ: « إذا كنت أوذيس ايثاكة حقــاً ، فبالصواب نطقت . فقد أسيء إليك إساءة فاضحة ، سواء أكان ذلك في البيت أم في الحقل . ولكن هوذا الذي أثار كل هذا قـد سقط أمامك ، وهو أنطينوس ولا أحد سواه . ولم يكن يقصد إلى الزواج قصده إلى أن يملك على هذه الجزيرة ، بعد أن يدمر بيتك تدميراً . ولكننـا سنعيد اليك مـــا التهمناه من رزقك عشرين ضِعفاً » .

ولكن أوذيس أجـاب : « لا تتكلم عن إعادة مـــا أخذتم . فإن يديَّ لن تكفّا عـن الفتك حتى آخذ بثأري منكم جميعاً » .

عندئذٍ قال أوريماخ لصحبه : « ان يَدَيْ هذا الرجل

لن تكفا عن الضرب . وسيقتلنا جميعاً بسهامه وهو في مكانه ، فلنهرع إلى الباب ونلقِ الصيحة في المدينة ، لأن هذا النابل لا يلبث أن يرمي آخر رجل فينا » .

وبادر إلى الباب وفي يده موسى ذات حدين ، ولكن أوذيس عاجله ، وهو مسرع ، بسهم استقر في صدره ، فخر إلى الأمام صريعاً . ولما اقترب أمفينوموس فتك به تليماخ برمحه ، ولم ينتزعه من الجثة خشية أن يفتك به على حين غِرة .

ثم أسرع إلى أبيه وقال : « هل أجلب لنا ولأعواننا سلاحاً ؟ » .

فقال : « أجل ولا تبطىء لئلا تنفد سهامي » .

فجاء من خزانة السلاح بأربع أدرع وأربع خُوَذ وثمانية رماح . وتسلَّح هو والراعيان عموس وفيليتيوس . وتناول أوذيس خوذةً وترساً حينما نفدت منه السهام ، وأخذ في كل يدٍ رمحاً عظيماً . غير أن مِلانثيوس راعي المعَز تسلل إلى خزانة السلاح ، وأنزل منها اثنتي عشرة خوذة وترساً ومثلها من الرماح . ولما رأى أوذيس الخطاب يتسلحون ، اشتد خوفه وقال لابنه :

« إن في الأمر خيانــة ، فقد تكون الفاعلــة إحدى النساء ، أو قد يكون الخائن ملانثيوس راعي المَعَز » .

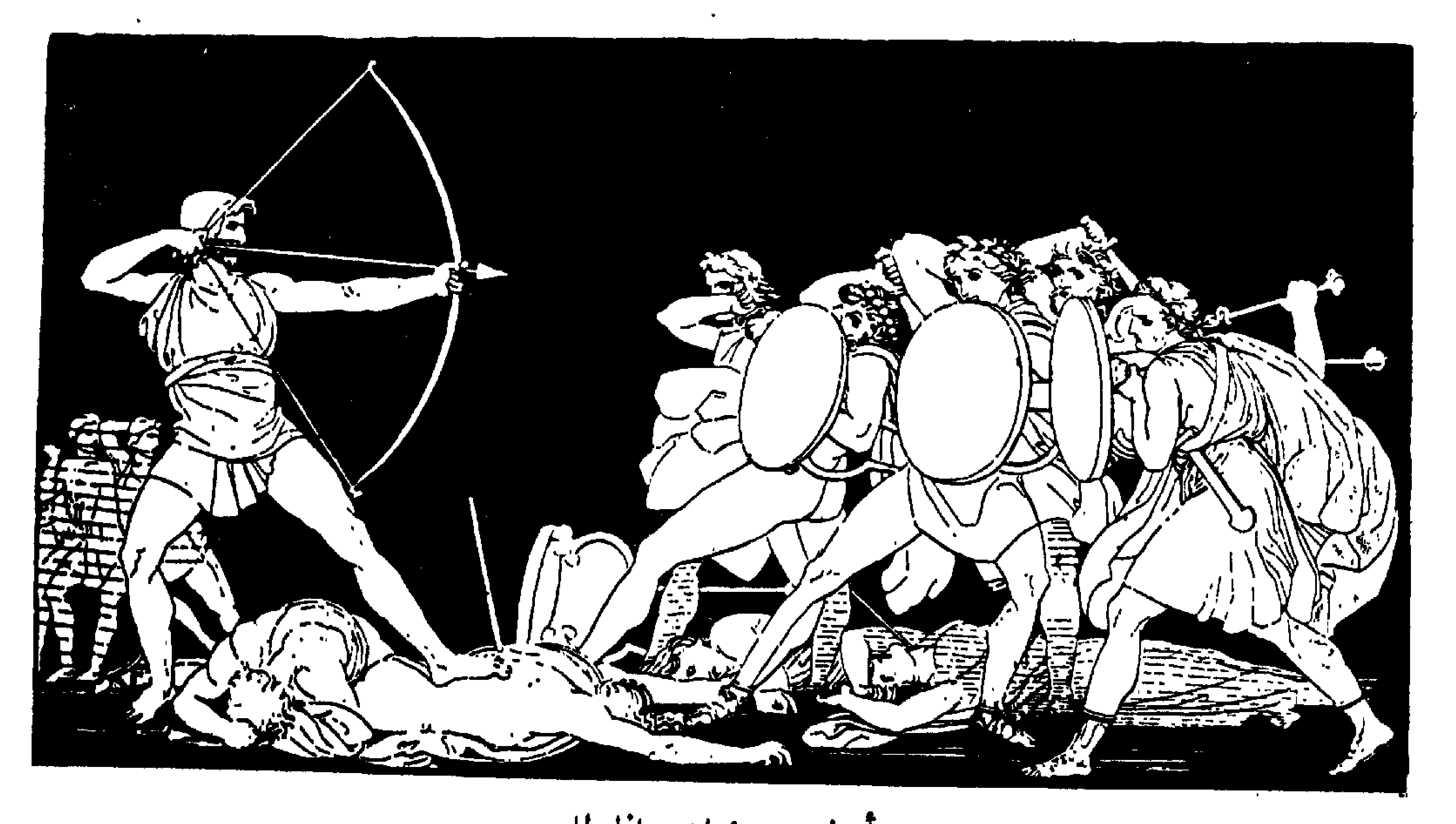
فقال تلماخ : « إن الذنب ذنبي يا أبـي ، فقد تركت باب الغرفة غير موثّق » .

ثمّ أبصر عموس ملانثيوس يتسلّل إلى الغرفــة مرة ثانيــة ، فتبعه ومعـه فيلثيوس . وهنالك قبضا عليــه ، وقد أخذ خوذة بإحدى يديه وترساً بالأخرى ، فأوثقــاه من يديه ورجليه وشداه بحبل إلى دعائم السقف عالياً .

ورجع كلاهما إلى البهو ، وإلى هناك هبطت أثينـا في هيئــة منْطور . ولم تتقدم لمعونة أوذيس وابنــه اختباراً لشجاعتهما ، بل غيرت هيئتها فغدت سُنونُوَة وحطت على دِعامة السقف .

فصاح أغيلاوس : « أيهــا الأصدقاء ، إن منطــور قد ذهب ، وتخلى عن مساعدتهم . فلا نُطلق رماحنا كيفما اتفق ، بل ليتقدم منا ستة معاً ، فلعلنا نتغلب عليهم » .

ثم أطلقوا رماحهم ، ولكن أثينا نحّتها جانباً ، فاتجه أحدها إلى أحد الأعمدة ، واتجه آخر إلى الباب ، وثالث إلى الحائط . وأمــا أوذيس وتلماخ والراعيان فقــد فتك



أوذيس يفتك بالخطاب



تلاقي أوذيس وبنيلوب

كلٌّ منهم بخصمه ، ثم أعادوا الكرة مرةً بعد مرةً . غير أن أمفيميذون جرح تليماخ ، وكَشَطَ ستسيفوس كتف عموس . ولكن تليماخ أطاح أمفيميذون ، وفتك راعي البقر بستسيفوس قائلاً : « خذ هذه عوضاً من كُراع الثور التي قدمتها لضيفنا » .

وكانت أثينا طيلة هذه المدة تُلوِّح بترسها البراق الحامي من علٍ ، فتساقط الخطّاب كما تتساقط العصافير وقد بددتها ومزقتها النسور .

وتوسل ليُوذ الكاهن إلى أوذيس قائلاً : « لم أصنع في هذا البيت شراً . أردت أن أصدّ الآخرين عن الشر فلم يرتدعوا . ولم أقُمْ إلا بالصلاة على المذبح ، فأبقِ إذن علي ولا تقتلني » .

فأجابه أوذيس : « إن قيامك بالصلاة على مذبح هؤلاء الرجال كافٍ لدينونتك ، ثم إنك كنت تبغي الزواج بامرأتي » .

قال هذا وقتله ، ولكنه عفا عن فيميوس المنشد ، لأن غناءه بين الخطّاب في البهو كان عن كُره لا عن رضىً ، وعفا أيضاً عن ميذون الداعية وأمرهما بالخروج إلى فِناء القصر ، فجلسا هناك متشبّثين بالمذبح ، متلفّتين

في رُعب إلى كلٍّ ناحية ؛ لأنهما كانا لا يزالان يخشيان الموت .

وهكذا انتهت مذبحة الخطّاب ، فأمر أوذيس بتنظيف البهو ، وغسل المقاعد والمناضد بالماء ، وتطهيرها بالكبريت . ولما تم ذلك أشار إلى اوريكليا الحاضنة أن تذهب إلى بنلوب وتعلمها أن زوجها قد عاد حقاً .

٢٣

خاتمة المطاف

ذهبت اوريكليا إلى مخدع سيدتها تحمل البشائر السارّة. وكان الفرح العظيم يستحثّها حتّى كانت إحدى قدميها تتعثّر بالأخرى .

فوقفت عند رأس بنلوب وتكلمت قائلة : « انهضي يا بنيّتي العزيزة ، وانظري بعيني رأسك ما أمّلته طويلاً ، فقد عاد أوذيس حقاً وفتك بالرجال الذين عاثوا في ملكه».

ولكن بنلوب أجابت : « لا ريب ، أيتها الحاضنة العزيزة ، في أن الأرباب قد جرّدوك من الإدراك ، فهم قادرون على إبدال العاقل من حكمته حمقاً ، كما أنهم قادرون على منح الإنسان العاديّ حكمة . فلمَ تهزئين بي،

وتوقظينني من نوم هنيء لم تذق مثله عيناي ، منذ اليوم الذي أبحر فيه أوذيس إلى طروادة ، أبغض المدن إليّ ؟ فاذهبي وادخلي غرفة النساء ! ولو أن واحدة غيرك من الوصيفات هي التي أيقظتني على هذا الوجه ، لطردتها وأوسعتها توبيخاً . ولكن سنك المتقدّمة تشفع لكِ » .

فقالت الحاضنة : « حاشا أن أهزأ بكِ يا بنيّتي العزيزة. فإن أوذيس هنا حقاً . وهو ذلك الغريب الذي عومل بهذا الازدراء . وكان تلياخ يعلم من هو منذ زمن طويل ، وقد أخفى الأمر لكي يتمكّنا من الانتقام من الخطّاب » .

فابتهجت بنلوب ، ووثبت من فراشها ووقعت على عنق المرأة العجوز وهي تبكي وتقول : « اصدُقيني الخبر الآن، هل رجع حقاً إلى بيته ، وفتك بالخطّاب وهو واحد فرد، وهم كُثر ؟ »

فأجابت الحاضنة : « لست أدري كيف حصل ذلك، ولكنني سمعت أنين الرجال الهالكين . وقد لزمنا نحن النساء غرفتنا حيارى إلى أن ناداني ولدك. عندئذ رأيت أوذيس واقفاً بين الموتى ، وقد سقطوا الواحد فوق الآخر . ولو رأيته ، وهو أشبه ما يكون بالليث ، وقد تخضب بالدماء وآثار المعركة ، لامتلأ قلبك فرحاً. وها أن الخطّاب

قد رُكموا الآن رُكاماً واحداً . وأما هو فإنه يطهّر بيته بالكبريت . ولكن تعـالي واجعلي حدّاً لجميع الأحزان التي تحمّلتِيهـا طويلاً ، فقد تحققت آمـالك ، ورجع زوجك ، واثّـأر لنفسه ثـأراً كاملاً من هؤلاء الرجال الأشرار » .

فقالت بنلوب : « لا يستخفنَّك الفرح أيتهـا الحاضنة العزيزة . إنكِ تعلمين أي سرور أجده بلقياه ، ولكن هذا ليس أوذيس ، بل إن أحد الآلهة هو الذي فتك بالخطّاب لغضبه عليهم لوقاحتهم وسوء عملهم ، وأما أوذيس نفسه فقد أصبح من الهالكين » .

عندئذ تكلمت الحاضنـة وقالت : « مـا هذا الذي تقولين ؟ أتزعمين أن زوجك لن يرجع في حين أنه الآن في منزله ؟ حقاً انك بطيئة الإيمان . فهاك الآن هذه العلامة التي رأيتهـا بعينيّ : إن نَدَبَ الجرح الذي أحدثه ناب الخنزير البرّي فيـه منذ أمد طويل قد رأيتُه وأنا أغسل قدميه . وقد هممت أن أُعلمك بالأمر ، ولكنه ، لِفرط حكمته ، جعل يده على فمي ومنعني من الكلام » .

فأجابتهـا بنلوب : « يعسر عليك أن تدركي مقاصد الأرباب . إلا أني ذاهبة إلى ولدي ، فأرى أولئك الخطّاب

أمواتاً ، وأرى الرجل الذي فتك بهم » .

وذهبت بنلوب فجلست عند الغسق قرب الجدار المقابل ، وجلس أوذيس عند أحد الأعمدة مُطرِقاً منتظراً أن تُبادِرَهُ امرأته بالكلام . وأما هي فقد اشتدّ ارتباكها ، وخُيل إليها تارة أنها تعرفه ، وتارة أُخرى تنكره للحالة السيئة التي كان عليها ، فقد أبى أن تضع النساء عليه أثواباً جديدة .

وقال تلياخ : « أمّاه يا أمّ السوء ! كيف تجلسين بعيدةً عن أبي ولا تكلّمينه ؟ لا شك أن قلبك أقسى من الصخر » .

ولكن أوذيس قال : « دعها يا تلياخ ، فإن أمَّك ستعلم الحقيقة عندما يحين الوقت . وأما الآنَ فلنعمل على إخفاء معالم هذه المجزرة إلى حين ، حتى لا يسعى أصدقاء هؤلاء الرجال إلى الانتقام منا . ولذا ابعثوا في القصر أصوات الموسيقى ، وأقيموا الرقص في البهو ، حتى يقول الناس : (إنه زِفاف الملكة ، والأفراح تُقام في القصر) . ولا يعرفون من الحقيقة شيئاً » .

وعلى هذا ضرب المنشد أوتاره ، ورقصت النساء . وذهب أوذيس أثناء ذلك إلى الحمام فاغتسل وارتدى لباساً

بهياً ، ثم عاد إلى البهو وقد صيرته أثينا جميلاً فتيـاً ؛ فجلس كما كان سابقاً مقابل امرأته وقال :

« حقاً أيتهـا السيدة إن الأرباب جعلتك أقسى النساء قلباً ، فهل كان لامرأة سواك أن تجلس بعيداً عن زوجها، وقد عاد اليها بعد عشرين عاماً ؟ »

ولما رآها لا تزال على الشك عاد إلى الكلام وقـال : « اسمعي هذا يا بنلوب ، واعلمي أني أوذيس حقـاً ، ولا أحد سواه . فإني معلمك بالهيئة التي عليهـا فراشي . كانت شجرة زيتون قـد نبتت في الفناء الداخلي ، وغدا لها جذع كأنه العمود الضخم ، فحول هذه الشجرة بنيت غرفتي وسقفتها ، وجعلت لها الأبواب . ثم شذبت أغصان الزيتونة وجعلت منهـا عموداً للسرير ، ثم أخذت في صنع السرير نفسه ، مبتدئاً من العمود ، حتى أنهيته ، بعد أن رصّعته بالذهب والفضة والعاج . وشددت في داخله قِدَّةً من جلد ثور صُبغت باللون الأرجواني . ولست أعلم هل السرير ما يزال ثابتاً في مكانه ، أو أزاحه أحد . والحق أن إزاحته ليست بالأمر اليسير . ولكن هذه هي الهيئة التي كان عليها في سالف الأيام » .

عندهـا تحققت بنلوب أنـه زوجها ، فركضت اليـه

وطوقته بذراعيها ، وقبلته قائلة : « عفواً يا مولاي إذا كنت قد أبطأت في التعرف اليك ، فإن للرجال مكايدَ كثيرة ، وكنت أخشى دائماً أن يخدعني أحدهم ، فيزعم أنه زوجي . وأما الآن فاني أعلم أنك زوجي ولا أحد سواه » .

وبكيا وهما متعانقان وتبادلا القبلات . وهكذا عاد أوذيس إلى بيته بعد عشرين عاماً .

٢٤

انتصار أوذيس

لما قُتل الخطّاب ، قـاد هرمس أرواحهم إلى مقرّ الموتى ، حاملاً في يده عصاه الذهبية التي يمسّ بها عيون البشر ، فينام بعضهم ، ويستيقظ بعضهم الآخر . قادهم إلى هناك ، فتبعوه ولهم جلبة أشبه ما تكون بجلبة الخفافيش، وهي تطير جيئة وذهابـاً في أحد الكهوف . ثم مشوا في محاذاة ميـاه الموت المظلمة على جانب مجرى الأوقيانوس ، وعند أبواب الشّمس ، وأرض الأحـلام ، الى أن بلغوا مرج البَرواق ، حيث تقيم أرواح أناس عاشوا مثـل عيشتهم » .

وهناك شاهدوا أرواح أخيل وفطرُقل وأنطيلوخ بن نسطور وأياس . ورأوا بعدها روح أغاممنون ، ومعه أولئك الذين

هلكوا في صحبته بيد أغِستوس .

وعندها قال أخيل لأغاممنون : « حقاً يا ابن أتْريذ إن الناس قد اعتادوا القول إن زفس آثرك بحبه على كل العالمين ، فأمَّرك على هذا العدد الكبير من الرجال البسلاء في أرض طروادة . ومع ذلك فقد أتاك الموت على أشنع وجه . وكان الأوْلى لك لو قضيت نحبك أمام أسوار طروادة ، إذن لأقام لك الإغريق مدفناً عظيماً ! »

فأجابه أغاممنون : « لقد كنتَ سعيد الحظ يا ابن فيلا إذ متَّ بعيداً عن أرض الإغريق . فقد قُتل الكثيرون من بُسلاء الطرواديين والإغريق من حولك . وأنت طريح على الأرض ناسياً كلَّ صناعة الحرب ، والعجاج يخيم فوقك . وقد حاربنا طيلة ذلك النهار بلا انقطاع ، حتى وَقَف زِفس القتال بإعصار شديد . فحملناك عندئذ وعدنا بك الى السفن ، ومددنا جثتك على فراش ، وغسلناها بالماء ، ثم دهنّاها بالطيب . وفيما نحن عاكفون عليك نبكيك ، أتت أمك مع بنات البحر الخالدات ، فسمعنا لهن صوتاً مخيفاً اشتدَّ له ذعرنا . فهربنا إلى السفن ، ولكن نسطور الشيخ الحكيم صدَّنا عن ذلك قائلاً : (أقيموا هنا يا أبناء الإغريق فإن أم أخيل آتية مع بنات البحر لتندب ولدها) » .

« فزايلَنا عند ذلك الخوف ، ووقفت حولك بنات

البحر يندبنك ، وسجَّيْنَـك بكساء الآلهة . وأنشدت عرائس الفنّ التسع مراثيك ، وتجاوبن بأصواتهن العذبة حتى لم يبقَ رجل من الإغريق إلا بكى متأثراً من إنشادهنّ الشجيّ .
وقد بكيناك سبعَ عشرةَ ليلةً وسبعة عشر نهاراً ؛ اختلط فيها الآلهة بالبشر ، حتى كان اليوم الثامن عشر ، فأوقدنا ناراً عظيمة وأحرقنا فيها جثتك . وذبحنا الكثير مـن الغنم والثيران . وكنت أنت ملقىً على رُكام الحطب في كساء الآلهة محنّطاً بالكثير من الطيب والعسل . وطاف الزعمـاء بالركام المشتعل شاكّي السلاح ، وصعد نحيب الجيش إلى السماء . ولما أتى اللّهب على جثتك ، جمعنا عظامك البيض معاً ، وجعلناها في قارورة من الذهب أحضرتها أمك معها ، وقد أعطاها إياها ذيونيس ، وهي من صنع إله النـار . ومُزجت عظام فطرقل بعظامك . وكانت عظام أنطيلوخ ابن نسطور بقربها ، ولكنها كانت منفصلة عنها ، وذلك لأنك كنت تؤثره بمودّتك على صحبك جميعاً بعد فطرقل. وهناك على صخرة مرتفعة قرب هِلاسبون ، أقام الإغريق لـكم أنتم الثلاثة قبراً عظيماً حتى يراه كـل من يجتاز ذلك المكان على مدى الأزمان .

« وأحضرت أمك الجوائز ، لكي يتبارى في سبيل نيلها أبناء الإغريق في الركض والملاكمة ، وما إلى ذلك .

لقد شهدتُ مآتم الكثيرين ، ورأيت الفتيان يشُدُّون حِقاءهم للتباري إكراماً لأحد الملوك في مأتمه ، ولكني ما شهدت قطُّ مأتماً يشبه مأتمك في سناء الجوائز التي جاءت بها ثيتيس ذات القدمين الفضيتين ووضعتها أمام زعماء الجيش . ولا ريب في أنك كنت عزيزاً على الآلهة ، وأن اسمك سيخلد إلى الأبد . وأمّا أنا فقد مِتّ ميتة شنيعة بيد أغيستوس ويد امرأتي اللعينة » .

هكذا كانا يتخاطبان ، عندما اقتربت منهما أرواح الخطّاب ، في جمع كثير العدد . ودهش البطلان لرؤيتهم وعرف أغاممنون أمفيميذون من بينهم ، فقد أضافه ضيافة صديق في ما سلف من الأيام ، وخاطبه قائلاً : « خبّرني يا أمفيميذون ، كيف قدمتم إلينا على هذه الحالة ، وكلكم زعيم في قومه ، وأنتم متقاربون سناً . هل ضربكم فوسيذون وأنتم مبحرون على ظهر سفينة ، بأن أثار في وجهكم عواصف الرياح والأمواج العظيمة ؟ أم هل وقعتم في قبضة عدوّ في البر ؟ أرجو أن تخبرني فأنت صديقي بالوراثة . ألا تذكر مجيئي إلى قصر أبيك مع أخي مانيلا ، لنحمل أوذيس على مرافقتنا لمحاربة طروادة ؟ »

فأجابه أمفيميذون : « إنني أذكر كلّ هذا ، أما أمر ميتتنا فأذكره لك على وجهه الصحيح . لقد قصدنا إلى

الزواج من امرأة أوذيس ، ونحن نظن أنه كان من الهالكين. ولكنها لم تجب واحداً منا إلى طلبـه ، بل دبّرت حيلة تخدعنا بها . فقد نصبت نَوْلاً عظيماً وقالت : (أمهلوني ريثما أحوك كفناً للبيرت والـد زوجي . لئلا توجّه إليّ بنات الإغريق لوماً . وعندما أُتمّ حياكته سأتزوج الرجل الذي أختاره !) ولما أجبناها إلى طلبها خدعتْنا بأن كانت تحوك الكفن في النهار ، ولكنها في الليل كانت تنقض كلّ ما تحوكه . وظلّت تمكُر بنا على هذا الوجه ثلاث سنوات ، حتّى كشفنا أمرها في السنة الرابعة . ولكن القدر المشؤوم أعاد أوذيس إلى بيته بعـد ذلك ، فدبّر مع ابنه تليماخ وعموس راعي الخنازير أمر هلاكنا . فقد أشار على الملكة بنلوب أن تحضر قوسه ، وتقول إن الذي ينزع في القوس يكون لها زوجاً . فتناولنا القوس ولكن لم يستطع واحد منا أن ينزع فيها . فلما أخذها أوذيس بيده نزع فيها عـلى هِينته ؛ ثم وقف على عتبة القاعة ، وجعل يرسل السهام علينا . فبدأ بقتل أنطينوس ثم عكف على الآخرين يفتك بهم ، حتى لم يبقِ منا على أحد . ولا تزال أجسادنا الآن طريحة في بهوه لا يأبه لها أحد . وليس هناك من يندبنا أو يهتم بدفننا » .

فقال أغاممنون عندئذ : « ما أسعد حظك يا أوذيس،

وما أشدّ ما انتقمت لزوجك ! ولا ريب في أن لها قلباً طيباً مخلصاً . ولن تزول شهرتها بين الناس . أما كليتمنسترا فتُذكر بالشر الى الأبد لأنها قتلت زوجها » .

هذا ما كان يتحدث به هؤلاء في مقر الموتى ، وأما أوذيس فقد خرج من قصره إلى مسكن ليرت في الحقول . هناك كان الشيخ يقيم ، وتقوم بخدمته امرأة من صقلّية . وكلم أوذيس ولده والراعيين قائلاً : « ادخلوا أنتم المنزل ، وهيّئوا طعاماً من لحم الخنزير ، وليكن أشهى ما تستطيعون . وأذهب أنا إلى والدي وأرى هل يعرفني . فمن المحتمل أن يكون قد نسيني بعد أن طالت غيبتي » .

قال أوذيس هذا ، وأودع الرجال سلاحه ليحفظوه له . ثم دخلوا المنزل ، وذهب أوذيس إلى البستان في طلب أبيه ، فلم يجد هناك ذوليوس الذي كان قيّماً عند ليرت ، ولم يجد أحداً من خدمه ، ولا من أولاده ، فقد ذهبوا جميعاً ليصنعوا للحقل سياجاً . وقد وجد الشيخ وحده منهمكاً في الحفر حول شجرة . وكان عليه قَباء قذر لُفِّقَ بالخيوط ، وعلى كل رِجلٍ من رجليه لِفافة من جلد ثور لتحميها من الشوك ، وفي يديه قُفّازان ، وعلى رأسه قلنسوة من جلد كلب . ولما أبصره أوذيس ورأى ما فعلت به السنون والأحزان ، وقف تحت شجرة

كُمَّثْرى وجعل ينتحب . ثم أقام هُنيهة يقلّب الأمور في نفسه ، ويتساءل أيذهب إلى أبيه ويقبّله ويعانقه ، ويعرّفه بنفسه ، ويخبره بعودته ، أم يستفهمه أولاً ، فيعلم منه كل ما يرغب في معرفته . فرأى الأولى أن يستفهمه أولاً . وعلى هذا دنا من الشيخ ، وكان هذا لا يزال يحفر حول الشجرة مطرقاً رأسه إلى الأرض . فقال أوذيس : « حقاً أيها الشيخ إن الدراية لا تُعوِزُك في قيامك على هذا البستان ، ولا ريب في أن شجرة من التين أو العنب أو الزيتون أو الكمثرى لا يمكن أن تُفلح وتترعرع إذا أعوزتها العناية . غير أني أودّ أن أقول شيئاً ، فلا يُغضبك سماعه . إن جنّتك ولا ريب لا تعوزها العناية ، ولكنك أنت نفسك في حالة سيئة من الإهمال . فقد أناخ بك الكِبَر ، وترتدي ثياباً رثة قذرة ، ولست مع ذلك بالكَسِل حتى يعاملك سيدك مثل هذه المعاملة . ولست تشبه العبد في وجه من الوجوه ، فلك من وجهك وقامتك ما يجعلك خليقاً بأن تكون ملكاً . ويجدر بمن كان مثلك أن يغتسل ويجلس لطعامه وينام في فراش ليّن . وهذا حقّ من حقوق الشيخوخة . ولكن أعلمني الآن من هو سيدك ؟ ولمن هذا البستان الذي تتعهده بعنايتك ؟ وقل لي أيضاً هل هذه الأرض التي قدمتُها هي ايثاكة حقاً ؟

فقد قال لي ذلك رجل لقيتـــه في طريقي إلى هذا المكان ،
ولكني خِلته ناقص الإدراك ، لأنه لم يصغِ إلى كلامي ،
ولم يطلعني على أمر صديقٍ لي ، كان قد نزل بي ضيفاً،
يقيم في هذا المكان أحيٌ هو أم ميت . وقد أضفت هذا
الصديق في منزلي قبل زمـــن طويل ، ولم أُحبَّ رجلاً
غريباً حبّي له . وقال إنه ابن ليرت وانه قادم من أرض
إيثاكة . وقد أعطيته من الهدايا سبع وزنات من الذهب ،
وطاساً للمزج من الفضة نقشت عليه الأزهار ، واثني عشر
معطفاً لم تُغسل من قبل ، ومثلهـــا من البُسُط وأربعـــة
أثواب ، ومثلها من الأقبية . وأعطيتـــه أيضاً أربع نساءٍ
حسان المنظر صُنعَ الأيدي » .

فأجابـــه ليرت وهو يبكي : « كن على يقين أيهـــا
الغريب أنك قدمت الأرض التي تسأل عنها ، ولكنها الآن
في حوزة رجال أشرار ظالمين . وأما ابن ليرت ، فإنك
لو وجدته هنا لغمرك بعطائه، وأهدى إليك مثل ما أهديت
اليه . ولكن اصدُقني الخبر هل مر على إضافتك له زمن
طويل ؟ فهو حقاً ولدي أنا الرجل التعس . وهو ، ولا
ريب ، إما قد غرق في البحر فذهب طعامـــاً للأسماك ،
وإمـــا قد هلك في البر فريسة للوحوش وجوارح الطير ،

ولم يتمكن أبوه ولا أمه ، ولا زوجته بنلوب أحكم النساء من ندبه وحمله إلى مدفنه . ولكن قل لي من أنت وأين مدينتك ومن هم ذووك . وهل أقلّتك سفينتك إلى هنا ومعك صحبك ، أو قدمت في تجارة على سفينة غيرك ؟ »
فقال أوذيس : « سأتوخى الصدق في إجابتك عن كل هذا ، إني من مدينة أليباس ، ووالدي هو أفيداس ، واسمي إفريت ، وقدومي إلى هنا من صقلية عمل من أعمال الآلهة وليس بمحض إرادتي . وقد رست سفينتي قريباً من هنا . وأما أوذيس فقد انقضى على تركه إياي خمس سنوات . ومع هذا فقد بارحني وسافر على الطالع الميمون ، فابتهجنا ، وتوقعنا أن تكون سفرته مأمونة وأن نظلّ صديقين في الآتي من الأيام » .

قال أوذيس هذا ، ولما سمع أبوه الشيخ هذا الكلام ، حزّ الألم فؤاده ، وأخذ التراب بيديه وحشاه على شعر رأسه الأبيض . ولما رأى أوذيس ذلك اختلج قلبه في صدره ، وكاد يبكي لمشاهدته أباه على تلك الحال . فطوقه عندئذ بذراعيه وقبّله ، وقال : « ها أنا يا أبي ولدك الذي تبكيه . ها أنا ذا أعود إلى بلدي بعد غياب عشرين عاماً . وقد انتقمت من أولئك الذين كانوا يسعون للزواج بامرأتي ، فقتلتهم جميعاً » .

فأجابه الشيخ : « إذا كنت أنت ابني أوذيس نفسه ، فاذكر لي علامة بيّنة أعرفك بها » .

فقال أوذيس : « دونك هذا النَّدَب في فخذي حيث جرحني الخنزير البرّي في جبل فَرناس . فقد أرسلتني أنت وأمي إلى جدّي أوتوليخ ، فجُرحتُ في الصيد . وهاك علامة أخرى ، فإني مخبرك ما هي الأشجار التي أعطيتني من أشجار البستان فيما مضى من الزمان ، حينما كنتُ صبياً أسير معك مستفهماً عن أسمائها . فقد أعطيتني ثلاثَ عشرة من شجر الكُمَّثرى ، وعشراً من شجر التفاح ، وأربعين من شجر التين . ووعدتني بخمسين من شجر الكرمة حينما يحين موسم العنب . » فخفق قلب الشيخ بين جنبيه ، وتخاذلت رجلاه ، فقد عرف صدق تلك العلامات ، فألقى ذراعيه حول ولده ، وضمّه هذا إليه ، فانتعشت روحه وقال : لقد أيقنت الآن أن في السماء أرباباً إذ علمت أن أولئك الخطّاب الأشرار قد عوقبوا بسوء عملهم . ولكني أخشى أن تثير قبائلُهم أهل إيثاكة والجزر المجاورة علينا» .
فقال أوذيس : « لا تقلق نفسك بهذه الأمور يا أبي ، بل دعنا نذهب الى البيت . فهناك تليماخ وعموس وراعي البقر وقد هيأوا لنا الطعام » .

فدخلا البيت فألفيا تليماخ ورفيقيه يقطعون اللحم للغداء ،

ويمزجون النبيذ . وعندئــذ غسلت المرأة الصقليّة لبرت ، ودهنته بالزيت ، وكسته معطفاً زاهياً . ووقفت أثينا إلى جانبه وصيّرته أطول قامــة وأصلب عوداً . فدهش ابنه عندما رآه ، وهو على هذه الحالة من الجمال ، شبيهاً بالأرباب الذين يعيشون أبد الدهر ، فكلّمه قائلاً :

« لا ريب في أن أحد الأرباب الخالدين قــد صيّرك يا أبي جميل المنظر طويل القامة ! »

فأجاب لبرت : « وددْتُ لو شاء الإلَه أن أقف أمس الى جانبك ، وأنت تثّأر من الخطّاب كما كنتُ في سالف الأيــام حينما استوليت على مدينة نريكوس الجميلة ، إذن لفتكتُ بالكثيرين منهم برمحي وأفعم قلبك سروراً » .

هذا ما كانا به يتحادثان . ولما أُعــدّ الطعامُ جلسوا إليه جميعاً . ودنا الشيخ ذوليوس مع أولاده قادمين مــن عملهم ، لأن المرأة الصقليّة ، وهي أمّ الأولاد ، قد دعتهم . ولما رأوا أوذيس ، وقفوا ذاهلين لا يملكون نطقاً . فقال أوذيس : كُفّ عن عجبك لهــذا المشهد أيها الشيخ ، واجلس للطعام . فقد هُيّئ طعامنا ، وانتظرناكم طويلاً » .

فركض اليه ذوليوس باسطاً كلتا يديه ، وقبض على يد أوذيس وجعل يقبّل معْصَمَها ، وتكلم فقال : « إن

سرورنا بمجيئك لعظيم ، لأننا لم نكن ننتظرك . ولا ريب في أن عودتك من عمل الأرباب . فلْتجرِ أمورك جميعها على خير مــا ترغب . ولكنْ قل لي أتعلم الملكة بنلوب بمجيئك أم أرسل اليها رسولاً يخبرها ؟ »

فقال أوذيس : « إنها عالمة بالأمر » . وعندها جلس الشيخ إلى الطعام ، وجلس أبنــاؤه أيضاً بعد أن حيّوا أوذيس . وفي غضون ذلك انتشر الخبر في المدينــة أن الخطّاب قد قتلوا ، وأقبل أقارب الرجال على بيت أوذيس بالعويل والأنين ، وحملوا جثث الموتى ودفنوها . وأما الذين قدموا من بلاد أخرى فقــد حملوا جثث قتلاهم الى السفن لينقلوهـا إلى مدافن آبائهم . ولما تمّ هذا جميعه احتشدوا في سوق المدينة ، ووقف فيهم أوفيث ، وقد اشتدّ حزنه على ولده أنطينوس الذي قتله أوذيس قبل سائر الخطّاب، وقف في وسطهم وقال : « لا ريب في أن هذا الرجـل قد أنزل بهذه الأرض شراً عظيماً ، إذ استصحب كثيرين من الرفاق البسلاء الى طروادة ، فأضاعهم جميعاً مع سفنهم. وقــد عاد الآن وقتل أمراء الشعب . وذلك عار علينا ، تَصِمُنا به الأجيال القادمة ،إذا لم ننتقم من هؤلاء الذين فتكوا بأبنائنا وإخوتنا . حقاً انني لا أرغب في الحياة ، إذا بقي

عمل كهذا بلا انتقام . فتعالوا إذن ولنسرع لئلا يركبوا البحر وينجوا بأنفسهم » .

قال أوفيث هذا وهو يبكي . ورثى له الناس جميعاً لدى سماعهم كلامه . ولكن ميذون الداعية وقف في الجمع، وتكلم فقال : « أصغوا إليّ يا رجال إيثاكة ! لا ريب في أن أوذيس لم يقم بهذه الأعمال من غير معونة الأرباب الخالدين . وقد رأيت بعينيّ هاتين ، أحد الأرباب واقفاً إلى جانب أوذيس متخذاً شكل الأمير منطور . فإلى جانب أوذيس وقف إلـه يشدّ أزره ، ووقف إلـه آخـر بين الخطّاب ، يوقع بهم الاضطراب حتى سقطوا » .

قال ميذون الداعية هذا ، ووقف بعده أليثرْس العرّاف العالِم بما كان وبما سيكون ، وتكلم قائلاً : « ان حماقتكم يا رجال إيثاكة هي السبب في كل ما وقع من أحداث . فإنكم لم تصغوا إليّ ولا الى منطور ، ولم تردعوا أبناءكم عن سفاهتهم . فقد أتوا شراً عظيماً ، إذ جعلوا ينهبون أموال رجل باسل ، ويخطبون ودّ زوجته ، ظناً منهم أنه لن يرجع . فهلمّوا الآن وأصغوا إليّ لكي لا يصيبكم من الأذى أسوأ مما أصابكم » .

عندئذ نهض بعضهم وذهبوا مسرعين ، وكان هؤلاء هم القسم الأعظم ، وأما الباقون فظلّوا في أماكنهم ولم

يأبهوا لنصيحة ميذون والعرّاف ، بل انقادوا الى كـــلام أوفيث . فلبسوا سلاحهم ومشوا نحو المدينة يقودهم أوفيث.

عندها خاطبت أثينا زفس قائلة : « قل لي يا أبـي أيّ مقصدٍ تسرّه في نفسك ، هل تريد أن تثور الفتنة أو أن تقومَ الصداقة بين هذين الفريقين ؟ »

فأجابها زفس : « لمَ تستوضحين عن هذه الأمور ؟ ألم يكن قتـــل أوذيس للخطّاب في قصره من تدبيرك ؟ فليكن مـــا تريدين . ولينتهِ الأمر بسلام ووفاق ، حتى يحالف النجاح أوذيس في هذه الأرض ، ويعيش الناس من حوله في غِبطة وسلام » .

ثم انطلقت أثينا ويمّمت أرض ايثاكة . ولـمــا انتهى أوذيس وصحبه من طعامهم وشرابهم قال الملك : « ليذهبْ أحدكم ويرَ هل هؤلاء الرجال قريبون ؟ »

فخرج ابن ذوليوس . ولما وقف على عتبة الباب رآهم يقتربون ، فصاح قائلاً : « لقد صاروا على مقربة منا ، فلنعجل في التسلح كل التعجيل » .

فتسلحوا . وكـــان مع أوذيس تلياخ وعموس وراعي البقر . ووقف معه أيضاً ستة من أبناء ذوليوس ، ووقف كذلك الشيخان ليرت وذوليوس على تقدمهما في السن واشتعال

رأسيها شيئاً . ولما خرجوا من المنزل اقتربت أثينا متخذة شكل الأمير منطور وصوته . فلما رآها أوذيس ابتهج قلبه، وخاطب تليماخ قـائلاً : « إني أعرفك يـا بني جيداً ، وأعرف أنك تتجمل بالشجاعة ، ولا تأتي مـا يشين بيت آبـائك الذين اشتهروا في البلاد عـلى الدوام في الشجاعـة والنجدة » .

فأجـاب تليماخ : « ستخبّر هـذا الأمر بنفسك إذا شئت » .

فابتهج قلب ليرت وقال : « ما أسعد هذا اليوم الذي يتبارى فيه ابني وحفيدي في البسالة والمروءة ! » .

ثم دنت أثينا من الشيخ ، وقالت : « أدعُ يا ليرت أولاً لأثينا ولزفس أبـي البشر ثم أطلِق رمحك » .

قالت هذا ، وبثت في صدره قوة عظيمـة . فأطلق رمحه بعد أن دعا فضرب أوفيث واخترق خوذتـه ، فوقع على الأرض قتيلاً . ثم انقض أوذيس وابنـه على رجال ايثاكة بالسيوف والرماح المزدوجة الأسنة . وكادوا يفتكون بهم جميعاً ، ولكنَّ أثينا صاحت عالياً وقالت :

« كفّوا عن القتال يـا رجال ايثاكة فإنـه لَشديد عليكم » .

فاشتد فزع الرجال لدى سماعهم صوتهـا ، وطرحوا أسلحتهم على الأرض ، ولاذوا بالهرب إلى المدينة لينجوا بأنفسهم . ولمـا أراد أوذيس اللحاق بهم ، أرسل زفس صاعقة من السماء فوقعت عند قدمي أثينا ، فصاحت هذه قائلة : « كُفَّ عن القتال يـا ابن ليرت لكي لا تثير حنق زفس » .

فكفَّ أوذيس عن القتال . وأحل زفس وأثينا السلام بين الملك وأهل إيثاكة .

فهرس الأعلام

استيكس — أحد أنهار الجحيم . كان من عادة آلهة الأساطير أن يحلفوا بهذا النهر ، وحلفهم هذا لا رجوع فيه . وإذا استحم أحد في هذا النهر لا يمسه ضر من سلاح أو غيره . وقد غطست ثيتيس أم أخيل ولدها في هذا النهر ممسكة به من عقبه ، فكان الموضع الوحيد الذي أصابه فيه جرح فيما بعد فأودى بحياته .

أطلس — ملك موريتانيا (أفريقية الشمالية) في الأساطير القديمة وابن زفس . غضب عليه فيرسا البطل الإغريقي لرفضه تضييفه (فحوله إلى جبل عال) .

أغاممنون — ابن أتريذ وأخو مانيلا ، ملك مسينا وأرغوس ، وزعيم أبطال الإغريق الذين حاصروا طروادة . قتلته امرأته كليتمنسترا وصاحبها اغيستوس لدى عودته من طروادة .

اغيستوس — أحد أحفاد أتريذ ملك مسينا . قتل أغاممنون بعد أن أغوى امرأته كليتمنسترا وقتله اوريست بن أغاممنون .

أفلون — هو عند اليونان والرومان إلـه الغيب والطب والشعر والفنون والقطعان ، وإلـه النهار والشمس .

افيرة — من أقطار بلاد الإغريق القديمة إلى الجنوب من مقدونيا .

افيوس — صانع الحصان الخشبي الذي استعان بـه نخبة من أبطال الإغريق على دخول طروادة .

افيالتس — ابن اولوس واخ اوتوس .

افيميديا — ابنة تريوفس ومحبوبة فوسيذون كانت لحظوتها عنده كثيراً مـا تسير عـلى شاطىء البحر تحتضن مياهه ، فخطفها قرصان تراقيا وأخذوها إلى جزيرة ناكسوس في الأرخبيل ، فأنقذها ولداها .

الاثيوبيون — سكان أعالي النيل عند القدماء .

الاولمب — اسم جبال عدة في بلاد الإغريق ، أشهرها يقع بين مقدونيا وتساليا . تزعم الأساطير أنها مقر الآلهة .

التفيانيون — سكان جزر صغيرة في البحر الايوني كـانت ملجأ لقرصان البحر .

السيكلوب — هم على زعم الأساطير جبابرة عظام لهم عين واحدة في جباههم . ويصنعون في بركان اتنـا في جزيرة صقلية الصواعق لزفس ، باشراف هيفست إلـه النار والمعادن .

السيكونيون — قوم من تراقيا يقطنون الساحل الغربـي قرب جبل اسماروس .

اسماروس — بلدة في تراقيا تقع على جبل اسماروس . كانت تنتج أفخر الخمور . وهي مدينة السيكونيين .

السياريون — شعب قديم كان موطنه سواحل البحر الأسود .

ألسينوس — زعمت الأوذيسة أنه ملك الفسيانيين ووالد نوسيكا . وقد احسن وفادة أوذيس الناجي من الغرق .

الغرغون — رأس الغرغون هو رأس ميدوزا ، احدى أخوات ثلاث ، تزعم الأساطير انهن أُعطين القدرة على تحويل كل من ينظر اليهن إلى حجر . وهذه القدرة تعزى إلى ميدوزا خاصة .

الفسيانيون — قوم ورد ذكرهم في الأوذيسة ، وكانوا يسكنون جزيرة اسكيريا التي لم يعين موقعها .

الكمينا — أم هرقول أشهر أبطال الأساطير الإغريقية .

اللستروغونيون — قوم متوحشون من آكلي لحوم البشر .

المرامدة — من سكان بلاد الإغريق القدماء . ذكرت الإلياذة ان أخيل كان ملكاً عليهم بعد أبيه فيلا .

اوتوس — ابن اولوس .

اوجيجيا — جزيرة في البحر الايوني .

اوريفيل — ابن تليفوس ملك ميسيا ، واحد أبطال حرب طروادة كان ذا جمال خارق .

اوريون — هو في الأساطير صياد جبار ذو جمال فائق حوّلته أرطميس إلهة الصيد إلى برج في السماء هو الجوزاء .

اوذيس — او عوليس، أحد مشاهير الأبطال الذين حاربوا طروادة . عرف بالحكمة وسعة الحيلة . والاوذيسة

هي حكاية عودته من تلك الحرب ومــا لاقاه في طريقه من الأهوال .

اوريست — ابن اغاممنون وكليتمنسترا . قتل امه وصاحبها اغيستوس انتقاماً لأبيه .

اوسا — جبل في تساليا .

اليسيا — (سهل اليسيا) هو الفردوس عند اليونان والرومان، ومقر الأرواح الفاضلة .

ايبيا — أو يوبيا احدى جزر الارخبيل .

ايذومين — ملك كريت وأحد أبطال حرب طروادة ، نذر بدون تروٍّ نذراً اضطره الى التضحية بولده .

ايلوس — ابن هيبوتوس صديق الآلهة كان يعيش في جزيرة ايوليا الغربية العائمة . وكان ملكاً عادلاً تقياً يعلّم سكانها استعمال الشرع ويتنبأ لهم عن الرياح . اعطاه زفس السلطة على الرياح . وعُدّ فيما بعد إلهاً للريح يقبضها ويثيرها كما يشاء .

ايلس — ابن مرمروس وحفيد ياسون وميديا . كان يعيش في افيرة ، وقــد رفض أن يعطي أوذيس سمــاً لسهامه خوف انتقام الآلهة .

أياس — (الأصغر) احد ابطال الإغريق . انكسرت بــه سفينته لدى عودته من طروادة ، وقام على صخر يهدد السماء ، فابتلعته الأمواج .

أياس – (الأكبر) احد ابطال الإغريق . نازع اوذيس
سلاح اخيل فغلبه أوذيس .

أيـا – اسم لجزيرتين ورد ذكرهما في الأساطير إحداهما
شرقية والأخرى غربية ، وكانت سيرسة الساحرة
تسكن في الغربية منها .

بنلوب – زوجة أوذيس وأم تلماخ . مثال الزوجة الوفية،
اشتهرت برفضها عروض خطابها الكثيرين في غيبة
زوجها التي دامت عشرين سنة .

تليفوس – ملك ميسيا ، جرحه أخيل برمحه فلم يشف إلا
بمرهم صنع من صدإ ذلك الرمح .

تلماخ – ابن أوذيس وبنلوب . كان لا يزال طفلاً عندما
سافر أبوه إلى حرب طروادة ثم سافر باحثاً عـن
أبيه تقوده أثينا في هيئة منطور .

تنتالوس – ملك ليديا ابن زفس من الحورية بلوتو . تزعم
الأساطير أنه عوقب في الجحيم بالعقاب الذي ذكرته
الأوذيسة ، لأنه أتى ذنبـاً ، اختلف الرواة في
حقيقته ، أهان به الآلهة .

تنيدوس – جزيرة على ساحل آسيا الصغرى .

تيتيوس – عملاق جبار كان له هيكل في جزيرة يوبيا .
كان إذا افترش الأرض غطى جسمه مساحة تسعة

أفدنة . ماتت أمه حين وضعته لضخامة جسمه .
قتله أبولون وأرطميس بسهامها . فقضي عليه في
الجحيم أن تنهش أفعى كبده على الدوام . وقيل
ان النسور لا تنفك تنهش أحشاءه .

ثيبة — عاصمة بيوثيا من بلاد الإغريق القديمة . وكان أهلها
جفاة سخفاء العقول .

ثيتيس — إلهة بحرية وزوجة فيلا ملك إيولكس الخرافي ،
وأم أخيل البطل الإغريقي الشهير .

ثيريسيا — عراف ثيبة . وكان أهل هذه المدينة ينزلونه
منزلة الآلهة .

ثيسوس — بطل إغريقي ابن ايجة ملك أثينا ، شخصية
تاريخية وخرافية معاً . قام بأعمال جبارة تشبه أعمال
هرقول . أعطته اريادنة ابنة مينوس ملك كريت
خيطاً استرشد به في التيه وقتل الوحش مونطور
واختطف اريادنة ثم هجرها . وحكم عليه في الجحيم
أن يبقى جالساً الى الأبد لأنه أهان فوسيذون إله
البحر .

جاسون — ابن ايسون ملك ايولكس إحدى مدن تساليا .
خرج منها على رأس خمسين من أبطال الإغريق في
السفينة أرغوس للاستيلاء على الجزة الذهبية .

خاريبديس — صخرة كبيرة عند مضيق مسينة مواجهة للصخرة سيلا التي تمثل كوحش بحري خطر كان البحارة القدماء يخشون عبور هذا المضيق لتلاطم الأمواج عند هاتين الصخرتين وكانت السفن الناجية من إحدى الصخرتين تتحطم في الغالب على الأخرى.

خيوس — جزيرة من جزر الأرخبيل .

دلوس — احدى جزر الارخبيل . كان فيها معبد عظيم لأفلون . وتزعم الاساطير أن أفلون وأرطميس ولدا فيها .

دودونا — احدى مدن افيرة في بلاد الإغريق القديمة جنوبي مقدونيا . كان فيها هاتف بالغيب في هيكل لزفس بقرب أجمة من السنديان .

دوليخيوم — جزيرة في البحر الايوني ، كانت جزءاً من مملكة أوذيس .

ذيفوب — أحد أبناء فريام ملك طروادة ، وزوج هيلانة بعد موت فاريس ، قتله مانيلا عند سقوط طروادة.

ذيوميذ — ملك أرغوس ، وأحد أبطال حرب طروادة .

ذيونيس — ابن زفس وإله الخمر عند الإغريق .

راذامنثوس — ابن زفس ، وأحد قضاة الجحيم الثلاثة .

زفس — الاسم اليوناني لجوبتير الروماني إله الآلهة .

زاسنثوس – جزيرة في البحر الايوني الى الغرب من البلوبونيز .

سيثرا – إحدى جزر الأرخبيل ، كان فيها هيكل لفينوس إلهة الجمال .

سيرسة – ساحرة خرافية شهيرة ، لها شأن كبير في أوذيسة هوميروس الذي زعم أنها أخت الشمس .

سيروس – احدى جزر بحر ايجة . أرسلت إليها ثيتيس ولدها أخيل لتنجيه من الموت أمام طروادة ، لأن النبوءات زعمت أنه ملاقيه هناك . فتنكر أوذيس بثياب تاجر وذهب الى الجزيرة وعرض في جملة أمتعته سيفاً . وكان أخيل حينئذ بين النساء لابساً مثل ثيابهن ، فقبض البطل الذي كان لا يقيم لغير المجد وزناً على السيف بحماسة ، وتبع أوذيس إلى طروادة حيث لاقى حتفه .

سيسفوس – أحد أبناء إيلوس الإلـه الموكل بالرياح . كان ينهب المارة ويضع عليهم حجارة ضخمة فيموتون بعد أن يقاسوا أشد الاهوال ، فحكم عليه لذلك في الجحيم بالعقاب المذكور في الاوذيسة .

طروادة – من مدن آسيا الصغرى . حاصرها الإغريق عشر سنوات ودكّوها بعدها . خلّدها هوميروس في

الإلياذة . عثر الأثري شليمان عــلى أنقاضها حديثاً
على مقربة من بلدة حصارلك .

علويس — ابن فوسيذون ، تزوج افيميديا فأحبها فوسيذون
وأنجب منها اوتوس وأفيالتس .

عموس — خادم أوذيس الأمين وراعي قطعانه . أصبح اسمه
مرادفاً للخادم الأمين الذي ينزل عند سيده منزلـة
الصديق .

فرسفين — إحدى آلهات الإغريق، ابنة زفس وملكة الجحيم.

فريام — آخر ملوك طروادة التي دكها الإغريق .

فرناس — جبــل مقدس في بلاد الإغريق جنوبـي تساليا
خاص بأفلون وعرائس الشعر .

فروتوس — أحد الآلهة البحريين يتخذ أشكالاً مختلفة لينجو
من الذين يلحّون عليه في الأسئلة .

فطرقل — بطل إغريقي صديق لأخيل ، وقــد رافقه إلى
حرب طروادة . قتله ، وهو لابس سلاح أخيل،
هكطور البطل الطروادي .

فليغيثون — نهر الجحيم ، ولم يكن يسيل ماءً بل لهباً .

فليون — جبل في تساليا قريب من جبل أوسا . في الأساطير
أن الجبابرة تمردوا على زفس وأرادوا الصعود إلى
السماء لمحاربته ، فجعلوا جبل فليون فوق جبل اوسا
ليرتقوا عليهما .

فاروس – جزيرة صغيرة على مقربة من الاسكندرية .
فوسيذون – إلـه البحر عند الإغريق القدماء .
فوليفيم – ابن فوسيذون إلـه البحر وأشهر السيكلوبيين ذوي العين الواحدة في الأساطير الإغريقية .
فيريا – احدى المدن الإغريقية من أعمال تساليا .
فيلوس – احدى المدن الإغريقية القديمة ، كان نسطور ملكاً عليها .
فيلوكتيت – من أشهر المحاربين في حصار طروادة . أوصى له هرقول أشهر أبطال الإغريق ، بسهامه المسمومة عند موته، وبهذه السهام استولى الإغريق على طروادة .
كريت – احدى الجزر اليونانية في البحر المتوسط .
كسندرا – ابنة فريام ملك طروادة . كانت بعد سقوط طروادة من سبي أغاممنون وقد قتلتها زوجته الشريرة.
كليتمنسترا – زوجة أغاممنون وأم أوريست . قتلت زوجها وقتلها ولدها .
كاستور – هو البطل الشهير ابن زفس وأخو فولكس . وهما ابنا ليديا امرأة تنداروس ملك لقدمونيا، واخته هيلانة . عرف بقدرته على ترويض الخيول .
كاليبسو – حورية وملكة جزيرة اوجيجيا في البحر الايوني. رحبت بأوذيس الذي قذف به البحر إلى جزيرتها، واستبقته عندها سبع سنين .

كوسيتوس — نهر في الجحيم كانت مياهه المرة الطينية تحدق بقاع الجحيم .

لقدمونيا — هي مدينة اسبارطة احدى المدن الإغريقية القديمة .

لاطونة — زوجة زفس وأم أفلون وأرطميس .

لاموس — ابن فوسيذون وملك اللسترّوغونيين .

لبرت — ملك ايثاكة وأبو أوذيس .

ليسبوس — الاسم القديم لجزيرة متيلين الإغريقيـــة احدى جزر الارخبيل .

مانيلا — ملك اسبارطة وأخو أغاممنون . وزوجته هيلانـــة اختطفها فاريس ، فكان هذا الاختطاف سبباً لحرب طروادة .

ممنون — شخصية شهيرة في الأساطير القديمـــة . وهو ابن الصباح . أرسله أبوه ملك مصر وايثوبيـــا لمساعدة الطروادين فقتله أخيل . ولا تزال أمه الصباح تبكيه كل يوم بدموع هي الندى .

ميسينا — مدينة اغريقيـــة تزعم الأساطير أن أغاممنون كان ملكاً عليها .

ميسيا — قطر من أقطار آسيا .

مينوس — ملك كريت ومشترّع حكيم وأحد قضاة الجحيم .

نسطور — ملك فيلوس أسنّ الأمراء الذين حاربوا طروادة ،

اشتهر بحكمته وخطبه الطويلة التي كان يلقيها في المجتمعات .

نوسيكا — ابنة ألسينوس ملك الفيسيانيين .

هرقول — ابن زفس وألكمينا وأشهر ابطال الميثولوجية الإغريقية . اشتهر بعمل الخوارق ، وقد مات بأن أحرق نفسه على جبل إيتا في تساليا .

هرمس — ابن زفس ورسول الآلهة . وهو نفسه إلَه الفصاحة والتجارة واللصوص .

هادس — ملك الجحيم وإلَه الأموات . وهو ابن زحل وأخو زفس وفوسيذون .

هيرا — زوجة زفس وإلهَة الزواج عند الإغريق .

هيفست — إلَه النار والمعدن عند الإغريق .

هيلاس — اسم تساليا القديم ، ويطلق على سبيل التعميم على مقاطعات عدة من بلاد اليونان ، وقد يطلق على بلاد اليونان جميعها .

فهرست

ينابيع الفكر الكلاسيكي

هذا الكتاب

« هذه يد كريمة تهديها سيدة كريمة الى اللغة العربية والناطقين بها . فقد فرغ الناس منذ عهد بعيد من اثبات ان نهوض الشرق العربي في العصر الحديث كنهوضه في العصر القديم لا يكون بالعزلة ، وانما يكون بالتعرف الى الشعوب الاجنبية والاتصال بها والأخذ منها والاعطاء لها .

وقد عنينا في العصر الحديث بالادب اليوناني عناية ضئيلة متواضعة فنقلت الالياذة الى اللغة العربية ولكنها نقلت شعراً . وقد ظلت ترجمة هذا الادب مقصورة النفع على المثقفين الممتازين لا تتجاوزهم الى أصحاب الثقافة المتوسطة . ومع ذلك فلن تجد في اوروبا وامريكا طبقة من طبقات الناس الذين يقرؤون الا والسبيل ميسرة لها لتقرأ الالياذة والاودسا في غير مشقة ولا عناء. تقرؤها في الترجمة الدقيقة وتقرؤها في الترجمة المقاربة وتقرؤها ان شاءت في ملخصات سهلة قريبة المنال وهذا هو الذي قصدت اليه السيدة الجليلة والتي يشر[illegible] اقدم كتابها الى القراء العرب .

والحق انه لو لم يكن لصاحبة هذا الكتاب الا انه[illegible] ان تجعل من هوميروس الشاعر الشعبي اليوناني شاع[illegible] عربياً لكان هذا وحده يداً كريمة تسديها الى العربية و[illegible]

طه [illegible]